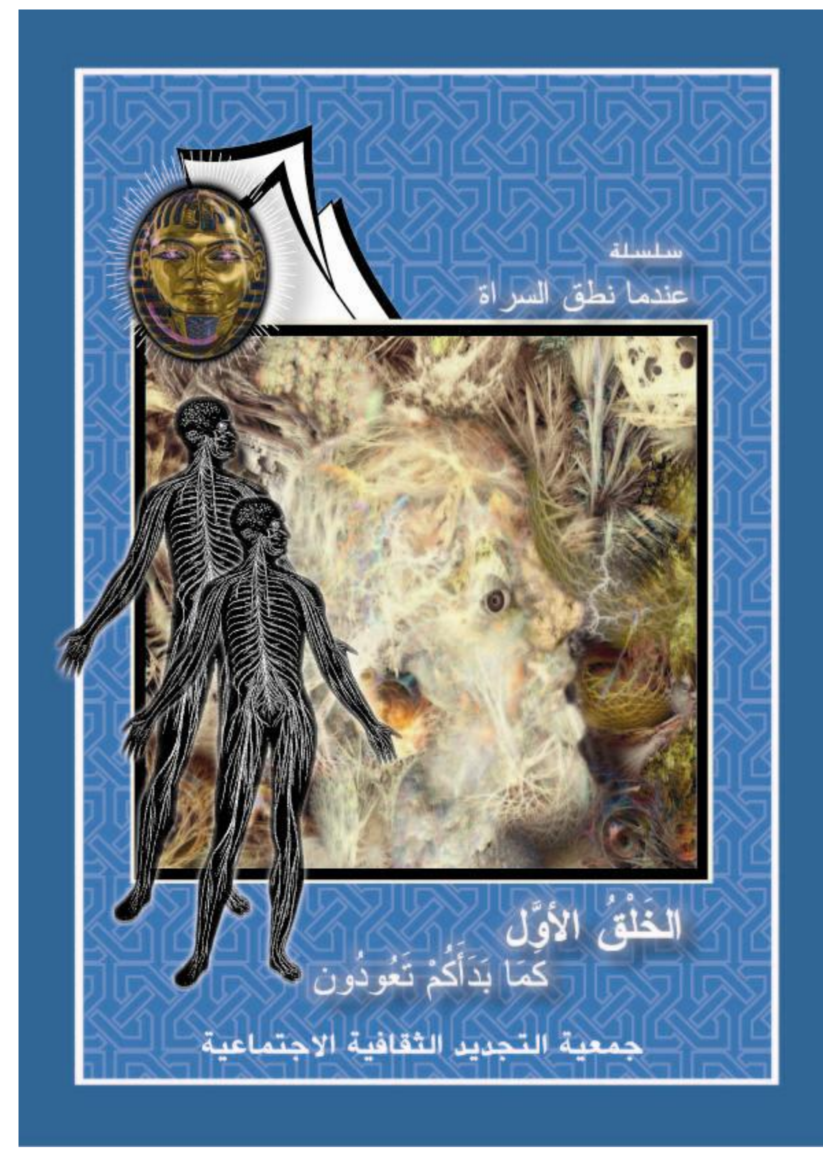

سلسلة
عندما نطق السراة
الخَلْقُ الأوَّل
كمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُون
جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

بسم الله الرحمن الرحيم

سلسلة عندما نطق السراة

الخَلْقُ الأوَّلُ

كَمَا بَدَأكُمْ تَعُودُونَ

قسم الدراسات والبحوث

جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

مملكة البحرين

الطبعة الأولى

2005

المقدمة

(أصبحنا والطائر الذي ربّى فرْخَ الوقــواق إخوانــاً، نحتضن بيض الأعداء، نفقّسه له مجاناً في أعــشاش أدمغتنا، ننمّيه ليرمي في التراب فراخنا، فراخ تراثنا الصحيح، نغذّيه ونحتضنه، ثمّ نستميت دفاعــاً عنــه بحياتنا). جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية

توطئة

لم تكن الأمّة الواحدة مختلفة قطّ ولا جاهلة في مسألة خلــق آدم وكيفيّته، قبل بزوغ التوراة (السبعينيّة) الملفّقة التي نــصبّت مــن نفسها حكماً مُهيمناً في مثل هذه المسائل، فإنّ الكهنة الــسبعين الــذين كتبوا التوراة قاموا عمداً وجهــلاً بكتابتهــا وفــق أســلوبهم ووفــق منظورهم وفهمهم ونواياهم، بعد أنْ جعلوا لكتابهم سياجاً قدسياً حــين ضمّنوه كثيراً من الأساطير المقدّسة والحكايات الشفوية المقتبسة مــن الحضارات العربية التي قبلهم والتي كان يتمّ تناقلها شفوياً، وأثبتوهــا ليصوغوا لهم تراثاً مركزيّاً منتحَلاً منفوخاً يخرجوا به مــن بــداوتهم المفتقرة للحضارة، وصيّروا الأمر وكأنّ موسى (ع) هو الــذي أتــى بها، ولا نستبعد أنّه (ع) أتى ببعض أخبارها فإنّ الرسالات والنبــوّات تراكميّة. وقد خلص كثيرٌ من المحقّقين اليوم إلــى أنّ بعــضاً منهــا مسروقٌ ومقتبسٌ ممّن سبَق التوراتيين، حيث تكشّف لهم وجودٌ أقــدم

لمضامينها في كتابات وألواح ورُقُم السومريّين العرب والبابليّين والسوريّين وعرب مصر والجزيرة.

إنّ نسبةَ شاملِ محتوى هذه المدوّنات إلى موسى (ع)، وبالتالي إلى الله عزّ شأنه، أطغت بالقدسيّة على ما سُمّي بالتوراة ليُوسَم بكتابٍ مقدَّس، الذي نُسلِّم بأنّه يتضمّن بعض ما جاء به موسى (ع)، وفيه الأساطير والمرويات الشعبية، وأيضاً الخرافات والافتراءات، وفيه كذلك تُراثنا العربيّ الشفويّ، أُعيد صياغته بنقص فهمٍ وبأخطاء وتحريف.

ومع أنّ القرآن جاهد ليُسقط تلك القداسة عمّا كتبه الأحبار وكُتّاب التوراة الذين إمّا أنّهم أخفوا ما لا يُوافق هواهم من حقائق الكتاب أو حرّفوها: **(وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ)**(آل عمران:187)، وإمّا أنّهم ألّفوا ودسّوا غيرها: **(فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُبُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيَشْتَرُوا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ)**(البقرة:79)، فالقرآن قد أسقط هذه القدسيّة المخترعة لمدوّنة الكهنة الذين خلطوا كتاب موسى (ع) الذي لمْ يسلم من الإضاعة مع أكوامٍ من خليط أهوائهم وأنسوجاتهم.

إلاّ أنّ الأمر ومع الأسف مضى تاريخيّاً بخــلاف التعليمــات والتضمينات والتوصيات القرآنيّة، فكان أنْ عطّلتْ تلك القداسة الزائفة مسيرةَ الفكر في أمرٍ كان محسوماً لدى الأوائل، وعُدَّ من بــديهيّاتهم، هو أمر عطّل الفكر الإسلامي برمّته في مثل هذه القــضايا، بــدخول كثيرٍ من أهل الكتاب في الملّة الجديدة بفهوماتهم القديمــة المظنــون قدسيّتها، وبثّها كحقائق واستيلائها على الفكر، ثُمّ كان تقريب الكثيــر من أولئك الكتابيّين من الكهنة والأحبــار إبّــان العــصور الأولــى، ودخولهم في العمليّة الروائية كمرجعيّات تاريخيّة وإسلاميّة، لحــساب أجندات سياسيّة وصراعات مذهبيّة، وبعد انفتاح باب الروايات لكــلّ ذي مأرب، طُمّ وادي الفكر بالكثير من الروايات التوراتيّة الذين كانوا هم أساسه ومنبعه وبُذّاره، حتّى أنّك لا تكاد تتتبّع الروايات المتعلّقــة بالخلق الأوّل إلاّ وتجد كعباً ووهباً وغيرهما في السلسلة والإسناد، أو تُحال على مجاهيل، بل إنّ معظم الأخبار تُنقل بصراحة عــن أهــل الكتاب أي عن توراة الكهنة، أحياناً بعبارة "وجاء عن أهــل الكتــاب" وأحياناً بمسلّمة أنّها معروفة من أخبار الأوّلين! ويكفــي أنْ نعلــم أنّ أوّل كتاب "إسلاميّ" في قصص الأنبياء كتبه "وهب بن منبّه" ولمــن تتبّع الأسانيد لن يعدم أنْ يجد وهباً يقف علــى رأســها، وأنّ أكبــر القصّاصين هم كعب الأحبار ووهب وتميم الداري وهــم مــن أهــل الكتاب سابقاً.

إنّه لمن المؤسف ثانيةً، أنّ الذهن البشري، ظلّ مِــنْ عادتــه التواطؤ على صاحبه والتنصّل من مسئوليّته البحثيّة، فالإنسان يميــل فكره إلى المحاكاة، وإلى التواري في ظلال الغير، فيــأنس لــو قــال مقالته أناس سبقوه، ويرتعد لو كان سيأتي بغريــبٍ أو مــا ســيُدعى "بِدعة"، إذْ "الحشرُ مع النّاس عيدٌ" كما يقولون، فهــو بطبعــه يــأنس للمألوف والمسموع ويستظلّ به لأنّه يُدافع من متراسٍ حصين، وينفر عن الغريب وغير المسموع لأنّ تبنّيه لا يجلب الــسلامة، وعليــه أنْ يقيم متاريسه وحده لو صمدت للرّاجمات.

فالذهن – بهذا – يدخل بصاحبه فــي نفــق مــؤامرة خفيّــة لموارة الحقيقة العزباء، لهذا حدث التواطؤ اللاّشــعوريّ واللامُعلــن بين أهل القرآن وأهل التوراة في كثير من القضايا، مع وجود فــصال سافرٍ بين الكتابيْن وعداءٍ ظاهرٍ بين الأمّتيْن!

والوضع للآن هو هو، لذا فأيّ طرحٍ جديد ســيُواجه بداهــةً بعنف هذا التواطؤ الذي اكتسب فيه كلٌّ منهما قوّته من الآخر لا مــن نفسه، عن تشابهٍ زائف وهميٍّ في النصوص القرآنية الشريفة عُولجت بتأويلها تجاه الفهم التوراتي الخُرافيّ المألوف الذي انداح على الــنصّ القرآنيّ بتواتر القصّاصين، فظنّ المسلمون أنّهم حقّقوا قــوّة الحقيقــة القرآنية كونهم أخذوا شهادة توثيقه من توراة الكهنة (وهو غير توراة

موسى)، إمضاءً منهم لفهم قاصرٍ عن قوله تعالى **(وَإِنَّهُ لَفِـي زُبُـرِ الْأَوَّلِينَ* أَوَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةً أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرائيلَ)** (الشعراء:196، 197)!

والحقيقة أنّهم بهذه العطْفة القاتلة إنّما أعطوا زيْـف قـصص التوراة وهفواته الوثاقة المطلوبة والـصدقيّة، لا العكـس، وربطـوا مصير الكتاب الحكيم الذي لا يأتيه الباطل، بآخر مختلط ما أنـزل الله به من سلطان بعد تشويهه، فأصلحوا بتلك الخطوة عمـل المفـسدين و**(اللَّهَ لا يُصْلِحُ عَمَلَ الْمُفْسِدِينَ)**(يونس:81).

فمع أنّ القرآن جاء بالحقيقة البيضاء النقيّة، وكلّ آياته في هذه المسألة (مسألة خلق البشر) تقول نقيض مـا تـصوّره التـوراة (أو بالأولى تفسير نصوصه) أو ما تُمضيه روايات المـسلمين المنحولـة بشكل مباشر أو غير مباشر من استيلاء الفكر التوراتي، إلاّ أنّ:

* الاستحكام الفكري المتسالم عليه "للسيناريو" المُتصوَّر عن بدايـة الخلْق.

* وللقداسة الزائفة الموجودة في تلك الصورة المُـسبغة علـى آدم الأوّل.

* ولإهالة التقديس على آلاف المرويّات كائنةً ما كانت، ولـو كـان نبيّ الإسلام (ص) ومن جاهد بين يديه براء منها.

* وللتعامل الخاطئ مع مسألة حاكمية قرآن الله وعدم فهم نظامه.

* ولوقوع التشابه في ألفاظه التي تُحاكي في الظاهر المتوهّم نسْجَ القصّاصين، حتّى وصل بالأمر أنْ يُستدلّ بالقرآن على المزعوم التوراتي، مع أنّ القرآن المهيضُ جانبُه لديهم يقولُ النقيض!

كلّ ذلك وغيره قد حجب أشعة نور القرآن الواضحة أنْ تصل إلى عقل المسلم، وحجب القرآن أيضاً أنْ يصل إلى مُخاطبة العالَم، بل الذي وصل هو التوراة تحت مسمّى "الكتاب المقدّس"، فسادَ هذا التصوّرُ المتخلّف والخاطئ على عقولِ العالَم كلّه.

ولولا رحمة الله وتنصّل بعض رجالات العلم (في الغرب) وتحرّرهم من سطوات لاهوت "الكتاب المقدّس" هذا، وانبثاقهم جيولوجياً (geology)، وأركيولوجياً (archaeology)[1] وبحثهم آثارياً وسلالياً (genealogy)، لاستدراك الحقيقة المقبورة، الحقيقة التي كان العرب الأوائل – قبل تدوين التوراة – يعرفونها ويعيشونها ويدوّنونها، وأشبعوا بها كلّ أساطيرهم المقدّسة لديهم لتبقى معْلماً وذخراً، فقام هؤلاء العلماء المنفلتون من الأسْر الكهنوتيّ بمجهودهم

♦ [1] – الأركلوجيا : هو علم الآثار القديمة. منير البعلبكي، المورد القريب، ص28. و"أرك– لوجي" كلمة عربيّة التركيب فالــ "أرك" هو الأرض (بطرس البستاني، محيط المحيط، ص 7) ومنها جاءت تسمية صخور الأرض "رُك" بالإنجليزية، ولوجي = لُغة، فهو لغة صخور الأرض وعلْمُها.

العلميّ المتجرّد الجبّار تطبيقاً لما حثّ عليه القرآن المهجور من قبْل: **(قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)**(العنكبوت:20)، فتوصّلوا بجهودهم المباركة – التي انقطع المسلمون مع الأسف عنها– إلى كثيرٍ من الحقائق في تاريخ خلْق الإنسان.

إنّ أكبر مهزلة، بل أكبر مأساة، أنْ تمّ تعليق مصداقية ووثاقة ما يقوله القرآن وربطه بما زعمته التوراة في "خلق الإنسان"، مع أنّ القرآن أثبت أنّه جاء ليقصّ على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون **(إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَقُصُّ عَلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَكْثَرَ الَّذِي هُمْ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ)**(النمل:76)، وأنّه مهيمنٌ على الصادق من تلك الكتب فضلاً عن غيرها **(وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقاً لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِناً عَلَيْهِ فَاحْكُمْ بَيْنَهُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ)**(المائدة:48)، انقلب ظهر المجنّ ولُبس الإسلام كالفرو مقلوباً، فصار أهلُ الكتاب هم الذين يقصّون على القرآن وأهله، وصار الفكر التوراتي هو المهيمن على تفسير قضايا القرآن وآياته، وقضايا العلم والكون.

نعم، لو تمّ ربط القرآن بالمدوّنات السومرية والبابلية والأكادية والمندائيّة والسوريّة وحضارة وادي النيل من أرض مصر، لكان أجدى، لأنّ تلك حقائق، لا مقولات ظنونيّة، ولأنّها أصيلة غير

منتحلة، ولأنّها تريد تعليم الحقيقة لا ادّعائها، ولأنّها أخيراً صيغت بعلم وتعليم لا بجهل وافتراض[1].

لماذا البحث؟

كُلّنا يُعادي ويُسالِم، كُلّنا يُحبّ ويبغض، كلّنا لنا مواقفُه في الحياة منْ كلّ القضايا، ولو وخْزاً أو نبضاً على مستوى الخلْجة أو الشعور إنْ تعذّرتْ وسيلةٌ تمثّله أو البوح به، كُلّنا يفعل ذلك وِفْق موازين أو أنظمة ذاتيّة قد تَبرْمَجَ بها شعورُه ولا شعورُه، هي أشبه بـ "لوحه المحفوظ"، فإذا أردنا أنْ نتحقّق من سلامة تلك المواقف، وكفاءة تلك الأنظمة، وصوابيّة تلك الموازين، لنُحقّق كما قال خليل الرحمن **(محيايَ ومماتي للهِ ربّ العالَمين)**(الأنعام:162)، علينا أنْ نغرز في أنظمة وعينا الحقائق ونزيح الأباطيل والأوهام، علينا أنْ نُعيد كتابة وعْينا وفق النظام الربّانيّ، لتخطو إدارتُنا لحركاتنا وسكَناتنا،

♦ [1] – لو تأمّلت ما يقوله صامويل كريمر، خبير التراث السومري، لو رأيت استعجابه كيف تمّ انتحال هذا التراث في التوراة! لو سمعت دهشته بالأوائل فيكتب (.. يُوجد فرقٌ مهمّ بين المفكّرين المحدثين والمفكّرين السومريّين، ذلك أنّ المفكّر الحديث مستعدّ للإقرار بأنّ معرفته واستنتاجاته إنْ هي إلاّ نسبيّة وأنّه متشكّك في أيّ جواب أو حلّ مطلق، ولكنّ المفكّر السومريّ لمْ يكن كذلك، إنّه كان على يقين من أنّ آراءه كانت مطلقة الصحّة، وأنّه كان يعلم علم اليقين كيف خلق الكون وكيف يسير ويعمل". صامويل كريمر، من ألواح سومر، ص 159.

خطواتٍ نافعة ومسئولة وهادفة وصحيحة، نُثاب عليها بدلاً من أنْ نُحاسب، في حبّنا وبُغضنا، في حربنا وسلمنا.

لا أحد يستطيع أنْ يُبرمج أحداً آخر عنوةً، حتّى الشيطان لا يقدرُ أنْ يَصيغ مراكز تحكّم مشاعرنا وبالتّالي أنظمة تحريكنا إلاّ إذا أعطتْهُ أنفسُنا الأمّارةُ الإذنَ ليفعل **(وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إلاّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ)**(إبراهيم:22). كلّ الذي نستطيعه أنْ نُقدّم للقارئ أنظمةَ تفكير، نفتح له مساحات بحث، ونصعقه بحقائق، ونرشقه بنتائج، نقدّمها لأنّها خلاصة تجربتنا في وعينا لكينونتنا وتطوّرنا، فنقدّمها عن اقتناع أكيد بسلامتها وبراءتها وخيريّتها، لكنّا ندعو القارئ بالإيمان النزيه الحرّ وإن اتّسمتْ لُغتُنا بصرامة المُحقّ أو بقوّة المُصيب، فلسنا ندعو القارئ إلاّ أن يكون حُرّاً متجرِّداً مع ما نقول، مثلما ينبغي أنْ يُصبِحَ كذلك حيالَ برمجتِه التي هو في أسْرِها الآن، وليأخذ كلّ ما نقوله على نحو الفرضيّة والزَّعم، ليختبرها بنفسه، فقناعتُه لن يُحاسَب عليها غيرُه أألهمه بها مَلاكٌ أم برْمجهُ بها شيطانٌ، حاشاك اللهُ!

نحنُ نُوقن أنّ معلومةً مستبدَلةً واحدةً في معادلات تفكيرنا قد تُحدث فارقاً في نتيجة سلوكنا وحياتنا، فكيف لو تغيّرت المعادلةُ كلّها؟ ما بالُك لو تجدّد النّظامُ كلّه؟ بل كيف لو استُعيض عن كلّ موازيننا

بموازين القسط؟! حتماً سيكون لنا بعثٌ وحشْرٌ وقيامـــةٌ قبــل اليــومِ الآخِر.

هل نحنُ مقتنعون أنّ معرفة الحقيقة بحدّ ذاتها مطلبٌ، لأنّهــا اللبنة الصحيحة في أساس بنائنا ومعمارنا الثقافيّ وفي تشكيل وعينــا لحقيقة وجودنا من أجل فهم منْ نحن وما دورُنا في الكــون كخلــقٍ متميّز؟ فلنسأل أنفسنا إذاً: هل نشعر ضروريّاً ومهمّاً أنْ؟:

1. ندرك أنّ أيّ تقدّمٍ أو مراكمةٍ لمناهج أو معلومات على أســس خاطئة سيُنتج تقدّماً بطيئاً أو منحرفاً ووشيك العطب، فخطأنــا الأوّل سيغدو أخطاء متراكمةً طويلــةً حــصيلتُها نكــون أو لا نكون، أو رُبّما نكون شيئاً – مسْخاً – آخر، للقــول المــأثور: **(العامل على غير بصيرة كالسائر على غير الطريق لا تزيــده سرعةُ السير إلا بعدًا)**[1].

2. نتحقّق مِن كثيرٍ مِنْ مسلّمات تراثنا الاعتقاديّ، ونُراجعها علــى محكّ أنّها دخائل خالطتْنا، قد تكون اندسّت إلينــا غفلــةً، مِــن عدوّنا، هذه الخفايا تعمل عملها كركائز في لا شعورنا لصياغة فلسفتنا عن الحياة والمــوت، وتُــشكّل اعتقادنــا عــن الله، أو ملائكته، أو كتبه، أو رسله، أو اليوم الآخر بما يكتنفه، أو عالَم

---

[1] – الفتال النيسابوري، روضة الواعظين، ص10. وأيضاً محمّدي الريشهري، ميزان الحكمة، ج3، ص2092.

الرّوح والمادّة، عن أصلنا وسرّ وجودنا وما نحن آئلون إليه، الحقيقة أنّ هذه الأمور هي التي تُسيّرُ – سلْباً أو إيجاباً وبصورة خفيّة– كلَّ فرد، وتُلزمه بإلزاماته صبحَ مساء.

3. نكتشف أنّ قرآننا فيه كلّ شيء، مع أنّا كنّا ولا نزال لا يُكشَف لنا منه شيء، بل تُسوَّق لنا التفاسير الواهية فقط، وأنْ نُفاجأ بأنّ المفسّرين هم مَنْ أعلَوْا بتفاسيرهم فوق القرآن فانطمر تحتها، فأودى بهم أنْ يُخطئوا – ساحبينا معهم– في مهمّات المسائل.

4. نُبرهن عملياً، بأنّ النظام المعرفيّ الموروث، وآليّة قراءة القرآن وطرائق "تفعيله!"، هي القاصِرة، ما أدّى إلى تعطيله وتعْميته وهجْره، وإلى إعلاء كلمات الغير وتصوّراتهم فوق كلام الله، ما جعل بعضاً مِنْ فلذات الأمّة يشمئزّ من النصّ الدينيّ كلّه ومِن خطابِه وسجعاتِه، لأنّ التسطيح أو الفهم البشريّ قد تدرّع بالإلهيّ، وافتُرِض على النّفوس افتراضاً تحت شعار "لا حُكْمَ إلاّ لله".

5. نعرف أنّ لُغتنا العربيّة قديمةٌ قدمَ الإنسان الأوّل، وأنّ لهجاتِ شعوب هذه المنطقة كلّها ثروةٌ صحيحة وخزائنُ فهم، للتراث القيّم كلّه، ولعلوم مبادئ الحضارات وتاريخها، ولفهم القرآن الكريم أيضاً.

6. نعي أنّنا شربنا الكثير وما نزال، ممّا يُصدَّر لنا ويُترجَم ويُقدَّم لنا في مناهجِنا وإعلامنا أنّه علْمٌ وحقائق، عن تاريخ منطقتنا والعالَم، وكثيرُه خاطئٌ ومُدلَّس.

7. نعرف أنّ لغة التوراة في أساسِها لهجة عربيّة قديمة بائدة، وما مِنْ شيء اسمُه "اللغة العبريّة"، بل هو أمرٌ مُخترَع. هذه اللغة التي هي كأحد لهجاتنا يستطيع أيُّ قارئ أنْ يقرأها ويفهمها إجمالاً، فيكشف بنفسه زيْف ما أُضيف في التوراة أو لُفِّق وزُوِّر.

8. نؤمِن بأنّ عقيدة التوحيد وُجِدتْ في هذه المنطقة منذ آدم الإنسان، ما يُشعرنا بالتواصل التاريخي واحترام الآباء والمعلّمين.

9. نكتشف أنّ ما أُثِرَ ودُوِّن مِن شعوب حضارات أمّتنا من بابليّين (سريان)، ومصريّين، وفينيقيّين (آموريّين)، يُثبت أنّهم كلّهم كانوا عرباً والتوحيد والأخلاق سِمَتُهم الغالبة، وإنْ سوَّق لنا الغربُ واليهودُ عكسَ ذلك، فأقنعونا بادّعاء وثنيّة آبائنا وتعدّد آلهتهم وفسادهم وتفاهة معارفهم وبلادتهم وبداوتهم، وما أبشعها من جريمة وافتراء!

10. نلحظ تواصلَ تراثنا الدينيّ والعلميّ والحضاريّ، الذي يبدأ مِن

آدم (ع) وينتهي بخير الهداة حبيب الله محمّد (ص)، مسيرةً تبدأ مِن الجنّة سكناً وتنتهي بها عُقبىً، وركْباً يبدأ من الصُّحف الأولى وينتهي بالقرآن العظيم، فيتعلَّم كيف يقرأ تلك المدوّنات و"زُبر الأوّلين" كالأساطير وبأيِّ عقلٍ وروحٍ واحترام، وبأيّ أدواتٍ يفهمها.

11. يرى القارئ مصافحةً بين قرآنه وتراثه مِنْ جهة، ومصالحةً مع حقائق العلم منْ جهةٍ أخرى، فلا يعيش انفصاماً معرفياً بين علمٍ ودين، وأنْ نضعَ العصابةَ عن عينيه فيرى بعقلٍ رياضيٍّ وقلْبٍ يعشق كلَّ بديع، جمالَ قرآنه، وسحرَ بيانه، ودقّة نظامه، وروعةَ مخبوءِ معارفِه، فيعرف ربّه ويذكره مدهوشاً ومُسبِّحاً ومنيباً.

12. يتعلَّم القارئ كيف يبحث، وكيف يسأل، وكيف يحتجّ، وكيف يتحرّر مِن سطوة مَن سطا على فكره ونظامِه واعتقادِه وطرائق تحليلِه وصادرَ شعورَه ومواقفَه و"منْهَجها وبَرْمَجَها"، واستغفله دهراً مُمارساً التفكير عنه. وأنْ يتعلّم بالأهمّ كيف ينهلُ مِن المصدر نفسه بلا وسائط وحُجّابٍ، فيقرأ ذاتيّاً كتابَ ربّه بنفسه كفى بها بصيراً بدون وصايات وتحكّمات.

13. يتمكّن القارئ لأوّل مرّة مِنْ فهم أساطير الأوّلين مِن آبائه

وأسلافه، ويُفرّق بينها وبين الخرافات، ويرى فيها ارتباطاً وثيقاً مع لهجته العربيّة مِن جهة والتقاءً مع مقولات مصادرِ اعتقـاده المقدّسة، فيستشعر انتماءً لأمّته غيرَ مجذوذ.

14. يرى القارئ بالدليل الباهر عِظَم هذه الأمّة الخالدة، وأنّها أمّـة الإنسان وأمّة دينه وعلْمِه منذ وُجِد، بها بـدأ الله وبهـا يختـم، فيمتلئ أملاً بعد إياسٍ وإحباط؛ أنّ الأرضَ هي فعلاً لله يُورثهـا مَنْ يشاء مِن عباده الصالحين.

15. يرتقي القارئ ليعرفَ مقدار الزيْف المهول الذي سطا في هـذا العالَم، ليختبر وعياً كونياً آخَر، يختبره بنفسه إذا انعتـق، إلـى فُسَحٍ ليس فيها مساحةٌ للزيْف أو التُرَّهات، ولا للحروب المُسْفِلَة الـضيّقة، ولا للحـروف الجوفـاء المتزلّقـة، ولا للقداسـات المُخترَعة المهترئة، فيركمها جميعاً علـى قارعـة "لا نُبـالي" وينطلق تلقاء النّور، ولو وحْده مع الله (**سُبْحَانَ الَّـذِي أَسْـرَى بِعَبْدِهِ لَيْلاً**)(الإسراء:1).

16. يبزغ أفرادٌ في أمّتنا ليس فيهم شركاءٌ متشاكـسون متـشعِّبون، يكونون للأمّة صفْواً بلا كدَر، علّ أنْ تترطّب باحتذائهم أجواءُ الخصومات المفتعلة، ما بين مذهبٍ ومذهب، وملّة وملّة، بل ما بين دينّي وعلميّ، ودينيّ وقوميّ، ودينيّ وإنـساني، وعـالميّ

وقوميّ ووطنيّ، فما رأيكم بحلّ كلّ المسائل؟ بأنْ يعتزّ المــرء وفق هذه الأطروحة بلسانه لأنّــه لــسان العــالمين، محترمــاً الآخرين لأنّهم أخذوا عن هذا اللّسان، ودينه لأنّ الملل كلّها في أصلها دينٌ ربّانيٌّ واحدٌ هو للعــالمين، ويفخــر بقوميّتــه لأنّ الشعوب تفرّقتْ من ها هنا، وينتمي للعالَم لأنّهم ولائــد بقعتــه، وللإنسانيّة لأنّها رسالته منذ ظهرت وظهر، ولوطنه لأنّه المهد الأوّل للإنسان والحضارة والدّين، هذا الرجوع للأصــل الــذي تنفني به مصنوعات التناقض الطارئة التي جزّأت شمل الأمّــة الواحدة، هو الذي احتاط له نبيّ الإسلام والعــرب والإنــسانيّة والعالمين بقوله (ص): **(الناسُ بنو آدم، وآدمُ من تراب)**[1] ومِن تراب هذه المنطقة بالخصوص، وليس ثمّة طريقٌ نلــتمس بــه نوراً إلاّ بهذا الرّجوع الأشــمّ **(ارْجِعُــوا وَرَاءَكُــمْ فَالْتَمِــسُوا نُوراً)**(الحديد:13).

17. وأخيراً، أنْ ينشأ جيلٌ مسلّحٌ ذاتيّاً بالحقيقة والإيمان الخالِص، لا تهولُه عسْكرةُ المادّة وضجيجُها، ولا زعيــقُ الــصخّابين، ولا علميّةُ المدّعين بالنّزاهة والتجرّد أو التديّن، بلْ يُحاكمهم بمنطقٍ صائب بلا انسحاق، ولا تهويلُ "البشر" مهمــا تــسلطنوا فــي

- [1] ♦ أحمد بن حنبل، **المسند**، ج2، ص361؛ محمد بن عيسى الترمذي، **السنن**، ج5، ص735.

الآفاق، على أعناق الناس، متى علَقَ حبْلُــه وانْوثــقَ بالواحــد الأحد، وبالقوّة الجبّارة التي صمّمتْ الكون، وأبدعتْ "الإنــسان" لغايتها السامية، لا ليُحْشَرَ وقوداً في دهاليز وأنفاقِ المربــوبين التائهين وثرثراتهم، سواءً ترهيباً مارسوا عليه أو ترغيباً، حتّى لو وضعوا الشمس في يمينه أو القمر في شماله ما ودّع أمــره الذي انكشف له، لأنّ قوّته ورهبته ورغبته أعْكَفَهنّ تجاه خالقِه العليّ **(تَبَارَكَ الَّذِي إِنْ شَاءَ جَعَلَ لَكَ خَيْراً مِنْ ذَلِكَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَيَجْعَلْ لَكَ قُصُوراً)**(الفرقان:10).

فهل نستطيع أنْ نُقدِّم كلّ ذلك للقارئ في هذا البحث الصغير، أو ذاك؟ لا، ولكنَّ القارئ الحرّ يستطيع أنْ يُنتجه ويُقدِّمه لنفسه: **(وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ)**(البقرة:110)، أمّا نحنُ فنُحاوِل أنْ ننثــر خطوطاً لمعالَم هذا الطريق، روحَ تلك الثمرات، نُقــدِّمها فــي أمثلــةٍ تطبيقيّة "خلْق آدم"، "جنّة آدم" "معصية آدم" "طوفان نوح" "ليلة القــدر" وغيرها، نُعالج بها بعض الاعتقادات، وليس غرضُنا الأســاس هــو النتيجة وحسب، بل الطريقُ إليها، المنهجُ ومؤسَّساتُ الوصول، هــو الذي نعرضُه للقارئ ليختبره، النّظــامُ الــذي أورث تلكــم النتيجــة، المعالجةُ – لا نتيجة العلاج – هي تقدِمتُنا للقارئ وابتلاؤنا إيّاه، كيف يضرب ويقسم ويطرح لا حاصل الضرب والطرح، فلعلَّ وعسى بهذا وغيره يسري به اللهُ مِن غبَش ظلماتِ ما الأمّةُ فيه.

أسئلة البحث وطبيعته ودواعيه

هل أنّ القرآن "يقصّ الحقّ" في هذه المسألة، مسألة خلق البشر وخلق آدم، كما هو في غيرها؟

وهل مدوّنات ما سُمّي بالتوراة حَريّةٌ بوسام هذا "القصص الحقّ" الذي تدّعيه؟

هل اعتقادنا في هذه المسألة – كمسلمين وعرب – منبثقٌ من قرآننا أم من إهالات توراتية وإغراقات تأثّرَ بها المرويّ الإسلاميّ والشعبيّ؟

وأيّهما يتعارض مع العلم؛ القرآن أم إسقاطاتنا التوراتيّة على هذا القرآن؟

وماذا عن جذورنا العربيّة وتراثنا الأسطوريّ القديم؛ تراث الأنبياء والمعلّمين المُدوَّن، منذ آدم الرسول (ع)، هل يُدرك هذه الحقيقة أيضاً ويقصُّها؟

هل أنّ هذه الأمّة أمّةٌ واحدة في ارتباطها بمركز التعليم الربّاني، منذ القدم، أمْ أنّنا أمّةٌ بلا جذور، مَنّ على منطقتها كهنةُ اليهود بولادة التوحيد وبالمعارف الإلهيّة والقصص التاريخيّ، وبالحقائق الكونيّة والطبيعيّة، وبالتحضّر والتدوين؟

ثمّ، هل لأمّتنا، نصرٌ مؤزّرٌ منظورٌ سياسيّ أو اقتصاديّ بل وعسكريّ، على الصهيونيّة المحلّية والعالمية، ما دامت ترفل (الأمّة) في جانبها المعرفيّ والاعتقاديّ، بل وفي تفسير "قرآنها" الذي هو نبعها الزلال الصفيّ، في قيْدِ محكيّات التوراة، وترضع من لُبانات تسطيراته، تفسيراً أو شرحاً، واستدراكاً أو نقلاً؟

كيف لنا أنْ نستقلّ خارجاً حضاريّاً، ونحنُ أسارى في دواخل أذهاننا، بتراثٍ مصنوعٍ صنْعاً مرّة من الإسرائيليّات، وأخرى مستوْرَدٍ من الغرب الإمبرياليّ المُمالئ لها؟ كيف لنا أنْ نُعادي قوماً، نحن نأكل من خبز عجينهم، ونحذو حذو تفسيرهم عن الكون والأنبياء والأرض، بل وعنّا كأمّة، وعن التاريخ، حذو القذّة بالقذّة والنعل بالنّعل، حتّى أنّهم لو دخلوا جحْر ضبّ (كقراءتهم للكوْن أو لخلق آدم) لدخلنا معهم، لأنّا رهنّا تراثنا وكتابنا بتراثهم المصنوع وبكتابهم المكتوب بأيديهم؟

كيف لنا أنْ نجلو الحقيقة، وتاريخنا يُصوغه الأجنبيّ عنّا تزويراً، وقُرآننا تُفسّره تفاصيل التوراة تحريفاً؟! وهل الأمّة إلاّ ثقافتُها وتاريخُها؟ وقدْ سُرقا على حين غفلةٍ من أهلها! أليستْ "الثقافة هي التي تُهيمن على مصائر الناس بأشدّ من الحكومات"، على رأي الفيلسوف الإيطالي أنطونيو گرامشي؟!

قد تبدو – لبعض الناس– عمليّة البحث في مسألة خلق آدم مسألة عبثيّة، أو عبئيّة، وغير ذات بال، في ظاهرها طبْعاً، لكنّها – بعيْن الرّصد الغائر– رشقةُ نيْزكٍ، تُبرق لنا السبيلَ لاستحصال كلّ تلك الإجابات أو محاولة تلمّسها أو بعضها، تُعيد بها – متى وعيْناها– ربْطنا بجذور أمّتنا، وبتْرنا عنْ إرث دخيل أُسّس على غير تقوى، ممنهجٍ، لمخطّط توراتي مدسوسٍ علينا وعلى مسيرة الوعي الإنسانيّ برمّته ونحن لا نشعر.

ثمّ هي تجلو الغبار عن قرآننا النيّر الذي ضجّ من تراكم الغبار أو الآراء والأهواء عليه، وتُعيد ثقتنا المُخلخلة في تراثنا الصحيح، مثلما أنّها في الآن نفسه تتيح لنا إلماحاتِ تعرّفنا على سمات عدوّنا، وعدوّ رقيّ الإنسانيّة الرئيس، ذلك المزوّر التاريخيّ الأوحد[1]، المُتلبّس بالدّين الكهنوتيّ، الشيطان الأكبر.

♦ [1]– من المفيد أنْ ننبّه القارئ أنّ بحثنا ليس موجّهاً ضدّ ملل التوحيد وتعاليمها وأتباعها النزيهين، وما كلامنا الحادّ هنا إلاّ من حيث الأمانة التاريخيّة، كنقدٍ لمعطيات نشاز في توراة الكهنة المليء بالتحريف والتزوير لا توراة موسى (ع)، أورثت إمّا خللاً فكرياً في عقل الإنسان عموماً وعقل المؤمن خصوصاً، وإمّا خللاً علمياً واضطهاداً للوعي كما دلّت عليه أحقاب القرون الوسطى لكلّ مَن خرج عن الفهم التوراتي للكون، ولا تزال آثار هذا الاضطهاد باقية بنحو أو بآخر في الأديان، وأخيراً وهو الأسوأ بما أفرزته بعضُ أفكار التوراة، ووعودها، وتحريفاتها، ورؤاها، من نشوء الفكر الصهيونيّ الممثّل لأسوأ ما في التوراة من إسقاطات وإباحات، والمستفيد الأكبر من كلّ التلفيق الذي أسّسه الأوّلون ولو كان صحيحاً تاريخياً وجغرافياً، إلاّ أنّ مجرّد تدوينه وجعله كتاباً مقدّساً منسوباً لله تعالى

أقسام البحث:

وبعد، سنقدّم في الفصل الأوّل خلاصة قصّة الخلق الأوّل بجولة سريعةٍ في مصادر التراث كلّها باعتبارها حلقةً واحدة لتعليم ربّانيّ، ثابتٍ منذ أوّل الدهر على هذه المقولة الراسخة، لولا أصابع الدسّ والتزوير، وسنناقش بإيجاز ما يتعلّق بهذه المسألة في مدوّنات التوراة التي هي المصدر الفعليّ الخفيّ لخلفيّة الفهم الإسلاميّ الدّارج، ونُوضح الصواب الذي فيها والخطأ، الذي أورث الالتباس بين البشر الهمج وآدم الإنسان. سنضعُ منذ البدء للقارئ الحقيقةَ الصادمة عاريةً، الحقيقةَ التي قد يصعب استيعابُها وفهمُها وتقبّلها، لأنّها خلاف السائد، ولكن لابدّ لنا من صدمة لنفيق على كنوز تراثنا وقرآننا وما يأتي به العلم.

وسنضطر في الفصل الثاني للولوج في دقائق التفصيل القرآنيّ لمغاور هذه القصّة، قصّة البشر والإنسان، ببيان قرآنيّ واسع ومُوسّع ومُفصّل، برهاناً على المنظور الصحيح بل استنطاقاً قرآنياً في الأساس، لما له من ركيزة إقناعيّة – لدى الفرد المؤمن– في فهم الأصل الإنسانيّ وكُنهه، ودوره في الوجود، والاستخلاف، ووعيه

ولموسى وربْطه بالوعود الإلهيّة، هو الذي فرّخ الصهيونيّة البشعة، وهذا بطبيعة الحال لا يعني أنّه ليس ثمّة "يهود" أحرار يُناهضون الصهيونيّة، أو لا يقرّون التزوير أو الإسقاط التوراتيّ لنهب الشعوب واحتلال أراضيها.

بربّه الأكرم، والعوالم الأخرى، ليدرك عظيم نعمة إنسانيّته الموهوبة، ويخرج بصورة صحيحة عن حقيقة نفسه وعن عالمه والمحيط الـــذي هو فيه، بعيداً عن إملاء الخرافات وتُرّهات الأوْهام التي لا تُغني من الحقّ التاريخيّ والعلميّ والقرآنيّ شيئاً، ولا ترفع لأمّتنـــا فكـــراً ولا ذكْراً، ولا تُورث نتاجاً سليماً ولا عاقبةً حسنة. لترسم له دورَه المناط به ليترسّمه، وسنعيد لآيات قرآننا العزيز التي تُركت دهراً بلا تفـــسير حقائقَها ونواصع دلالاتها وتفاصيلها العالية ودقّتها الباهرة.

وفي الفصل الثالث سنُعرّج على ما تيسّر لنـــا مـــن شـــواهد مدوّنات تراثنا العربيّ القديم بخصوص هذه المـــسألة، تـــراث آبائنـــا الدينيّ الصحيح وأساطيره المدوّنة في ألواح سومر وبابل وأوگريـــت ورُقمها وبَرْديات وادي النيل ونقوشـــها ومـــدوّناتها، ونُحـــاول فـــكّ طلاسمها إنْ وُجدتْ بما أقْدرَنا الموفّق سبحانه بناءً على كونهـــا مـــن ثقافة هذه الأمّة الواحدة ومصاغةً بلغتها، لنشهد تطابق الحقيقة الغائبة عن أمّتنا وهي بين يديها أو تحت قدميْها، راجـــين مـــن الله التـــسديد وغفران الزلل.

وسنعقد أخيراً فصلاً لمناقشة بعض الإشكالات؛ مرويةً كانت، أو علمية، أو تراثيّة، التي ربّما تقفز إلى ذهن القارئ المثقّف، كعيّنـــة فقط لا كاستقصاء، بعد تكريسنا لمفاتيح الحقيقة في الفصلين الـــسابقين له.

منهج البحث:

إنّنا في هذا البحث وفي ضوء القواعد التي منهجناها في كتاب "**مفاتح القرآن والعقل**[1]" لفهم نصوص القرآن، سنُثبت أنّ كتاب الله العزيز لا يرقى إليه شكّ أنّه جاء بالحقيقة التي لا خلاف فيها، وأنّه لا يصطدم مع حقائق العلم والمكتشفات بل يضيف عليها ما فاتهم وما لم يصلوا إليه بعد، وأنّه يُفسّر مدوّنة التوراة الموجودة بين أيدينا ويُصلح أخطاء مدوّنيه أو مترجميه سواءً لقصور الأوائل على أحسن تقدير أو لسوء مقاصدهم ومقاصد التالين وهو الأرجح، ذلك أنّا لا نرى التوراة (المسمّاة بالعهد القديم) بطبيعتها المنتحلة إلاّ جزءً من تراث التاريخ العربيّ لهذه المنطقة وفيها بعضُ كلام الله وحكْمُه باشتراطه التّاريخيّ أيضاً، وفيها ما يستحقّ النظر وفيها ما لا يستحقّ، وفيها ما ينبغي نقده، وفيها ما ينبغي رميه لمجافاته الحقائق الواضحة وخدشه في صلاح أنبياء الله المقدّسين، وعنصريّته البغيضة للآخرين، وفيه الكثير من المزوّر والمسروق، "**كتاب كشكول**".

وسنُثبت بتعريجنا على تراثنا العربيّ الأصيل في حضارات العراق وسوريا الكبرى وحضارة وادي النيل، تطابقاً تامّاً في الحقيقة التائهة، وربّما نأتي ببعض الروايات الصحيحة التي بذرها نبيّ

♦ [1]– انظر بحث: **مفاتح القرآن والعقل**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

الإسلام (ص) وأهل بيته النجباء وأصحابه الكـرام المفـضية إلـى التصوّر الصحيح.

على أنّ هناك عقبة كأداء، ستواجه القارئ لا محالة مواجهته للشيطان الرجيم، عقبةً لا مِن ثنايا البحث نفسه، بل في عقله المقـدِّس لما درج على سماعه وتربّي عليه، وليس أوّلها يقينـه بـأنّ تـراث العرب الأوائل كلّه خرافات وأنّهم وثنيون ومشركون، وهذا التعمـيم الظالم وهْمٌ وخطأ وظُلم للآباء والأنبياء، وكُفرٌ بمـا "**فـي الـصحف الأولى**".

وسيواجه – القارئ – طبيعته النفسانية ثانياً، تلـك العـصيّة والآبية للتسليم لأيّ جديد عليها، والتي سترفض – إباءً وبـصرامةٍ – فكرةَ أنّها كانت مخدوعةً بتاريخها ومُستغفلة عـن كتابهـا الأقـدس، ستنشغل أوّل ما تنشغل بالتسلّح للردّ الحادّ، والتمنّع لنقض الفكرة بدلاً من محاولة فهمها أو تلمّس الحقّ الذي فيها ورؤية هداها، وبالتمترس وراء ما قاله الرجالُ من فلان وفلان وما نُسب مروياً إلـى كبـار السادة والأصحاب زوراً أو خطأً، وبدلاً من طلـب الحكمـة والعلـم والتعطّش لخدمة كتاب ربّها الجليل وكشف حقيقته الحقّة والتتلمذ بـين يديه، سيلفى القارئ المُستفَزُّ نفسَه أمام كمٍّ من المرويّات منسوبةٍ لأئمّة الإسلام المكرّمين تُوهمه بالعكس، وكلّها مدخولة على الدين ولا شأن

لهم رضوان الله عليهم بها فهي إمّا منسوبة إليهم أو أُسيئ فهمها وتفسيرها.

ولسنا بفضل الله في حاجة أنْ نُرهق أنفسنا أو القارئ لنقد الكمِّ الهائل لتلك المرويّات المنسوبة، أو معالجتها، وبين أيدينا كتاب الله العزيز مصدراً أساسياً وحاكماً، وأُنزِلَ **(تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ)**(النحل: 89) كما أخبر أصدق القائلين سبحانه، وأنّه **(لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ)**(فصلت: 42)، وكفى بالمأثورات المُناقضة لكتاب الله خللاً أنّها متضاربةٌ تضارب النقيض للنقيض، وحقّاً **(لَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافاً كَثِيراً)**(النساء: 82)، وإذا كان نبيّ الله العظيم (ص) قدْ تُجرّئَ عليه وكثرت عليه الكذّابة وتواترت، فكيف بغيره ممّن دونه؟! فتنزيه ساحة أئمّة الإسلام والهدى مِن أنّهم قالوا باطلاً وخطأً وتناقضاً، وهم أهلُ الله وأهل ولايته وأولو العلم، أولى من الاجتراء بالزعم أنّهم قالوها مع مخالفتها الصريحة للقرآن – كتاب الله– وللحقيقة التاريخية والعلمية، التي لن يشكّ فيها مع مستقبل الأيّام عاقلٌ.

الفصل الأوّل[1]

الحقيقة الضائعة في خلق البشر

تمهيد:

موجز الحقيقة كما يقصّها القرآن والتـراث الـديني العربـي القديم كلّه، أنّ الإنسان الكائن العاقل المُتطوّر انبثـق قبـل عـشرات الآلاف من السنين (بين 35 إلى 50 ألف سنة باتّفاق علمـاء الآثـار والأحافير)، لكنّه لمْ ينشأ هكذا مِن تُراب أو من الفراغ، كمـا حـشتْ التوراة ذلك في عقول المتديّنين ومنهم نحنُ المسلمون للأسف، وتخلّى عن ذلك العلماءُ التجريبيّون والمكتشفون المتحرّرون لانكشاف خلافه لديهم باليقين العلميّ القاطع، بل جاء الإنسان مِن قمّة سـلالة بـشريّة بدائيّة تطوّرت بدورها عبر مئات الآلاف من السنين (بالتقريب بـين مليون إلى سبعة ملايين سنة حـسب تقـديرات علمـاء الآثـار، لا تقديرنا). فآدم هو أوّل كائن إنساني[2]، وهـو لـيس بمعـصوم عـن الخطأ[1]، ومنه نسلتْ الإنسانيّة المليارّيّة هذه.

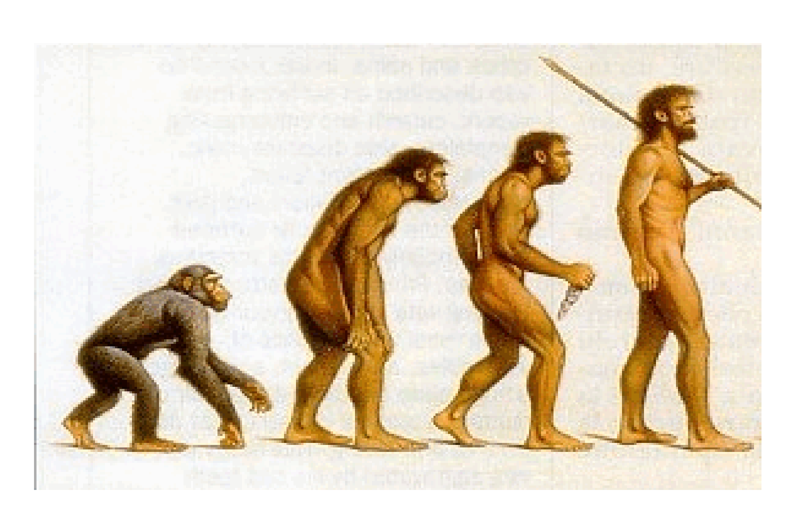
♦ [1]– ننبّه القارئ الكريم أنّنا سنتجاوز الإشارة إلى المصادر والأحاديث وما شابه، باعتبار أنّ هذا هو موجز، ستُعاد أفكاره وسيتمّ التفصيل فيها في الفصول القادمة وسيُشار إلى مصادرها ومراجعها المستقاة منها هناك.

♦ [2]– إنّ أوّل اسم أطلق على الإنسان العاقل الأوّل "آدم" باللغة العربيّة بلهجاتها السريانية والفينيقية والعرباء، ولأنّ الربّ خلقه على صورته، فكلمة "آدم"

أمّا كيف خُلق أوّل كائن بشريّ، فليس هناك كـــائن بـــشريّ أوّل، بل مجموعة كائنات بشريّة، نشأتْ بتدبير القوّة الربّانيّة من طين الأرض وعناصرها، في أجواء مرّ بها كوكب الأرض مــن ضــغط وحرارة ومغناطيسيّة وكيمياء لمْ تمرّ به ولنْ تمرّ، ثُمّ هــذه الكائنـــات البشرية المنبثة رجالاً ونساءً، تزاوجت، وأنجبت السلالة البشرية التي تطوّرت عبر مئات الآلاف من السنين. فلمْ يتطوّر الكائن البشري من قرد أو من كائنات أدنى كما يقول العالم شارلز داروين، بـــل بـــدأت الكائنات جميعها متمايزةً بأنواعها، بجيناتها الخاصّة بها، ونمتْ فـــي حاضنات (بيوض) طينية بدلاً من الأرحام حتّى اكتملت، فخرجتْ إلى الدنيا، لتبدأ من بعدها حقبة التزاوج.

تعني "المثيل". "دِمو" تعني: الدم، الأصل، المثيل الشبيه، المماثل. ومنها أيضاً: دمية، الدمية هي نسخ صورة شيء عن شيء. فهذه الكلمة أو الاسم ذهب كلّ الأرجاء بتركيبها وبلفظها العربي، فمن الأسماء التي أطلق العرب عليه أيضاً كإنسان عاقل وتدل على عقليته والتي ميّزته عن كلّ الكائنات الأخرى هي كلمة "أمَنْ"، وهي تعني: الخالق، المبدع، المخترع، الماهر، الحاذق، والتي اشتُهرت في التراث الديني (آمين/آمون) .. أو مانوت : هي الصنعة، الإبداع، الاختراع، المهارة. وبإضافة "هـــ" التعريف أو "ذو/ دو" حسب اللهجات العربيّة القديمة: "دومَن" أو "هيومَن" صارت تعني الإنسان العاقل المبدع الخالق الماهر .. الخ.

- [1]– راجع بحث: **(بين آدمين:** آدم الإنسان وآدم الرسول)، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.



صورة تخيلية عن نظرية تطوّر الإنسان الداروينيّة!

فلو قُيّض لنا أنْ نكون حاضري ذلك المشهد الرهيب، في سفَرٍ عبر الزمن السحيق، لما حسبنا إلاّ أنّنا على سطح كوكبٍ غريبٍ آخر، نُعاين فيه فيلماً جامحاً من أفلام الخيال العلميّ عن تخلّق كائنات غريبة وانبثاقها من باطن مستنقعات الطين بدون تزاوج.

والتراث الديني في نصوصه، بغضّ النظر عن أفهام مترجميه ومؤوّليه، كان متّفقاً حول هذه النقطة بحيثيّاتها، ودليلنا على اتّساق القرآن الكريم والتراث العربيّ في مقولاتهما بهذه الحقيقة يجده القارئ في المصادر التالية:

الأوّل: القرآن الكريم.

الثانيّ: توراة الكهنة.

الثالث: مدوّنات التراث العربيّ القديمة.

أولاً – موجز ما يقوله التراث الصحيح:

لا يسع المتأمّل في كتاب الله إلاّ أنْ يجد أنّه قدْ ميّز بوضوح بين مصطلح البشر والإنسان، منذ اختصام الملأ الأعلى (الملائكة وسادتهم) أوان تكوين الخليفة (الإنسان) من أولئك البشر الهمج السابقين الذين تطوّروا سلالياً عبر عشرات ومئات الآلاف من السنين، لكنّه مع ذلك لمْ يُثبت– القرآن– أيّ اختصام سابق في أولئك الملأ أو أيّ احتجاجٍ حين خلْق البشر، الذي ظلّ ردحاً يسكن الغابات والكهوف ويسفك دماء بعضه ويُفسد لا واعياً، هذا الصنف الذي أشار إلى أشباهه "ويل ديورانت" في الجزء الأوّل من قصّة الحضارة وأثبت العلم الآثاريّ وجودهم حتّى إلى ما قبل عقديْن من الزمن، بل وللآن. وقد ذكرهم "ڤيرجل" في كتابه "الإنياذة" حين صادفهم "قدموس" الأمير العربيّ الفينيقيّ، كما اصطدم بهم "كاهن طروادة" أيضاً. أولئك البشر الذين أوّل ما نبتوا ظلّوا يُحاكون الحيوانات في كلّ شيء، كما يصفهم تراثنا السومريّ في (أسطورة "أشنان" والنعجة): **(البشر الأوائل لمْ يعرفوا أكل الخبز، ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد، وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم، ومن القنوات يشربون الماء).**

وفي سورة "الإنسان" **(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً)**(الإنسان:1)، أثبت سبحانه وجود هذا "**الدّهر**" الأوّل حين لمْ يكن الإنسان شيئاً مذكوراً، بل مجرّد همج غير واعٍ، و"غير

مذكور" يعني ليس له صحيفة أعمال ولا حساب ولا حضارة ولا اتّصال لا بملائكة ولا بشياطين ولا روح ربّانيّ، وهذا ما وصفته بدقة أسطورة: "عندما رسم الآلهة المدينة" السومريّة قبل أكثر من 4000 عام، التي بيّنت وجوداً بشرياً غير مُعبأٍ به لدى الملائكة قبل إيجاد الخليفة- الإنسان، فحين تمّت تسوية الإنسان بدخول القوى الربّانية على نظامه ومدوّناته الجينيّة (الأمشاج) ثُمّ نفخ الروح فيه، صار ذاك الكائن "**سميعاً بصيراً**" و"**إمّا شاكراً وإمّا كفورا**" حسب سورة الإنسان، أيْ دخل الإنسان عالَم الوعي بتعرّفه على الخير والشرّ فوعى ذاته والعوالِم التي تُحيط به ووعى ربّه، وأُعطي هبة ربوبيّة هي الحرّية والتصرّف ليختبر وعيه ولتدبير ما حوله، فيكون إمّا شاكراً وإمّا كفورا، بزغ له إدّاك سجودٌ مِن ملائكة، وعداوةٌ من شياطين، واكتسب منظومة القيم وابتدأ يُعلّم الحضارة واللّغة بهذه الروح الربّانية التي هي الوديعة التي حملها الإنسان المُستحدَث مِنْ ركام السلالة البشريّة المتحدّرة من البشر الأوائل المخلوقةِ من الطين، كما بيّن سبحانه **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ)**(المؤمنون:12).

ويُعلن القرآن في كثير من آياته أنّ هناك نشأةً للبشر من الأرض وهي "الإنبات" ثم نشأة أخرى مغايرة في بطن الأمّ: **(إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ)**(النجم:32)، وهذه النشأة الأخرى البادئة بالنّطفة هي التي سوف يفصّل فيها سبحانه

وتعالى عبر القرآن الكريم: **(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ (ثُمَّ) مِنْ نُطْفَةٍ (ثُمَّ) مِنْ عَلَقَةٍ (ثُمَّ) يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً)**(غافر: 67)، فهنا ذكْرُ النشأتيْن الأولى الإنبات من التراب، والأخرى التي في بطون الأمهات.

فمنذ أنْ خرجتْ أفواج "الكائن البشري" مِنْ بذرتـــه الأولـــى، ظلّ عقيماً وقد أشارت إلى هذا متون سومر وبابل، وإلى أن أخذ فـــي التكاثر عن طريق النطفة والبويضة مرّت أزمنة مديدة، فـــالقرآن لـــم يفصّل عن هذه المرحلة لكنه اختزلها في عبارة نوح (ع) الذي ذكـــره التراثُ السومريّ العربيّ قبل تدوين توراة الكهنة (في القرن الثالـــث قبل الميلاد) بأكثر من ألفي عام وسمّاه "زيوســدْرا" أيْ ذي الـــصدر (الصدارة)، وسمّاه التراث البابلي العربيّ في الألفية الثالثة قبل الميلاد "أتونفشتيم" أيْ حائط النفوس وحافظها، فقال (ع) كمـــا حكـــى عنـــه القرآن **(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)**(نـــوح:14)، فالعرب الأوائل عرفوا أنّ البشر مرّ بأطوارٍ حتّى صار إنساناً، ولهذا كان المُحاور المؤمن القديم كمـــا نقلها القرآن عنه يقول: **(قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّـــذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً)**(الكهف:37)؟! فحقبة النشأة من التراب أولاً، ثمّ حقبة التخلّق من النطف في الأرحام.

وقد جاء في المرويّ الإسلامي الإشارة لكائنات بشريّة قبـــل الإنسان وظلّت متزامنة مع وجوده، بل هي للآن لها وجودٌ كامنٌ فـــي

باطنه دعوها "**النسناس**[1]" فعن علـــيّ (ع) وابـــن عبّـــاس والحـــسن البصريّ أيضاً (**ذهبَ الناسُ, وبقي النّسناس**) وعقّبوا بالقول (**إنْ هُمْ إلاّ كالأنْعام**) فهي هذا، وفي المأثور أنّ في آخر الزمان أيـــضاً (**يقـــلّ الناس ويبقى النسناس**) أيْ تستولي الهمجية في دواخل الفرد علـــى إنسانيّته وينطمر العقل والرّوحنة منه، وهذا للأسف هو مـــا نـــشهده يومنا، بل هو السائد.

وفي موضعٍ قرآنيٍّ آخر نقرأ (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَـــيْءٍ خَلَقَـــهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ** – فالبداية كانت من الطين – "**ثُمَّ**" **جَعَـــلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ**)(الـــسجدة:7-8) أيْ جاءتْ بعدها مرحلـــة التكاثر الزوجي.

والخلايا الأولى التي كانت بمثابة بذور البـــشر، والمتكوّنـــة على ضفاف الأنهار كانت لاجنسيّة/خنثى (xx-xy)، أي تختزن جنس ذكر (×y) وأنثى(××)، كما عبّر القرآن عنها (**منْ نفْـــسٍ واحـــدة**)، وتفيد الميثولوجيا الفارسية أن البشر الأوّل (**هو نصفُ ذكَر ونـــصف أنثى**) فهي البويضات/الخلايا الأولى إذاً.

♦ [1]– أنظر : ابن أبي شيبة، **مصنف ابن أبي شيبة**، ج7، ص178؛ أبو بكر البيقهي، **كتاب الزهد الكبير**، ج2، ص123،124؛ أبو نعيم الأصبهاني، **حلية الأولياء**، ج1، ص203، 328؛ محمد الذهبي، **سير أعلام النبلاء**، ج3، ص342؛ ج10، ص156؛ ج17، 494؛ ج20، ص 13، 15.

وفي التراث السومري والبابلي وصفوا الكـائن الحـيّ الأوّل "بالمخلوق الخنثى" وهو "**الكائن/القوّة الذي أبدعته قوّة المياه العذبة النقيّة (أنكي/إيا) من تحت ظفره الوسخ ليس بذكرٍ ولا أنثى**"[1] وبها انبعثتْ قوى الإخصاب في الأرض (المُعبَّر عنه ببعْث عشتار)، هذا يعني بلغتنا أنّ فعالية المياه العذبة كوّنت خلايا كلّ كائن حيّ بتدبيرٍ ربوبيّ في الطمْي الطيني الوسخ المتشكّل على شواطئ المسطّحات المائيّة (الظفر الوسخ للماء) كما قال سبحانه: (**وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ**

- [1]– (ثم استخرج من تحت ظفره وسخاً خلق منه كوركارا (Kurgarra))، فاضل عبدالواحد عليّ، **عشتار ومأساة تموز**، ص 149؛ ويقول خزعل الماجدي، **إنجيل سومر**، ص263: (كوراكارو: إله صنعه أنكي من تحت ظفره الوسخ ليس بذكر ولا أنثى لإنقاذ إنانا من العالَم الأسفل). إنّ "كورا" مفردة لها ارتباط بالصبغيّات وأوّل مبادئ الحياة، لذا فإنّنا نجد القوّة القائمة على إطلاق قوّة الصبغيّات التي تشكّلت في الماء أوّلاً تُدعى "نين كورا" والتي يُعرّفها الماجدي في الصفحة 261: (ننكورا: إلهة الأصباغ الطافية فوق الماء، ابنة "أنكي + ننمو") فصبغيّات الخلايا الحيّة، هي وليدة فاعليّة الماء، وناموس النموّ، إذاً. والعجيب أنّ قوى المياه العذبة المخصّبة (أنكي) تُسمّي الأساطير وزيره (إيسمدْ) وواضح أنّه السماد الذي يعرفه الزرّاع، فهو المُخصّب للحياة.
- طبْعاً، نحن في موضع الاستشهاد بما يقولون لا بمناقشته، وإلاّ فإنّ تسمية (نين كورا) من الممكن أن تُشير لأرباب التدبير في الجبل المقدّس الأوّل، فالكور من التكوير وهو الجبل والتكوين الأرضي، وتُسمّى الأقاليم كوراً لليوم، و"نين" هي الربّة/العناية الربّانيّة، فلمْ يبدأ تخلّق كائناتُ اليابسة إلاّ بعد وجود "كور" هذا الكوكب، وهو جبالها ويابساتها، ومن الممكن تفسير "كور–قرّ"(Kurgarra) بأنّه الجبل/الأرض الثابتة، أي قرار الأرض واستقرارها كحاضنة طبيعيّة تحوي خلايا أولى لا جنسيّة هي بداية كائناتها الحيّة (كائنات عشتار أو العناية (إنانا) حسب الأسطورة).

مِنْ مَاءٍ)(النور:45)، وقوله **(وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)**(الأنبيـاء:30)، حتّى بلغت هذه الخلايا البدئيّة في مراحل تطوّرها التكـاثر بالانقـسام إلى زوجيْن، ثمّ علّقتْ ونمتْ حتّى بلغتْ وفقستْ عن بـشرٍ بـالغين، نبتوا من "بيوض/قوالب الطين"، كما نبت كلّ شـيء قـبلهم بمئـات وعشرات ومئات الملايين من السنين، وفي ملحمة الخليقة البابلية قبل 4000 عام إشارةٌ إلى هذا، أنّ القوّة الربّانية المـضطلعة بالإنـسان (ويُسمّونها "إنليل") قامتْ بعد تذليل الأرض بسمائها، بخلـق البـشر، لكنْ كيف؟ تقول الملحمة: **(فحفر– أي الـربّ– شـقًّا فـي الأرض، ووضع بدايات البشرية في الـشقّ، وعنـدها بـدأ البـشر يظهـر كالحشيش في الأرض)**، وهذا، من نصوص سومر، فالحقيقة واحـدة هي هي لمْ تتغيّر.

ثم بعد أحقاب من تواجد أجيال مديدة من أولئك البشر، انتقـل التكاثر ليكون عن طريق النطفة الذكرية والبويضة الأنثويـة بـتلاقح الجنسيْن، وهو قوله: **(وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ* "ثُمّ" جعلَ نـسْلَه مِنْ سُلالةٍ مِنْ ماءٍ مهينٍ* "ثُمَّ" سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)**(السجدة:8-9) لاحظ دلالات "**ثُمّ**"، وهذه الآيات لا تحتمل يميناً ولا شمالاً مهما حـاول المفـسّرون ليَّها تقديماً أو تأخيراً أو تقديراً، بدأ خلْقَ الإنسان من طين، هو طوره البشريّ الأوّل، "**ثمّ**" صار لهذا البشر سلالةٌ تأتي مِـن "**مـاء**" لقـاح

ذكوره بإناثه، "**ثمّ**" اختار زوجاً منه ليـــنفخ فيهمـــا مِـــن روحـــه، آدم وحوّاء.

فالقائل إذا قال "**بشر**"، فمعناه كائنٌ حيّ مثلنا، لا تمثالٌ طينـــيّ أو شمعيّ على هيئتنا، فإذا قال تعالى في سورة الحجْـــر 28، أو ص 71: **(إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ* فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)** فلم يقلْ "طيناً كهيئة بشر"، فالبشر المخلـــوق مـــن الطين هو كائنٌ حيّ لا محالة، قبل تسويته ونفخ الرّوح فيـــه، وهـــذه بداهة لغويّة، لا تحتاج فلسفة ولا تعقيداً.

فهذا النفخ في الكائن البشريّ المخلوق ابتداءً من طـــين قبْـــلَ مدّة، والتي تطوّرت سلالاته، ليس نفخ النفس كما زعمته التوراة، بل نفخ الرّوح هو الذي ميّز الإنسان من سائر الذوات الحيّة ذات النفس.

وقوله سبحانه في سورة المؤمنـــون (12-14): **(وَلَقَـــدْ خَلَقْنَـــا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ* (ثُمَّ) جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ* (ثُمَّ) خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَـــا الْمُـــضْغَةَ عِظَامـــاً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً (ثُمَّ) أَنْشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَـــرَ فَتَبَـــارَكَ اللَّـــهُ أَحْـــسَنُ الْخَالِقِينَ)** فهذه قبل أن تكون وصْفاً لما في الرّحْم الـــذي ســـيتمخّض طفلاً، هي نفسها مراحل تكوينه الأولى ما قبل التاريخ، عدا أنّ البشر خرجوا إلى الدنيا من بذورهم كباراً بالغين كمـــا ســـائر المخلوقـــات الأخرى، كانت الولادة الكونية إذاً أولاً، ثم جاءتْ الـــولادة التكاثريـــة

عبر التلقيح الزوجيّ، وهذا بالذّات ما فات على مفسّري القرآن معرفتُه في سرّ تولّد الرجال والنساء من الخلايا الحيّة الأولى (النفس الواحدة) التي انقسمت إلى خلايا أنثويّة مخصَّبة، وخلايا ذكريّة مخصَّبة، ثمّ نمت في المستنقعات وانبثقت عن رجال بالغين ونساء، حيث نظامُ "الربوبيّة- **ربّكم**" الذي هو لكلّ الكائنات، ثمّ بعد دهور جاءتْ مرحلة التزاوج والاستيلاد من "**الأرحام**" بدلاً من الرحم الأوّل وهو الأرض، وهي المرحلة التي لحقَ عليها الإنسان وعاصرها لأنّه أتى مِنْ سلالتها، وبعد أنْ أُعْطي الرّوح وعى معنى "الألوهيّة- **الله**" التي خُوطِب بها، فقال تعالى في كتابه المبين في أوّل سورة النساء حصراً (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ**)(النساء:1).

ومن المُدهش أنّ القرآن قد كرّر أنّ النشأة الأولى هي تماماً كالنشأة الآخرة، وكما بدَأنا سنعود، بنفس الكيفيّة، لذلك احتفظ تراثنا الدينيّ منذ القدم بطرائق دفن تعي هذه البداية، فكما نشأ (تخلّق) البشر في قوالب الطين، وحواضن الطين، فهكذا يجب أنْ يُدفن ليُعاد تصنيعه يوم البعث إنباتاً مرّةً أخرى (**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً**) (نوح:17-18)، وحين رثى "جلجامش" صديقه "إنكيدو" في الملحمة البابليّة قال (**صديقي الذي أحبّ عاد إلى**

الطين)، وفي الطوفان البابلي ينعى "أوتونفشتيم"(أيْ حـائط وحـافظ النفوس)، وهو نوح (ع) قائلاً: **(قد عاد البـشرُ إلـى الطـين)**، إذن، فالتراث واحد.

ثانياً – كيف خُلقَ الإنسان؟

إنّ التراث يؤكّد بأنّ ذلك تمّ بتدخّل قوى علويّة، وهـذا هـو البونُ الشاسع بين الصدفة العمياء وبين القصد والإرادة الإلهية. فلدى السومريّين نجد حواراً بين القوى الروحانيّة المكلّفة بتخليق الإنـسان، فيُخاطب "إنگي" (هو مبدأ الحكمة والنقاء وهو المُنجـي والمُحيـي)، خاطب القوّة التي فوقه "نين ماح/ نـين مـو" (أيْ القـوّة المـدبّرة، قوّة/سيّدة الإحياء، الأمّ الكبرى): **(إنّ الكائن الـذي نطقـتِ باسـمه موجودٌ، اربطي عليه صورة الأرباب، عيّني سماته، إنّه الإنـسان)**، والنصّ واضح أنّ الكائن البشري البهائميّ موجـودٌ قبْـل الإنـسان وصاروا شجرةً أيْ نسْلاً، هم الصفوف البشريّة الأولى التـي ظلّـت تفقس في بدء الخلْق مِن بيوض الأرض، فما خرج غيـرهم بعـدها، تماماً كما الكائنات الأخرى كلٌّ مِنْ بذرته.

ثمّ عُدِّل "**ربْط**" جينات هذا الكائن (سلسلة الـ DNA) بالتدخّل في عمليّة صقّها، بصفٍّ معدَّلٍ جديد وتركيزةٍ جديدةٍ، لتحويل نطفتـه

إلى "**مُخلَّقة**"[1] إنسانياً، كما أنبأ تعالى عن تلك القِوى الخلاّقة وصَفِّ الجينوم الإنسانيّ الذي أثبت العلم حديثاً أنّها مُغايرة عن جينات بشر "النياندرتال" البهائميّ "**غير المُخلَّقة**" والذي انتهى عصره قبل 30 ألف سنة: (**إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً**)(الإنسان:2)، فهو هذا، وأكملتْ مدارك الإنسان الأوّل (آدم وحوّاء) وعقله، بالتأكيد على جينات العقل ليكون عقلُه فوق الغريزة لا خاضعاً لها كالبشر الهمج، بعد أنْ زُوِّد بكينونة أخرى فوق العقل هي هبةُ "الرّوح" لتكون وسيلة اتّصاله بمبدئه حيث الملأ الأعلى، و"المندائيّون" يُؤكّدون أنّ آدم كان قبلاً مخلوقاً ماديّاً محضاً، حتّى أنْ أُحضرتْ نسمةُ "روح" مِن عالم الأنوار، وأُودعتْ فيه فصار كاملاً.

ثُمّ تمّ إفراد آدم لحوّاء فقط، وحوّاء لآدم وحسب، وإسكانهما الجنّة الأرضيّة كما قال تعالى (**يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ**)(البقرة:35)، تدشيناً لشريعة الأسرة الواحدة وقدسيّتها بوجود الأب (وهي تُدعى في التراث شريعة إيل/الله) لينسلا نسلاً إنسانياً غير همجيّ، ولينسخ ويُزيح عمليًّا على مستوى الكائن الإنساني الإلهيّ نظام الطبيعة الغرائزي السائد، نظام الإخصاب والإباحة والأمومة والنسل فقط (شريعة عشتار)، وهو الذي عُبّر عنه أسطوريّاً بإنقاذ

♦ [1]– معنى "المخلّقة وغير المخلّقة" حسب آية سورة الحجّ– 5، التي أتت على ذكرها في وصف المُضْغة. أنظر بحث: **وعصى آدم**، الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

(إنكي/إيا) لــ (أنانا/عشتار) بعد هبوطها إلى العــالم الــسفلي[1]، إذ أنّ دور "عشتار" أيْ الفكر الإخصابي والزواج العشوائي قدْ هبط وسـقُل وانحطّ لدى الكائن الواعي، وانتهى على مستوى رقيّ الإنسان وتطوّر قيَمِه وسلوكه، فنقرأ في الأسطورة: **(نُزِع عــن الــشريعة القديمــة صدارتها)**، و**(لم يعُدْ الشاب في الطريق يُخــصب المــرأة الــشابّة، فليرقد إذن الرجل وحده في غرفته، ولتنمْ المرأةُ وحدها إلى جانبه)**، ولهذا نرى رمزياً رفض الملك البابليّ "جلجامش" إغراء "عشتار"، أيْ رفضه لشريعة العشواء، **(رُفِعــتْ عنهــا جميــع أثــواب الــسيادة والسلطان، أيْ "أنانا" لقد صيغتْ قــوانين العــالَم الأســفل بعنايــة واكتمال، فلا تُناقشي)**، ولنشهد مع إذلال "النظام القديم" تحوّلاً بعدئــذٍ "لعشتار"، "**لتلبس ثوب الطهارة**" ولتخدم نظام الحكمة والأسْرة، نظام الحياة الجديد ("إيا") نظام النقاء والنجاة (أنگي) وشــريعة الله (إيــل)، فيبرز دورُ قيِّمة النسل (عشتار) في هذه الحقبة، كخطّابة، ونــسّاجة، وكاهنة تقف مع قيم الشرف وتُعاقب منتهكها (كما في أسطورة "أنانــا والبستاني" السومريّة، البستانيّ الذي انتهك قوانين الأسرة)، والمغزى

♦ [1]– لأسطورة هبوط (أنانا/عشتار) السومريّة والبابليّة والآشورية إلى العالَم السفليّ معنى تكويني قديم أيضاً، يناسب فعّالية مبدأ الخصب بعد تهيُّؤ كوكب الأرض، حيث نلاحظ أنّ حيوية المياه النقيّة بتشكّل الأنهار (أيا/أنكي)، هي التي بعثتْ مبدأ الخصب (عشتار) للحياة، بعد تشكيل اليابسة المناسبة للخصب، على أنْ يكون له دورات نصف سنويّة في معظم المناطق، لذلك يتمّ التضحية بالخصب (دموزي السوري أو أدونيس) لمدةّ نصف عام .

هو تسييد القيَم الإنسانيّة على الهمجيّة، وهذا ما أُثِـر عـن "إيـزيس" (وهي "حيزى" أيْ البصّارة) سيّدة وادي النيل قبل الألف الرابع ق.م: **(وعقدتُ بين الرجل والمرأة، وقضيتُ بأن يحبّ الأبناء آباءهم، لقـد وضعتُ مع أخي "أوزوريس" حدّاً لأكل البشر)..**

ومع هذا التراث الباهر، نُدهش جدّاً للانحراف العتيّ عن هذا المسار المعرفيّ الثابت والموغل في القدم حين نقرأ النصّ التـوراتي يقول: "**وجبَلَ الربُّ الإلهُ آدم تراباً من الأرض، ونفخ في أنفه نـسمة حياة، فصار آدم نفساً حيّة**" (التكوين2: 7)!

كيف جُبل آدم من تراب كما يُجبل التمثال؟! وبالتالي نُفخ فيه فصار نفسْاً حيّة؟! هذا نقيضُ ما أثبته التراثُ الصحيح عبر نوحٍ وقبل نوح **(وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)** أيْ أنّه طور بعد طور مختلـف، فالكـائن البشري مرّ في مرحلة تطوّر وليس مرّة واحدة بأنّه جُبِل كالتمثال ثـم نُفخ فيه، وأثبته التراث عبر هود: **(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ)**(هـود: 61)، وعبر موسى (ع) نفسه الذي استرسل القرآن علـى لـسانه: **(مِنْهَـا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ)**(طـه:55)، فأثبـت أنّ المخلـوق الترابيّ هو الجنس البشريّ لا آدم وحده، وخرجوا أوّلاً كالنبات أنفساً حيّة، لا كالتمثال الأجوف! ثمّ عبْر أعظم الأنبياء الـصادق الأمـين محمد (ص)! هذا، فضلاً عنْ أنّ النّفس لا يختصّ بها الإنسان وحْده، بل أنّ كل الكائنات الحيّة ذات نفس، هذا ما أكّـده القـرآن وتراثنـا

الصحيح لولا مشاغبة توراة الكهنة وتوابعهم، و"الروح" قدْ صـــيّرتْ آدم ناطقاً أيْ مفكّراً ومبدعاً لا حيّاً لذلك في الحديث القدسيّ يُخاطــب عزّ وجلّ آدم (**يا آدم بروحي نطقْتَ**) وليس "حييت"[1].

وقد رأينا كيف رسمَ القرآنُ الكريم صورة الخلق الأوّل (**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً**)(نوح:17)، هذه الآية حاسمة، الإنبـــات يحكـــي صورةً تختلف جذرياً عن جبْل التمثال من الطين، وكلمة الإنبات تقدح فوراً فينا صورة الخروج من بذرة فـــي الأرض، لا غيـــر. بـــل إنّ المتتبّع للمرويّات الصحيحة، عن النبيّ (ص) وعن عليّ (ع) لاســـيّما في "نهج البلاغة" سيرى هذا الأمر الذي ينسجم مع كلام الله بوضوح، ما تخلّى عن التصوّر التوراتيّ، وسيرى أنّ نفخ الرّوح صـــيّرتْ آدم مُفكِّراً لا حيّاً!

فالإنسان لم يُجْبَل كتمثال من الطين، كما زعم كهنةُ التـــوراة الذين كانوا ذوي فهمٍ بدائيّ ومنظور جامد، وأخذ بهذا للأسف خلـــقٌ كثيرٌ وفسّروا خلْق الإنسان الأوّل على أنه جُبل مـــن تـــراب وتُـــرك زماناً حتى يجفّ ثم صار الشيطان يدخل من أنفه ويخرج من دبـــره، ويرفسه برجله! فهذه صورة مزريـــة جـــاءت بدايـــةً عـــن الكهنـــة التوراتيين وتلقفها البعض وزيّنوها للأذهان والقلوب. إنّ استحكام هذه

♦ [1]– سنُكمل التفصيل في الفصل الرابع جواباً على إشكال في خطبة مولانا عليّ (ع) في خلق آدم .

الصورة على الأفهام الواعية، حدثتْ بالإمام الباقر سليل النبيّ الأكـــرم (ص) يوماً ما أنْ ينعى انمحاقَ التراث الصحيح في مسألة خلــق آدم قائلاً: **(لو علم الناسُ كيف ابتدأ الخلق لما اختلف اثنـــان)**[1]، وهــذا يعني أنّ النّاس لا يعلمون، مهما ادّعوا وكابروا!

ثُمّ كيف كان إبليس يدخل مِنْ منخر آدم– التمثال ويخرج من دبره[2]، مع أنّ إبليس حينها لم يَصِرْ بعدُ شيطاناً؟! بل كان في سجوده وطاعته وتدبيره حتى أنْ استوى آدم بروحه نُودي به ليكون خادمــاً في هذا المشروع الربّاني المُـستَحدَث، مــشروع الإنــسانية، فــأبى واستكبر. ولو تتبّعنا النصّ التوراتيّ نفسه لرأينا الحقيقة بازغة علـــى خلاف ما توهّموا وأوهموا، فنقرأ:

♦ [1]– البرقي، **المحاسن**، ج1، 282؛ وفي بحار الأنوار، عن أبي عبدالله (ع) قال : "أما لو علموا كيف كان بدءُ الخلق وأصله، لما اختلف اثنان". المجلسي، **بحار الأنوار**، ج2، ص135.

♦ [2]– هذا المروي تجده لدى معظم الطوائف، وننقله لك من كتاب **البداية والنهاية** لابن كثير، في الجزء الأول، ذكر الأحاديث الواردة في خلق آدم: (فخلقه الله بيده لئلا يتكبر إبليس عنه فخلقه بشرا فكان جسدا من طين أربعين سنة من مقدار يوم الجمعة فمرّت به الملائكة ففزعوا منه لما رأوه وكان أشدّهم منه فزعا إبليس فكان يمرّ به فيضربه فيصوّت الجسد كما يصوّت الفخّار يكون له صلصلة فلذلك حين يقول (مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ) ويقول لأمرٍ ما خُلقتَ ودخل مِن فيه وخرج من دبره، وقال للملائكة لا ترهبوا من هذا فإنّ ربّكم صمد وهذا أجوف لئن سُلّطت عليه لأهلكنّه..) وهناك صياغات كثيرة لهذه الرواية، ونسبتها إلى رسول الله (ص) وأيضاً إلى أهل بيته، ويُعقّب ابنُ كثير (ولبعض هذا السياق شاهدٌ من الأحاديث وإن كان **كثيرٌ منه متلقّى من الإسرائيليّات**)!!!.

(وقال الله لتُخرج الأرض ذوات أنفس حيّة كجنسها، بهـائم ودبّابات ووحوش أرض كأجناسها، وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا .. فخلق الله الإنسان على صورته .. <u>ذكرًا وأنثى خلقهم</u>)(التكوين1: 24- 28).

فنلاحظ التالي:

1- إنبات أجناس الكائنات الحيّة من الأرض، وهو صحيح، كما بيّنا سلَفاً.

2- خروج كلّ جنس كجنسه، متميّزاً بشفرته الجينيّة، وهو صحيح. والتراث بما فيه القرآن الكريم يؤكّد **(وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ)**(الذاريات:49) لا أنّه خلق كلّ الأزواج من شيءٍ واحد (سوى من الماء وهو <u>ظرف</u> التكوين الأوّل)، فكلّ أصل وفرع وشجرة خرجت من بذرة مختلفة بتركيبة جينيّة وتكوين متميّز عن البيضة الأخرى، فأخرجت فصائل من المخلوقات لا يخرج منه إلى غيره، فالبعوضة لن تتحوّل إلى فيل، والقطّ لن يتطوّر إلى بومة، كلٌّ من شجرته، والقرد لن يتحوّل إلى إنسان، كما هي في نظرية داروين التي أدهشت

الغرب[1]، بل التراث الواحد يؤكّد: أنّ كلاً من هذه الشجرات لها بذرتها واستمرّت بها، فعند قدامى عرب وادي النيل يقول "إمفتاح" وتعني الفتّاح بادئ الحياة:**(وخلقتُ حشودًا من الأشياء أنشأتُ أنفسَها .. كما صنعْتُ نشوءات حافِرة وجاءتْ ذرّياتُها إلى الكينونة من نشوءات ولادتها).**

3- البشر آخر المخلوقات، وهذا أيضاً صحيح. والعلمُ أثبته. وبيّن القرآن أنّه سبحانه ما أشهد النّاس خلْق السماوات والأرض ولا خلْق أنفسهم، ذلك لأنّهم آخر النّشوءات أوّلاً، ولأنّ الجنس الإنساني ثانياً – وبدايته آدم – لمْ يُعاصر البزوغ البشريّ البدئيّ من الطين.

ثالثاً – أين الخطأ في التوراة؟

الخطأ أنّهم خلطوا بين البشر والإنسان، فالذي خُلق على صورة الربّ، ليكون ربّاً للأرض هو الإنسان، وهذا سيأتي بعد

♦ [1]– أوستن كلارك : "لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيّاً من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره، إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة متميزة، لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة وفي نفس الشكل الذي تراه عليه الآن"(انظر: إميل دوركايم، **قواعد المنهج في علم الاجتماع**، ص42، 222) وأيضاً:

♦ **http://www.alhawali.com/index.cfm?fuseaction=paragraphs&contentID=27#99990140**

أحقاب، بعد مئات الآلاف من السنين، لا أولئك البشر الـذين سـبقوه دهراً فهم كما قالوا عنهم **(ذكرًا وأنثى خلقهـم)**، أيْ مجـاميع مـن الذكور والإناث البشر. ودليل أنّهم خلطوا، أنّهم سيتكلّمون بعد فقـرة عن خلق آدم لوحده و"جبْله من التـراب" – طبعـاً كمـا تـصوّروا وزعموا – وعن إسكانه الجنّة، ثمّ حين التطرّق لنسل آدم في الأرض كتبوا الآتي: **(هذا كتاب مواليد آدم، يوم خَلَق الله الإنسان، على شبه الله عمله، ذكرًا وأنثـى خلقـه وباركـه ودعـا اسـمه آدم يـوم خُلق)**(التكـوين5: 1-2). والذي يهمّنا هو تمييز القارئ بين عبارة **(ذكـرًا وأنثى خلقهم)** الخاصّة بجموع البشر في الفقرة الأولى السابقة، مـع **(ذكرًا وأنثى خلقه)** الخاصّة بآدم وحوّاء الإنسان في مرحلةٍ لاحقة.

وحيثُ أنّ التوراة انتحلتْ من التراث العربـيّ، فقـد وعـتْ حقيقة وجود الجنس الهمجيّ، فتحدّثت عنه، فاستعارتْ مـن التـراث البابلي شخصيّة "ليليت" وهي امرأة وحشيّة[1]، وتطرّقتْ التوراة لوجود النسل الهجين (الإنسان الهمجيّ)، وسمّته جبّاراً أيْ عصيّاً، فنقرأ عن طوفان نوح: **(وحدث لما ابتدأ الناس يكثرون على الأرض وولد لهم بنات، أنّ أبناء الله رأوا بنات الناس أنّهن حسنات. فاتّخذوا لأنفسهم نساءً من كل ما اختاروا، فقال الربّ لا يدين روحي في الإنسان إلى**

♦ [1]– **ليليت:** شخصية عولجت بإسهاب في بحث: **وعصى آدم**، الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

الأبد، لزيغانه هو بشر وتكون أيامه مئة وعشرين سنة. كـــان فـــي الأرض (نفيليم) في تلك الأيام، وبعد ذلك أيضا إذ دخل بنو الله على بنات النـــاس وولدن لهم أولادا، هـــؤلاء هـــم منـــذ الدهـــــر ذوو اسم)(تكوين 6: 1-4). نلاحظ أنّ الجنس البشريّ الهمجيّ موجـــودٌ منـــذ الدهر، بل هم قبل آدم، وإلاّ فمن أين جاءوا إنْ لـــمْ يكونـــوا قبلـــه؟! ونلحظ صريحاً تزاوج الإنسان بإناث البشر الهمج، ما يولّـــد هجنـــاء جبّارين عصيّين على التربية. وأنّ نفخة الرّوح هـــي فـــي الإنـــسان حصراً، وتنتقل إلى الهجائن البشريّين أيضاً، ونلحـــظ الترميـــز بـــأنّ الإنسان هو "ابن للربّ" لأنّ فيه نفخة الرّوح، والفتيات الهمجيّات هنّ بنات الناس (أيْ بشر بلا روح، هُنّ غير مخلّقـــات إنـــسانياً أو علـــى أحسن التقدير هجينات)، فيمتزج المُخلّق بغير المُخلّق، وينتج هجينـــاً إنساناً، هو "الإنسان- الحيوان" ولـــيس "الإنـــسان- الإنـــسان" وفـــي المرويّ **(صورتُهم صُورة الآدميّين وقلوبهم قلوب الشياطين)**[1]. وفي مرويّاتنا عن الفساد الذي انتشر بهذا التزاوج المشاع نراه في عـــصر "لَمَك"[2] أب نوح فينقل المسعوديّ عن ذلك الزمن[1] **(وقام بعده لَمَـــك،**

♦ [1]- الحر العاملي، **وسائل الشيعة**، ج11، ص277؛ الميرزا النوري، **مستدرك الوسائل**، ج11، ص378.

♦ [2]-"**لمك**": أب نوح، واسمه سريانيّ، والسريانيّة لهجة عربيّة قديمة قبل الفصحى، والكاف لدى العرب للمثليّة، والميم لبناء تعريف كما نجدها يومنا متصدّرة اسم المفعول وبعض صيَغ الفاعل والمصدر واسم الآلة واسم المكان والزمان، فـــ "مِك" الشبيه والمثيل، لكن أقلّ منزلة من الأصل، وبهذا

وكان في أيّامه <u>كوائن واختلاطٌ في النسل</u>، وتُوفي .. وقام بعده نوح بن لمك (ع)، وقد كثر الفساد في الأرض)، وينقل الطبري (**فلمّا أدرك نوح قال له "لَمَك" قد علمت أنّه لم يبق في هذا الموضع غيرنا فلا تستوحش ولا تتّبع الأمة الخاطئة**)[2]، ولهذا السبب قال نوح (ع) حين دعا (**وَلا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّاراً**)(نوح: 27)، وأكّد سبحانه بقوله عنهم (**إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمَ سَوْءٍ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**)(الأنبياء:77)، وعبارة "قوم سوء" جاءت لوصف قوم نوح وقوم لوط في القرآن، وقال تعالى أيضاً: (**مِمَّا خَطِيئَاتِهِمْ أُغْرِقُوا**)(نوح: 25) فالدّاعي الأكبر للإهلاك هو خطيئاتهم ومسلكهم الفجوريّ الظالم وليس شرْكهم الاعتقاديّ.

ولا نندهش من قول عيسى (ع) مخاطباً خُطاة اليهود (**يا أبناء الأفاعيّ، لستم أولاد أبيكم إبراهيم، وإنما أنتم أبناء الشيطان**) وقال (**أيها الحيّات أولاد الأفاعي**)(متّى 23: 33)، فهو تمثيلٌ غير بعيد عن الفكرة نفسها إذ كانت العرب تطلق على سكنة الكهوف من الهمج "أبناء الأفاعي والحيّات وأبناء التنين"، ونُدرك بهذا علّة تسمية نوح

سُمّي "مِكا–إيل" شبيه إيل، مثيل الربّ، وكانت مكّة أيضاً المقام والموطن الأوّل للإنسان لأنّها مثيل مصغّر لبيت القدس المعمور والمأهول بالملائكة، لذا جاء الفعل العربيّ "مكّ" أو "مكت" أو "مكث" بمعنى أقام وتوطّن وعمّر، ولعلّ اسم "لمك" بإضافة لام التعريف، يُشير إلى نسبةٍ إلى "مكّة" حيث كانت أرض السريان في تلك الأنحاء العربيّة.

- [1]– المسعودي، **مروج الذهب**، ج1، ص10.
- [2]– الطبري، **تاريخ الطبريّ**، ج1، ص 108.

لدى البابليّين "أتراخاسس" أيْ (عترة–خاشِش) حافظ النّسل، و"أوتـــو–نفشتم" (حاط الــ نفوس) أيْ حائط النفوس، بل نُـــدرك بالخـــصوص غضب الربّ على البشر–الإنسان أيّام نوح (ع) بتفريطهم في أمانـــة الرّوح بمعاشرات غير سويّة تصنع أشباه البشر–الحيـــوانيّ الهمـــج، بإهلاكه بالطوفان (**لا يدين روحي في الإنسان إلى الأبد، لزيغانه هو بَشَر**)(تكوين 6: 3)، فعومل معاملة البـــشر الحيـــواني وسُـــلبَ الـــروح وأُغرِق، وهذا ما العالَمُ المتوحِّش يسير إليه الآن، غافلين عن توعّـــد الله في قوله (**وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِـــنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ**)(الأنعـــام:133)، فهـــذه الآية العجيبة ليس لها صدقيّة في الواقع العربي التـــاريخيّ ولا فـــي الواقع الإنساني العالمي، إلاّ بنحوٍ واحد، هو أنّنا (الناس) جئنـــا مـــن ذرّية قومٍ آخرين، ولمْ يتكرّر هذا المشهد أبداً، لقرينة "**إنْ يشأ**" و "**مـــا يشاء**"، ولدليل توعّد الله به، فهو استبدال الجـــنس الإنـــساني برمّتـــه لصالح خلْقٍ جديد، كما تمّ ذلك مرّةً قبل التاريخ باستبدال الهمج بنـــا، فهذه الآية يُكافئ مضمونُها قوله (**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيـــدٍ، وَمَا ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ بِعَزِيزٍ**)(فاطر:16) و(**إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ قَدِيراً**)(النساء:133).

أمّا لفظة (نفيليم Nefilim) والميم الأخيـــرة للجمـــع (فيمـــا يُعْرف باللغة العبريّة!)، فالبعض قال أنّها كلمة "كلديّة" تعني الجبابرة،

والبعض قال أنّ أصلها "نبيل" مشيراً إلى خرافة ملائكة ساقطين، غير أنّه في اللهجة الكنعانية العربيّة التي تُعزى إليها العبرية نجد "نفل" أي هبط/سقط[1]، انفصل، فلماذا لا تكون هي السلالة الأدنى (الهابطة حيوانيا) والمنفصلة عن الإنسان بخصائصها؟! وهذه اللّفظة ما زال يُقابلها "نثل" في العربيّة الفصحى، التي كانت تُلفظ "نفل" في العربيّة القديمة وفي اللّهجات أيضاً حيث الثاء فاء، وهي تعني الأمر نفسه، انفصال شيء من شيء وسقوطه منه، ومنه جاء "النثيل" وهو الرّوث.

وقد تساءل بعض عُلماء الغرب المهووسين بالتوراة بعد اكتشاف بشر "النياندرتال" الهمج: "ألا يُمكن أنْ يكونوا هم المُعبَّر عنهم في التوراة بـ "النفيليم"، لاسيّما وأنّ قدراتهم الجسميّة وهيكلهم أقوى من الإنسان وأشدّ بطشاً"؟! رغم أنّ النياندرتال الهمج الصرف كائن غير ذكي ولا متطوّر لذلك انقرض، فليس إلاّ الإنسان الهمجيّ، هو الكائن الشرّير القوي، يملك ذكاء الإنسان الخارق وبطش الهمج.

بل والغريب والمدهش في آن، أنّ قرّاء التوراة الذين لا يُقرّون بعربيّة منشأها يقفون طويلاً أمام كثيرٍ من ألفاظها، التي كُتبت باللاتينيّة في الترجمة السبعينيّة (Septuagint)، فتراهم يتحيّرون في معناها، فإليك هذا النصّ عن الطوفان وسببه في التوراة، في النصّ الإنجليزي المترجم (التكوين 6: 11): (**The earth was corrupt before**

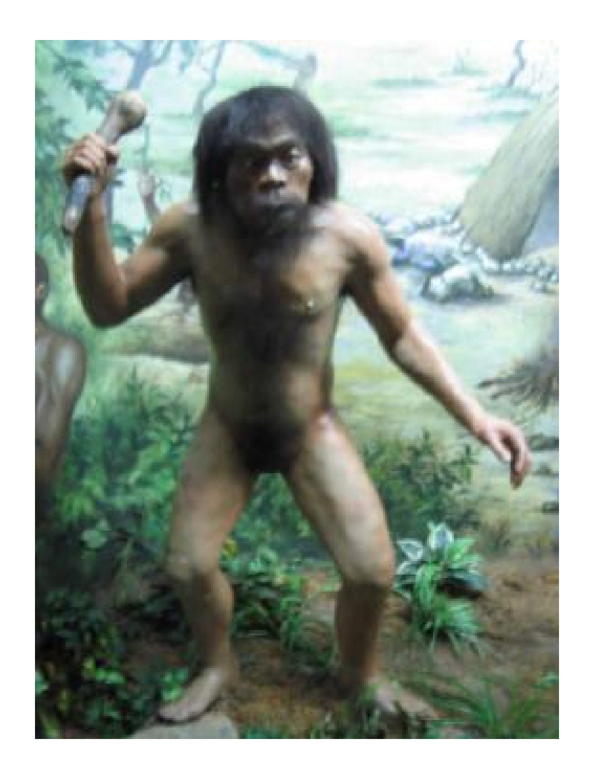
♦ [1]– أنظر: يحيى عبابنة، **اللغة الكنعانيّة.**

(**God, and the earth was filled with <u>violence.</u>**)، إنّ الكلمــة الأخيرة (ڤيولنس violence) تعني قسوة وعنف، ولكن انظــر إلــى ترجمتها في النصّ العربيّ المأخوذ عن اللاتينيّة أيضاً، كيف صارت الكلمة (ظلماً): (**وَفَسَدَتِ الأرض أمام اللهِ وامتلأت الأرض <u>ظُلْما</u>**). أمّا في نصّها الأصل "بمنطوقه العبريّ" كما يُسمّى، فذلك هــو الغريــب بعينه، فتقول : "**أرْص ملأى هَمَسْ**"، أرص هي أرض، فالصاد ضــاد لدينا أحياناً، والشين والسين يتبادل مواقعها في العربيّــة و"العبريّــة" المأخوذ بعضها من "لسان كنعان"، فــ "همَس" هي "همَش"، فما هــو هذا الــ "همس/همَش" الذي ملأ الأرض، فجاءه الطوفان؟ لنقرأ أقوال باحثيهم[1]، إذّ يتحيّرون: ما هو ذا الشرّ الفظيع جدّاً المــدعو "همــش" الذي استدعى بالضرورة طوفاناً هائلاً لجرفه بالخصوص مــن هــذه المنطقة؟

♦ [1] - Genesis also states that God brought the flood because the world was full of **hamas**. The term **hamas** is very complex. The wide range of meanings for the term **hamas** means that a lexical analysis of the word is not sufficient to allow us to determine what particular evil is here called **hamas** and what it was about this particular evil that necessitated a flood.

♦ **<u>http://home.apu.edu/~geraldwilson/atrahasis.html</u>** ؛ Strong's Hebrew and Greek Dictionaries, H2555

ومن يُواصل في قراءة المقال المُشار إليه في الهامش أو في القاموس العبري الإغريقي، يرى أنّهم يقولون أنّ الكلمة "همَشْ" تُوحي بأنواع من الشرور، والعنف، والقسوة، والوحشيّة، والرذائل والخطايا، لكنّهم لا يعرفون معناها على وجه الدقّة، وكيف جاءت! فاسأل أيّ عربيّ يتكلّم بلهجته، ويلفظ الجيم جيماً فرنسيّة قريبةً من الشين كما في كثير من لهجاتنا، ما هو الهمَش (الهمَژ) أو الهمَج؟ يُجيبك.



نموذج لكائن همجي صرف لا يتطوّر

4 نماذج للإنسان الهمجي المتطوّر الذي يستخدم السلاح لإبادة خصومه



ختام الفصل:

وخلاصة القول، بيّنه سبحانه في قوله: **(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ)**(الأنعام:2)، فالأجل المقضي والمنقضي هو الطور البشري، في الدهر المنسيّ، وقد انقضى، والأجل المسمّى هو 50 ألف سنة للحقبة الإنسانية كما أخبر القرآن في آيات أُخرى ودلّ عليه التراث، وهو القائم الآن ونحن ما زلنا جميعاً نمتري فيه ونتصارع تصارعَ الهمَج الذي يُفسد في الأرض ويسفك الدماء بعيداً عن الهدف الربّاني العميق من تسويتنا إنساناً مذكوراً.

هذا آنفاً هو ملخّص ما يقوله لنا تُراثنا الصحيح، ولإكمال الصورة ووضع النقاط على حروفها، ولفهم المزيد ممّا يقوله تراثنا المقدّس بنصوصه في سياقها، ولغاية أخرى أسمى هي: "أنّا لا نجده لائقاً أنْ نأتي بالقرآن شاهداً فقط ودليلاً ونمضي، بل هادٍ أيضاً هو، بل الــ "هادي"، فينبغي أنْ نقف عنده ونُنصت له ونستمع للحسنى وزيادة، بهذا الرجوع التأمّليّ إلى تلك المنابع الصرفة نتعرّف على السياق العام لتلك الآيات، لنرى –كمسلمين أو كعقلاء– ذلك المدى الرهيب من الحقيقة الباهرة التي يختزنها وميضُ حروف كتاب الله تعالى، وتشعّ منه فيّاضةً بأبعادها اللاّنهائيّة في فضاء الوعي الإنساني الجوّال.

الفصل الثاني

خلق البشر والإنسان في القرآن الكريم



الخروج من الطين

تمهيد:

سنتجاوز الكلام في المصطلح القرآني "البشر"، و"الإنسان"، ومدلولهما في اللّسان العربيّ، بناءً على أنّ القارئ العربيّ بات يعي هذا الفرق، لاسيّما وأنّ كثيراً من المفكّرين بيّنوا هذا الفارق وأشبعوا الأمر فيه، والقرآن الحكيم -كونه ميزاننا، وهو اللّسان العربيّ المُبين- نجد أنّ كلّ آياته تدعم التفريق بامتياز وبلا استثناء لمن طلب الحقيقة بلا مراء، إذّ المصطلح القرآني دقيق لا يأتي بهذا مكان هذا، فـ"البشريّة" مظهر بيولوجيّ تتعلّق بالصورة الإحيائية التي نحن عليها أنّى أتتْ واستُعملت، والإنسانيّة جوهر معرفيّ، لمكان الرّوح

المنفوخة فينا، لذلك فإنّ كلام الله يُخاطب الإنسان لا بشريّته إلاّ كمحكومة للإنسان وقالبٍ له، كقوله **(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا)**(الأعراف:31)، فكلّ مظاهر "الأنا العليا" أو ملكاتها وحصائلها من وعْيٍ وعلم ودين وأخلاق وفلسفة وحضارة هي مظهر إنساني، والعكس أيضاً، فكلّ مظاهر "الأنا السفلى" من حياةٍ دنيا وغرائز وعقل سفليّ وأجهزة جميع ذلك ووظائفه، هي مكوّن بشريّ، فالبشريّة قالب، والإنسانيّة قلب (روح).

فنحن جميعاً بمن فيهم الأنبياء بلحاظ وجودنا الطبيعيّ كلّنا بشر لا تمايز بيننا لا أسود ولا أبيض، لذلك قالت الأنبياء **(إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ..)**(إبراهيم:11)، لكنْ بلحاظ الإنسانية ومنها الوعي والتقوى وإدراك الغاية والاتّصال بالمبدأ الربوبيّ، فالتمايز بيّن لذلك عقّبوا بإضافة: **(وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ)**، فقد يكون الأبيض إنساناً أو الأسودُ أو كلاهما أو لا أحد منهما. فالمرء عليه أنْ يرتقي من بشريّته متقدّماً إلى إنسانيّته **(نَذِيراً لِلْبَشَرِ * لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ)**(المدثر:36، 37)، اللهُ أمَر بهذا والشيطانُ يأمر بالضدّ.

وقد وعى الأوّلون هذا التفريق، فقال صاحب الحكم العطائيّة: **(اخرج من الأكوان إلى المكوّن، بخروجك مِن أوصاف بشريّتك مِن كلّ وصفٍ مناقض لعبوديّتك، لتكون لنداء الحقّ مجيباً ومن حضرته**

قريبا)، فالعبوديّة الواعية مظهرٌ إنسانيّ حُـرّ، بـل هـي المظهـر الإنسانيّ.

إنْ كان في يدك نعمةٌ، ففكّرت أنْ تتمتّع بها لوحـدك، فأنـت تُمارس بشريّتك. وإنْ فكّرت أنْ تُعطي بها، تُساعد الآخرين وتُشركهم فيها، تحبّ إسعادهم، فأنت تُمارس ربوبيّتك (إنسانيّتك)، إنّما هذا مثال لتعرف موقعك بين الإنسانيّ الذي فيك والبشريّ.

فبناءً على هذا، سنأخذ جولة سياحية في آيـات الله البـاهرة لنستكشف من معادلاته الدقيقة ما يقوله بشأن خلق البشر ثمّ الإنـسان، مدركين بأنّ القرآن كونه كلام الإله، فإنّه يصف الحقيقة، فحيثما تكلّم عن البشر، أو الإنسان، ومن أيّ زاوية أو جزئيّة، فالقصّة الحقيقيّـة هي نفسها، كيفما سمعتها، لأنّها واحدة، وواحدةٌ هي، فـلا يُمكـن أنْ يرِدَ لفظٌ أو حرفٌ يقول بخلاف هذه الوحدة، فهلمّ نُصغِ له ونقرأ.

أوّلاً – اختصام الملأ الأعلى:

إنّ الربّ (سيّد الملائكة[1]) حين أعلم الملائكة بإنـشاء الكـائن البشريّ الذي هو آخر الكائنات الأرضيّة **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّـي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيـهِ**

♦ [1]– تحقيق أنّ "الربّ" هنا هو سيّد الملائكة وآمرها ووجه الله فيهم، له بحثٌ في مكانٍ آخر، انظر بحث: **وعصى آدم**، الحقيقة دون قناع؛ والآخر **النّظام الربّاني**، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)(الحجر:28،29)، و**(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)**(ص:71، 72)، لمْ يذكر أبداً أنّ الملائكة احتجّت على إيجاد هذه الفصيلة المتميّزة الأخيرة، وهي فصيلة غير مصنّفة، هي فوق الحيوان ذكاءً، مع إخباره لهم بأنّه متى ما تمّ تسويته ونفخ الروح فيه سيأمرهم بالخدمة والإذعان له (السجود)، إلاّ أنّه لمْ يقُم احتجاجٌ منهم على ذلك.

بيْد أنّه بمجرّد أنْ قال في ظرفٍ آخر أنّه سيجعل من ذلك المخلوق خليفة، احتجّوا أو تساءلوا بأنّه يُفسد ويسفك الدماء **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ)**(البقرة:30)، فماذا يعني هذا؟ يعني أنّ الملائكة كانت لهم ثلاث محطّات:

1- خلق البشر من الطين، وهذه رضوا بها، بل خدموا في تهيئة ظروفها، لأنّها مخلوقات مدبّرة وعاملة.

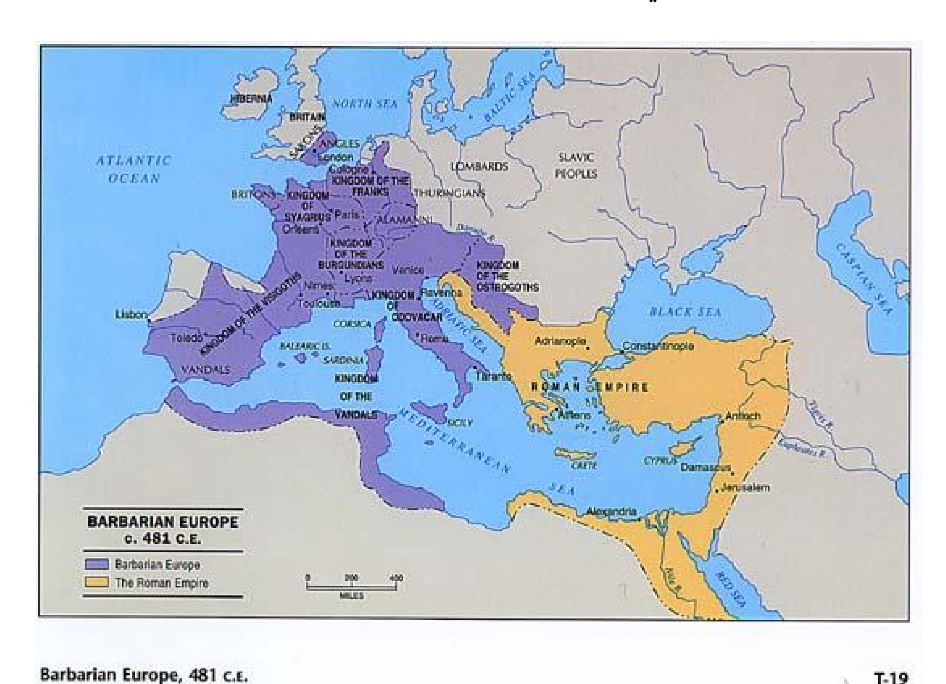
2- قرار السجود له، وهذه لمْ يحتجّوا عليها فهي مخلوقات طائعة وساجدة بطبيعتها.

3- قرار جعل ذلك البشر خليفة، وهذه أشكلوا عليها، لأنّها مخلوقات عاقلة، تعي النتيجة المنطقيّة، والبشر فعلاً كائن مفسد ويسفك.

فنهض إشكالُهم لأنّهم عاينوا فعْلاً ما يفعلـــه البـــشر طـــوال التاريخ المديد من إفساد في الطبيعة ومنْ أكل بعضه البعض أيـــضاً، وكلاهما عنصران منافيان لتولّي الخلافة مثلمـــا قـــال ســـبحانه **(وَإِذَا تَوَلَّى سَعَى فِي الْأَرْضِ لِيُفْسِدَ فِيهَا وَيُهْلِكَ الْحَرْثَ وَالنَّسْلَ)**(البقرة:205)، و**(فَهَلْ عَـــسَيْتُمْ إِنْ تَـــوَلَّيْتُمْ أَنْ تُفْـــسِدُوا فِـــي الْـــأَرْضِ وَتُقَطِّعُـــوا أَرْحَامَكُمْ)**(محمد:22)، فالإفساد البيئيّ، وإهلاك النسل، ظاهرتـــان تقفـــان على النقيض مع الدور الاستخلافيّ، هذا المنطق الصحيح، باحت بـــه الملائكة بعفويّتها.

واللّوثة الأخيرة بالخـــصوص (أيْ الهمجيّـــة بأكـــل اللّحـــوم البشرية) ظلّت في أقوام إلى عهدٍ قريب في كثير من البلـــدان حتّـــى الأوروبية المتحضّرة منها وإلى الآن في بعض الأدغال، حـــسب مـــا يقوله ويوثّقه كلّ العلماء، وراجع "قصّة الحضارة" لويـــل ديورانـــت الجزء الأوّل منه، ستجده يصفهم أنّهم يسكنون الكهوف ويأكلون لحـــم البشر، وقد استمرّت هذه العادة الهمجيّة في بعـــض المنـــاطق حتـــى القرن الحادي عشر قبل الميلاد، لدى سكان إيرلندا وإيبيريا التي هـــي أسبانيا وجماعات في الدانمارك، وأما في جزيرة بريطانيا فقـــد كـــان اللحم البشري يباع كما يبيع القصابون اللحوم اليوم. فالدول الأوروبية كما يقول ديورانت نفسه كانت تعيش حياة من الهمجية حتى الـــسابع والثامن عشر قبل الميلاد، حيث كانوا يصطادون بعـــضهم الـــبعض

ويسمّنونهم ويقدّمونهم للولائم، في حين أنّ الحضارة الحقيقية كانت تمتد في المنطقة العربية جنوباً عبر شاطئ المتوسط فقط، أمّا بقية الشعوب فما تزال في طور الهمجية وهجعتها.



صورة تبيّن أنّ أوربا كانت موطن البرابرة الهمج

وإذا كانت الملائكة سلّمت بفضل الإنسان الروحانيّ المستولَد من الهمج البدائيّين، فإنّ إبليس بعدها لن يُسلّم، حين يُستدْعى للسجود مع الملائكة لآدم فلا يستطيع، لأنّه يأبى أنْ يرى في الكائن الذي

أمامه جانبه الإنساني الساميّ المُشرق، ويُصرّ أنْ يراه بأصله البشريّ، وظلّ جهادُ إبليس حتّى يومنا هو إرجاع "الإنسان" إلى "بشر"، أمّا جهاد الملائكة فتحويل البشر إلى إنسان كما بدأوا به وكما كان ينبغي، لذلك حين قال إبليس: **(أأسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِيناً)**(الإسراء:61)، ظنّ معظمُ المفسّرين أنّ التقدير (لمن خلقتهِ طيناً)، فقدّروا عائداً محذوفاً هو الهاء، ثمّ قالوا (أيْ "من طين")، في حين أنّ مثل هذا التقدير يقلب الآية على رأسها، لأنّه يُصيّر "طيناً" مفعولاً ثانياً، هذا ما سيبدو، فينتج أنّ الله صيّر الإنسان طيناً، بينما العكس هو الصحيح، الربّ قد صيّر البشر الطينيّ إنساناً، وإبليس يُماحك ويُجادل ويأبى بالقول: لا أسجد لمخلوقك الطينيّ، فهو لا يرى الإنسان إلاّ بشرا وطيناً، كما رأى المستكبرون أنبياءهم الروحانيّين **(إنْ أنْتُمْ إلا بَشَرٌ)**(إبراهيم:10)، **(مَا أنْتُمْ إلا بَشَرٌ)**(يس:15)، **(مَا أنْتَ إلاّ بَشَرٌ)**(الشعراء:154)، **(مَا هَذَا إلاّ بَشَرٌ)**(المؤمنون:24)**!!** لهذا التغافل الإبليسيّ نقرأ:

- **(وَإذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي خَالِقٌ <u>بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ</u> * فَإذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ* ... قَالَ لَمْ أكُنْ لأسْجُدَ <u>لِبَشَرٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ</u>)**(الحجر:28-33).

- **(وَإِذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ * فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ * ... قالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ)**(ص:71- 76).

فنجد في السياقيْن أعلاه أنّ إبليس، يُكرّر عبارات نيّة مرحلة الخلق البشريّ الأولى نفسها، صلصال قال صلصال، طين قال طين، ولا يذكر التسوية والرّوح والإنسانيّة الموهوبة، وهذا إمّا أنّه لمْ يُجدّد معلوماته بشأن البشر أنّه سُوّي ونُفخ فيه من روح الربّ لعدم شهوده هذه المرحلة، أو أنّه يتغافل هذه الميزة ولا يريد أنْ يراها أو يقنع بوجودها.

(وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلائِكَةِ فَقَالَ أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ)(البقرة:31)، هنا يقفز سؤالٌ مهمّ عليه تتّكئ معارف كثيرة: ما الأسماء التي عرفها آدم ولمْ تعرفها الملائكة؟

إنّ "الأسماء" هي السمات والخصائص ومميّزات الشيء، هذا ما بيّنه القرآن في آياته الكثيرة، لا مجرّد العنوان الأبتر، الذي هو "اسم" ما أنزل الله به من سلطان، فهي دالاّت على مداليل، اسمٌ يُوافق المُسمّى، وهذا يُبيّن أنّ "الأسماء"/اللّغة في بداية الإنسان كانت وصفية، تصدر تبعاً لميزة الشيء المُسمّى، لا اعتباطية ولا تواضعيّة، ما يدلّك مرّةً أخرى أنّ أيّ لغة تحتفظ بهذه الخصيصة في أسمائها

فهي اللّغة الإنسانية الأولى، ولا نجد هذا الأمر إلاّ في اللّغة العربية وحدها بلهجاتها، حيث ترجع أصل كلّ كلمة إلى فعل أو جذر أوّليّ منه تمّ اشتقاق الاسم وهو أصله، وهي اللغة الوحيدة التي تجد لها معاجم تعود بالأسماء إلى أصولها الثلاثية الفعليّة.

هذا التمييز في الأشياء، يبدأ بمدركات السمع والبصر والفؤاد (كمستقبِل) لإدراك التميّز، فيبدأ مرحلة التجريد، ليصوغ له "اسماً" يُناسبه كدالٍّ عليه، ما يُسمّى اليوم بالتصنيف، وهذا بالتمام ما يقوم عليه العقل العلميّ حين اكتشافه أيّ نوع أو فصيلة جديدة من أيّ شيء بناءً على وجود فارقٍ ومائز ولو ضئيل، إذْ لو كان نفسه لألحقه العلماء بالفصائل المصنّفة والأسماء المتوفّرة، ولما نحلوه اسماً جديداً، لذلك كان التصنيف علماً، ولذلك قال **(وعلَّم آدم الأسماء كلّها)** علم التمييز والتصنيف، ولمْ يقل (أنبأ آدم) أو (حفّظ آدم) مثلما قال بعدها **(أنبئوني بأسماء هؤلاء)**.

لكنّ الفرق بين آدم (العربيّ) وعلماء العالَم اليوم أنّ الأسماء التي يُطلقها آدم – ثُمّ ورثها الآباء العرب– هي السمات نفسها والموائز، بينما افترق اليوم الأمر فلا يُستدلّ من الاسم في أحيانٍ كثيرة على شيء عدا ظرف الاكتشاف أو ثقافة المكتشف أو اسمه أو ربّما اسم كلبه أو قطّته أيضاً أو لا شيء، أيْ ليس له ارتباط بالصوت ولا بالحرف، كما كان السين يُضاف لدى الإغريق في نهاية الكلمة

لتقديس الشيء[1]، خُذْ مثلاً "أشعّة إكس" لا تعني سوى أنّها أشعة مجهولة، وإذا قُلنا "أشعة رونتجن" فقد عرفنا اسم مكتشفها فقط، أمّا ما خصائصها التي نستفيدها من الاسم؟ لا شيء.

فإذا كانت الملائكة اكتشفت الفساد والهمجيّة في بني البشر وميّزته، ولديها مفهوم "الفساد" و"السفك" كمصطلح دالّ على طبيعة معيّنة غير لائقة، فما الذي قصرتْ عنه وغلبها آدم فيه؟

هل هو "النظام الصوتي" كنظام اتّصالي مع بقيّة الكائنات وتواصليّ فيما بينها؟ أيْ أنّ الملائكة تعرف "الأسماء" ولكنّها تفتقد جهاز التصويت بها، أيْ تفقد ملَكة النُّطق والقدرة على التنغيم التي امتلكها الإنسان دون سائر الحيوانات، حيث أنّ أرقى الفصائل- بخلاف الإنسان- إنّما تصدر طيْفاً واحداً من الأصوات لا تستطيع أنْ تتعدّاه؟!

يُبدو بأنّه جوابٌ مغرٍ، إذ أنّ الملائكة لغتهم غير جهازية عضوية، بل إيحائية كالومْض، ولكنْ مَن قال بأنّ نظام التواصل لا

♦ [1]- يبدو أنّ هذه السين التشريفيّة أو التقديسيّة، التي أخذها الإغريق عن الفينيقيّين العرب، لها ارتباط بالنور الإلهيّ الذي دُعي لدى الأوائل "سين"، ورمزوا القمر به، وجُعلت لاحقة للأسماء العظيمة كالملوك الأوائل مثل الأكادي حفيد سرجون "نارام سين/ نارام سِنْ"، فسين أو سِنْ تعني "النور" أو "نور الأنوار" أو "النور المقدّس"، ولعلّها من "سنا" بمعنى "لَمْع النور"، ومنه جاءت "سَن" بمعنى شمس بالإنجليزيّة، والقرآن الكريم قد أومأ لهذا في قوله "يس" المنطوقة "يا سين".

يُمكن أنْ يتّكئ على لغة إيحائية وتخاطريّة؟! خاصّةً ونحن مُسلّمون أنّ الملائكة المُدبّرة تُدير أنظمة الطبيعة كلّها باقتدارٍ رهيب؟! ثُمّ أنّ الملائكة لمْ يقولوا "لا قُدرة لنا" بل قالوا "**لا علْمَ لنا**"!

أعتقد أنّ السرّ لا يكمن في تعليم آدم الأسماء فقط، فالملائكة المُسجَدون تعلم "الأسماء" التي قدْ عُلّمَتْها، ولكنْ ماذا عن الشيء الذي لمْ تتعلّمه؟ الملائكة تقف، لأنّها مبرمجة على الصحّة، وعلى ما تعلم، والإنسان مبرمجٌ على المشيئة والمُحاولة، فلا يقف، بل يتعلّم ذاتيّاً وإنْ تعثّر، فالإنسان لديه نظام تعلّميّ توليديّ يجعله يطوي المسافات إلى ما لا يعلم، فالسرّ يكمن في كلمة "**كلّها**" **(الأسماء كلّها)**، لا بعضها ويقف، فالرحمن قدْ علّم الإنسان أصول البيان، فالملائكة – على نحو التمثيل لا غير– لديها موسوعة أحكام، والإنسان أوتي أصول الأحكام.

سيبدو الإنسان بليداً جدّاً لو نافس أضخم جهاز كمبيوتر فائق السرعة في مليارات العمليّات الحسابيّة أو استرجاع المعلومات، لكنّ هذه الكمبيوترات العملاقة لنْ تُخرج لك إلاّ ما سبق ولقّمتها به وبرمجْتها عليه، فقد تستوعب كلّ قواميس العربية كشربة ماء وتُتيحها لك في أقلّ من معشار ثانية واحدة، ولكن ماذا لو أردتها أنْ تُؤلّف كلمة وصفيّة جديدة صحيحة غير موجودة في أرشيفها البليونيّ أو التريليونيّ، كلمةً واحدةً فقط؟ ستُدهش حين تظهر لك مباشرةً على

"شاشة" العرض جُملة العجز التامّ "**سبحانك، لا علمَ لنا إلاّ ما علّمتنا**"، هنا يصرعُ العقلُ الإنسانيّ البطئ ظاهراً كلّ تلك الحدود، ويتجاوزها.

فمعرفة خصائص وسمات (أسـماء) الأشـياء "**كلّهـا**" هـي مسئوليّة خليفة الأرض، لا اختصاص دون آخر أو بعض أسماء دون بعض. فالأمر كان أشبه بمسابقة في "علْم" لا "إنباء" الأسـماء، كمـا بيّنّا، فالأسماء ليست معلومات تُحفظ، كما يحفظ كثيرُ طلاّب المدارس دروسهم، وإلاّ لظُلمتْ الملائكة في هذا الامتحان المسرحيّ المُحـدّدة نتائجُه سبَقاً كانتخابات بلداننا، بأنْ أُنْبئ آدم بالأجوبة سلفاً من تحـت الطاولة والملائكة لمْ تُخبَر، إذن؛ فلا فضل لـه علـيهم سـوى أنّـه "غُشِّش" بالإجابة الصحيحة! كلاّ، الامتحان كان أقرب لامتحان نوع؛ ذكاء وقدرة وأهليّة، عنه امتحان محفوظات، امتحان نوْع لا امتحـان كمّ، فطبيعة آدم تجعله قابلاً لأنْ يعلم الأسماء "**كلّها**" ويـتعلَّم بهـا أيْ يتّسم، وتكوين الملائكة ينزع بهم للتخصّص فيما عُلِّموا فقط ولا مجال لهم لعلم ما لَم يُعلَّموا، فهم عقليّة توثيقيّة وصفيّة استنتاجيّة لا قياسـيّة ولا تنبّؤيّة ولا طافرة، لذلك حـين رصـدوا همجيّـة البـشر، فـإنّ برنامجهم العقليّ يُعطي نتيجةً واحدة لا غيرها، أنّ هذا المخلـوق لا يصلح للخلافة، وهذا ما قالوه.

وللتمييز بين سمة الشيء (اســمه) وكينونــة الــشيء نفــسه (مسمّاه) قال (بضمير الجمع لغير العاقل): "**كلّها**" ثمّ قــال "**عرضــهم**" و"**هؤلاء**" (**وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُــمَّ عَرَضَــهُمْ علــى الملائكــة.. أنبئوني بأسماءِ هؤلاءِ**)، ولو قال "ثمّ عرضها" للأشياء، لأوْهم بأنّهــا "الأسماء" مرّةً ثانية، بل إنّ هذا التنويع المُعجز في الــضمائر بجعْــل (**ها**) للسِّمات/الأسماء، و(**هم**) للكائنات/التجلّيات صــاحبة الــسمات، يُؤكّد مرّةً أخرى على دوْر الخليفة أنّه أهْلٌ للتعامل مــع المخلوقــات (كمظاهر ربّانيّة لأسماء الله) أنّى كانت رُتْبتها حيوانيــة أو نباتيــة أو جمادات، يُعاملُها كذواتٍ حيّةٍ لها مشاعر وأحاسيس تجاهــه، ترجــو عدله وتتفاعل معه سلباً وإيجاباً، فالجميع أوتار في معزوفــة الخــالق الأجلّ الذي له "الأسماء" الحسنى الفعليّة "كلّها" التي على آدم "الــتعلّم" بها (أيْ الاتّسام والتحلّي)، لينظر إلى جميع المخلوقات كوحدة كونيّــة مُسبّحة واحدة.

ثانياً – النشأة الأولى والثانية والثالثة:

إنّ كتاب الله يُثبت بلسانه العربيّ المبين أنّ هنالــك نــشأتيْن كيفيّتين في خلْقه؛ واحدة يخرج من الأرض كالنبات، والثانيــة مــن

الأرحام بلقاح الذكر والأنثى، أمّا تاريخياً فهم ثلاث نشآت: من الأرض، ثُمّ من الأرحام، ثُمّ من الأرض، فكيف ذلك؟

1- النشأة من الأرض:

(وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحاً قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)(هود:61)، هذه الآية تُبيّن أمريْن:

أ - أنّ التراث العربي أيّام صالحٍ (ع) العربيّ وقومه لا أقلّ الشفويّ منه - وذلك قبل وجود موسى (ع) بأكثر من ألف سنة، فضلاً عن التوراة التي نُسجت بعد موسى بألف سنةٍ أخرى- هذا التراث الشفويّ يعرف حقيقة خلق الإنسان، فإنّ صالحاً (ع) يتكلّم عنها كمسلّمة في الأذهان المُعاصرة أو هو يُذكّرهم بها، فقط يبقى على القوم عبادة الخالق الأحد.

ب - أنّ القرآن يقصّ الحقيقة كما هي، وكما قالها تراث الأوّلين، لا اجتهاد فيها ولا تزييف.

فالتركيز هنا على "**أنشأكم من الأرض**"، ليس لها إلاّ معنىً واحد، هو خروج البشر أوّلاً من الأرض.

2- النشأة من قوم آخَرين:

(وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)(الأنعام:133)، وهذه الآية العجيبة ليس لها صدقيّة في الواقع العربي التاريخيّ ولا في الواقع الإنساني العالمي، إلاّ بنحوٍ واحد لا غير، فالآية تُخاطبُ النذير البشير محمّداً (ص) بأنّ الربّ غنيٌّ من جهة، وذو رحمة من جهةٍ أخرى، فيستطيع أنْ يستغني عن المخاطَبين بإذْهابهم، ولكن مَنْ هم المخاطبون؟

إذا كانوا قريشاً فهل هم أُنشِئوا من ذرّية قومٍ آخرين، وليسوا من ذرّية آبائهم؟! إذْ هذا هو دلالة "قوم آخرين" لا شيئاً آخر، لاحظ كيف ورّث سبحانه "بني إسرائيل" أرض "فرعون وقومه" في قوله **(كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْماً آخَرِينَ)**(الدخان:28)، و**(وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْماً آخَرِينَ)**(الأنبياء:11)، فالقوم المنشَأون ليسوا من ذرّية المهلَكين، لأنّ أولئك أُبيدوا جميعاً فهم "القرية المقصومة" أيْ السكّان المُبادون، بل هم "آخَرون"، أي غيرهم، وهذا معنى (آخَرون). أمّا إذا كان المخاطَب هو العالَم كلّه باعتبار أنّ الرسالة خاتمة، فكيف أتى العالَمُ كُلُّه "**مِن ذرّية قومٍ آخرين**"؟

هو حلٌّ واحدٌ لكلا المسألتين، كيفما قرأتهما، الإنسان، قــريشٌ، والعالَم، كلّهم جاءوا مِن ذرّية قومٍ آخرين مغــايرين لنــا، هــم البشر الأوائل، الخلق البهائمي البدائيّ غير الإنــساني. أنــشأنا سبحانه منهم وأبادهم بالتدريج (عدا فلولٍ ربّما نعثر عليها فــي الأدغال أو في مغاور الكهوف)، لذلك قال تعالى **(ويــستخلفُ <u>مِنْ بعدكم ما يشاء</u>)** وليس "بعْدَكم" الدالّة علــى حقبــة لاحقــة مباشرة، وليس "مَن يشاء" الدالّة على هويّة معلومة، بــل هــو استبدال الجنس الإنساني كاملاً، وليس توريث الذرّيــة الأبنــاء مكان آبائهم، أو استخلاف قوم مكان قوم.

إنّ هذا "الإنشاء لنا من ذرّية قومٍ آخرين" حصل مرّةً واحدة فقط حين إنشائنا أوّل مرّة، ولو حصل مرّةً ثانية – كما تتوعّدنا هذه الآية– لاستُبدل الجنس الإنساني برمّته، ولكنّه لمْ يحصل، أمّــا توريث الذراري، والاستبدال فقد حصلا كثيراً، بل همــا ســنّة الحياة والتاريخ، ولأنّه لمْ يحصل قطّ في الماضي مــع خيــار حصوله مستقبلاً قال سبحانه مستهلاً **(إنْ يشأ)** ولــمْ يقــل (إذا شاء أو إن شاء)، والصورة نفسها عبّرتْ عنها آية أخــرى **(<u>إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ</u> وَيَــأْتِ <u>بِخَلْــقٍ جَدِيــدٍ</u>* وَمَــا ذَلِــكَ عَلَــى اللَّــهِ <u>بِعَزِيزٍ</u>)**(فاطر:16، 17)، وأخرى **(أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ خَلَــقَ الــسَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَأْتِ بِخَلْقٍ جَدِيدٍ)**(إبــراهيم:19)،

فهو خلْق جديد غير "**الناس**" (غيرنا نحن)، كما بيّنه صريحاً أيضاً: (**إنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النَّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وكَانَ اللَّهُ عَلَى ذَلِكَ** قَدِيراً)(النساء:133) لاحظ "**آخَرين**" بفتح الخاء المغايرة في الكيفيّة لجنس "**النّاس**".

ثمّ أنّ وضع هذه الآية في سورة الأنعام، لتُشير أنّ حقبة بزوغ البشر الأوائل التي منها تولّد الإنسان بعد مئات آلاف السنين، هي فترة تخليق الأنعام أيضاً لأنّها غذاؤه حسب السلسلة الغذائيّة، ولو لمْ تكن الأنعام موجودةً لانقرض البشر الأوائل جوعاً وأكلوا بعضهم بعضاً[1].

3- نشأة الأرض ونشأة الأرحام:

(الَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ إِلَّا اللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى)(النجم:32).

♦ [1]– لإتمام الفكرة عن هذه الحقبة، وافق بين هذه الآيات في الأنعام: (وَرَبُّكَ الْغَنِيُّ ذُو الرَّحْمَةِ إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ وَيَسْتَخْلِفْ مِنْ بَعْدِكُمْ مَا يَشَاءُ كَمَا أَنْشَأَكُمْ مِنْ ذُرِّيَّةِ قَوْمٍ آخَرِينَ)(الأنعام:133) وبين (خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ ..)(الزمر:6)، و(فَاطِرُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجاً يَذْرَأُكُمْ فِيهِ ..)(الشورى:11).

لاحظ الحقبيتيْن جليّاً، "**إذ**" الأولى تتحدّث عن مرحلة خلق البشر قبل ولادة الأرحام، و"**إذ**" الثانية يُبيّن تولّد الجنس البشري في الأرحام. ولماذا خاطب سبحانه الجنس الإنساني "**هو أعلمُ بكم**" بنشأتهم في الحقبتين؟!

لأنّ هاتين الحقبتيْن ما زالت بصماتهما تُؤثر في مسيرة الإنسان في ميوله الغرائزية البشريّة لارتكاب الإثم والفواحش، الميْل البهائميّ حيث شريعة الخصب والإباحة (العشتاريّة الأولى) موجود في جيناته ومكوّن وعيه المتراكم عبر الدهور، والمورّث له عبر هاتين المحطّتيْن، محطّة الزمن الأوّل (الدهر الأوّل المنسيّ) حيث "المستقرّ" هي الأرض، ومحطّة الأرحام حيث يقع في جيناته الشذوذ السلوكيّ الذي يُسبّبه الوالدان بنوازعهما لحظة الوقاع الجنسي وعقد نطفته، وهي محطّة "المستودع"، ولذلك صار الحمل "وديعة"، وصار وجوب التخيّر للنُّطف، من صميم أمانة الدِّين ووعيه. وفي هذا يُمكن لنبوءة الإنجيل أنْ تتحقّق بأنّ ذنوب الوالدين تقع على الأولاد فعْلاً **(الآباء أكلوا حصرماً وأسنان الأبناء ضرست)** وهذا أشبه باقتران قيثارتين متنافرتيّ الذبذبة ما يؤدّي إلى الخلل النّفسي والسلوكي في نفسية المواليد.

4- "النشأة الأخرى" و"النشأة الآخرة":

الآية الأولى: (وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى* مِنْ نُطْفَةٍ إِذَا تُمْنَى* وَأَنَّ عَلَيْهِ النَّشْأَةَ الْأُخْرَى)(النجم:45- 47). هذه الآية تُبيّن بوضوح أنّ تحديد جنس الذكورة والأنوثة، لا يكون في بويضة الأنثى (لأنّها تُعطي نصف مجموعة الكروموزومات – الصبغيّات)[1]، كما أنّه ليس في "حويمنات" الذكر (لأنّه يُعطي النصف أيضاً)، لكنّها في منيّ الرجل حين يُلقّح البويضة، فإنْ سبق "حويمن" (حيوان منويّ) يمتلك صبغيّة الذكورة كان المولود ذكراً، وإنْ سبق آخر يملك صبغية الأنوثة كان العكس، وهذا تماماً دلالة العبارة **(إذا تُمنى)** ففي هذا الظرف فقط يتحدّد الجنس لا قبله، ظرف **(إذا)**، ظرف سباق "الحويمنات" من الرجل نفسه، لا قبله ولا بعده، ظرف أولى ساعات المعاشرة، وهذا ما يُحتمَل (في قراءة ثانية) أنْ نفهمه من قول نبيّ الأمّة (ص) **(فإذا سبق ماءُ الرجل ماءَ المرأة نَزَعَ الولد)**[2]، أنّ ماء الرجل وماء المرأة كلاهما من حويمنات الرجل، (ماء الرجل

- [1]– دانييل كيفلس وليروي هود، **الشفرة الوراثية للإنسان**، ص 56.
- [2]– أحمد بن حنبل، **المسند**، ج3، ص189؛ وفي حديثٍ آخر (مَاءُ الرَّجُلِ أَبْيَضُ وَمَاءُ الْمَرْأَةِ أَصْفَرُ فَإِذَا اجْتَمَعَا فَعَلاَ مَنِيُّ الرَّجُلِ مَنِيَّ الْمَرْأَةِ أَذْكَرَا بِإِذْنِ اللَّهِ، وَإِذَا عَلاَ مَنِيُّ الْمَرْأَةِ مَنِيَّ الرَّجُلِ آنَثَا بِإِذْنِ اللَّهِ). ابن حزم، **المحلى**، ج9، ص187.

أيْ الحويمن الحامل الـصبغة الذكوريّــة، ومــاء المــرأة أي الحويمن الآخر الحامل الصبغة الأنثوية)، مع تسليمنا بــالقراءة الأولى الأخرى القائلة أنّ ماء (إفرازات) المرأة حمضيّ، وماء الرجل قلويّ، ولُوحظ أنّ غلبة الوسط الحمضيّ (أيْ غلبة مــاء المرأة وعلوّ تركيزه) يُنشّط الحويمنات ذات الـصبغة الأنثويــة لتلقيح البويضة، والعكس في الآخر، وهذا من معجزات النبــوّة العظيمة التي لمْ يكتشفها إلاّ نوادر كبار علماء الطبّ في يومنـــا هذا، فالقراءتان تُلمحان إلى السببين العلميّين في تذكير أو تأنيث الجنين.

ولنا أنْ نجعل "**نطفة**" هي بويضة المــرأة بالخــصوص، و"**إذا تُمنى**" أي حين يلقحها منيّ الرجل، لتظلّ متوالية خلــق الــذكر والأنثى من ذكر وأنثى، وهكذا، وهذا يُوافق جواب نبيّ الأمّــة (ص) في حديث عبدالله بن مسعود الذي رواه الإمام أحمد فـــي مسنده جواباً لليهوديّ الذي سأله: يا محمّد .. ممّ يُخلق الإنسان؟ قال (ص): **يا يهوديّ، مِنْ كلّ يُخلق، من نطفة الرجــل ومــن نطفة المرأة**[1].

♦ [1]– أحمد بن حنبل، **المسند**، ج1، ص465؛ النسائي، **السنن الكبرى**، ج5، ص340.

ومغزانا من الآية، هو عبارة "**النشأة الأخرى**"، فما معنى "**الأخرى**"؟ "أخرى" هي مؤنّث "آخَر" بفتْح الخاء، وهي تفيد البدليّة والمغايرة. أمّا "آخِرة" فهي مُؤنّث "آخِر" بكسر الخاء، وهي مقابل الأولى والأوّل[1]. وبين "الآخَر" و"الآخِر" مسافةٌ شاسعة، فلنا أنْ نقول أنّ الله هو "الآخِر"، ولكن لو قُلنا أنّه "الآخَر" لأشركنا معه إلهاً ثانياً، له كيفيّة مغايرة عنه. وقد تكرّرت مفردة "أخرى" في القرآن 71 مرّة بنفس المعنى مفيدة البدليّة والمغايرة. يجب أنْ نفهم هذا لأنّ ما سنقوله الآن وفي النقاط التالية ينبني ويتأسّس على هذا التفريق.

فالآية تُخبرنا أنّ هناك نشأتيْن في الكيفيّة لا في الكمّية (فهي ثلاث في الكمّية):

1 - نشأة معتادة، من الأرحام.

2 - نشأةً أخرى، أيْ مغايرة في الكيفيّة بدلاً من تلك النشأة المعتادة.

♦ [1] لاحظ الآيات: (ثُلّةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ، وقليلٌ من الآخِرين) (الواقعة:13) (قُلْ إنَّ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، لمجموعون)(الواقعة:49) (أَلَمْ نُهْلِكِ الْأَوَّلِينَ، ثمّ نُتْبعهم الآخِرين)(المرسلات:16) (فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلْآخِرِينَ)(الزخرف:56)، الآخِر، بكسر الخاء عكس الأوّل.

النشأة المعتادة هي التولّد من لقاح ذكر وأنثى، بويضة وحويمن، وهذه النشأة المعتادة هي علينا- نحن البشر- تفعيلها أو تعطيلها، أمّا النشأة الأخرى فهي مخصوصة ومُحتَكرة على الربّ بكيفيّة فرديّة غير تكاثريّة لا دوْر لنا ذكوراً وإناثاً فيها، فمتى حصلت أو ستحصل تلك "**النشأة الأخرى**"؟

ربّما يُجيب مُجيبٌ بأنّها مقصورة على يوم البعث، قُلنا هذا نصفُ صحيح، ولكنْ سيبقى لديْنا إشكال: لماذا أنّ "البعث" مع كونه "**النشأة الأخرى**" أيْ تلك المغايرة في الكيفيّة عن نشأة الأرحام، سُمّي أيضاً "**النشأة الآخِرة**"، التي تدلّ على وحدة كيفيّة وافتراق زمانيّ وعدديّ فأين هي "أُولى" هذه النشأة الآخرة المشابهة لها؟! فهذا الحلّ النصفيّ يُورث التناقض. لكنّ المستقرّ الذي تُبيّنه الآية بتقديم الجارّ والمجرور **(عليه)** لإفادة الاختصاص، أنّ **(<u>عليه</u> النشأة الأخرى)** وحده لا علينا، فنشأة الأرحام علينا، والنشأة الأخرى عليه دوننا. فهناك نشأةٌ علينا هي نشأة التولّد من الأرحام، وهناك نشأة على الله هي "أُخرى" أي مغايرة للمعهود الذي نراه، وهذه الأخرى تحصل مرّتين:

(أولى حين بدء الخلق البشري، وآخرة حين البعث)، وكلاهما لمْ نرهما[1].

الآية الثانية: (أوَلَمْ يَرَوْا كَيْفَ يُبْدِئُ اللَّهُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ* قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنْشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)(العنكبوت: 19،20). وهذه الآية تدعو الناس بصراحة لاعتماد علم الآثار في معرفة كيف نشأ الخلق، والبشر، لتُطابق الحقيقة القرآنيّة وينكشف لهم صدْقها، لا بأنْ يأخذوها من التوراة

♦ [1]– تُلفت انتباه القارئ أنّ هناك مروياً يُعزى نصّه إلى عليّ أمير المؤمنين (ع) مرّة، ومرّةً أخرى إلى حفيده عليّ زين العابدين (ع): (عجبتُ كل العجب لمن أنكر النشأة الأخرى، وهو يرى النشأة الأولى)، ابن أبي الفتح الإربلي، **كشف الغمة**، ج2، ص288، فالنشأة الأولى هنا نشأة الأرحام وهي تُرى يوميّاً في الحيوان والإنسان، ولأنّه قابلها بنشأة أُخرى مغايرة هي النشأة من الأرض، إلاّ أنّهم أحياناً ينقلون الرواية خطأً هكذا: (العجب كل العجب لمن أنكر النشأة الآخرة، وهو يرى النشأة الأولى) الفيض الكاشاني، **الآصفي في تفسير القرآن**، ج2، ص1258، باستبدال كلمة "**الأخرى**" بـــ "**الآخرة**"، وهذا خطأ في النقل لأنّ النشأة "**الآخرة**" و"**الأولى**" التي تُقابلها هما بكيفيّة واحدة، والإنسان بهذا مستحيلٌ أنْ يكون رأى النشأة "**الأولى**" المشابهة لنشأته "**الآخرة**"، فكلاهما من صنف النشأة "**الأخرى**" غير المعهودة لديه ولا المتصوَّرة، لكنّه رأى فقط نشأته "**الأولى**" (في الأرحام) المخالفة لنشأته (أو لنشأتيْه) "**الأخرى**" (من الأرض)، ويُمكن تصحيح الحديث حالَ تفسيره بحالةٍ واحدة فقط هي أنّ النشأة الأولى (الموافقة للنشأة الآخرة) التي الإنسان يراها دائماً هي نشأة النباتات يومياً من الأرض، لأنّه هكذا ستكون النشأة الأخرى المغايرة لنشأة الإنسان الأولى من الأرحام، إنباتاً من الأرض وبهذا دلل القرآن في قوله (وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)(الروم: 19).

المزوّرة. "**النشأة الآخِرة**"، تعني ببساطة – كما قدّمنا– أنّ هناك نشأةً أولى بنفس الكيفيّة، ومن عجيب هذه الآية، مع إخبارها أنّ الله يُبدئ الخلق ثمّ يعيده على مستوى النجوم بولادة النجوم من موت أخْريات، أو النباتات من البذرة فالشجرة فالبذرة وهكــذا، فإنّها تدعو الناس إلى السير في الأرض لينظروا ويُحقّقوا كيف بدأ الخلْق البشريّ، لأنّهم متى ما علموا ذلك، سيــسهل علــيهم جدّاً معرفة أنّ الله على كلّ شيء قــدير، لأنّ النــشأة واحــدة وبنفس الكيفيّة، سوى أنّ تلك (أيْ بداية الخلق) هي نشأة أولى، وهذه (إعادة الخلق) "**نشأةٌ آخِرة**". وهذا دلالة "**آخِــرة**" ولــيس "**أُخرى**"، فالأولى والآخرة هما اثنتان بالكيفيّــة نفــسها، تــرابٌ يختلط بالماء، فيتشكّل طميّ طينيّ مــائع، فتتجمّــع العناصــر والمكوّنات بل ومُخلّفــات الكائنــات المتحلّلــة مــن نباتــات وحيوانات، لتشكيل الأحماض الأمينيّــة اللازمــة التــي هــي أساسات الكائن الحيّ، ويقوم الــسادة المــدبّرون بــالنفخ فــي الصور، فيبثّوا شفرات كلّ إنــسان، بــإطلاق أوامرهــا إلــى الأحماض لتشكّل بروتينات وخلايا الجسم البشريّ وفق تعليمات الشفرات الجينيّة المتميّزة لكلّ فرد، فيتركّب شيئاً فشيئاً –كمــا الجنين– في حاضنات الطين المائع المغلّفة بقوالب الصلــصال، هذه صورة البعث تماماً: **(كُنْتُمْ أمْوَاتاً فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيــتُكُمْ ثُــمَّ**

<u>يُحْيِيكُمْ</u> ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)(البقرة:28)، وهي الصورة الأولى الغائرة في الزمان، المشهد نفسه.

وبهذه الكيفيّة تتحسم معارك كثيرة، في جدالات مـلأت كُتب الكلام، عن حشر الأجسام وكيفيّتها، فالمـادّة مـادّة الأرض وعناصرها، منها خُلقنا أوّل مرّة ومنها نخرج ثانية، أمّا الشفرة المورّثة فكلٌّ وشفرته كما هي تماماً، ولا يهمّ الله أنّنا تحلّلنا في الأرض أو تبعثرنا في الفضاء أو تحوّلنا إلى حجـارة أو إلـى حديد أو إلى بخار، لذلك قال **(قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنْقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ وَعِنْدَنَا كِتَابٌ حَفِيظٌ)**(ق:4)، فالكتاب الحفيظ أقرب فهمٍ لـه هـو مدوّنة الجينات (الدي.إنْ.إيه)، لذا قال تعالى: **(بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ)**(القيامة:4) هو هو نفسه، والإنسان العربيّ منـذ آلاف السنين كان يعي تماماً ما يفعل حين كان يُمـارس دفْـن موتاه، فهو يُحاكي بذلك وضعيّة البداية لأنّه يعلـم أنّهـا عـينُ النهاية، فيُمهّد لها، حيث شاع أسلوب الـدفن داخـل الجـرار الفخارية، وفي التوابيت الطينية، وتحت التراب، ثمّ رشّ المـاء عليه.

وتتحسم بهذا الفهم أيضاً التباساتٌ كثيرة، من أنّ ملايين النـاس لمْ تُدفن في القبور، فمنها من مات غرقاً ومنهم من أُحرق وذرّ رماده، ومنهم من افترسته الحيوانات أو تعفّن وتحلّـل، ومـنهم

من مات انفجاراً في الجوّ بل وعلى سطح القمر حسب الحادثة المشهورة، ومنهم ومنهم، فالكــلّ ســيخرج، بهــذه الــصورة، سيخرج من قبور طينيّة عرياناً سواءً دُفن أم لمْ يُدفن قبْلاً، كُفّن أم لمْ يُكفَّن، وتتوحّد بذلك أرض المحشر، كمــستنبت زراعــيّ لأبدان المبعوثين، سواءً لمن طُمر تحت ركــام جليــد ســيبريا وكندا، أو غرق في فيضانات بنغلاديش وأندونيسيا أو اُحــرق في بمباي، أو دُفن في أنحاء العالَم، فمبعثهم ومحــشرهم مــن أرض العرب كما في الحديث النبــويّ أنّهــا **(أرض المحــشر والمنشر)**[1] ، هكذا كانت البداية وهكذا هي النهاية لذلك يُؤكّــد تعالى **(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ)**(الأنبيــاء:104)، و**(كَمَــا بَــدَأَكُمْ تَعُودُونَ)**(الأعراف:29)، وهاتان الآيتان، ودلالــة كــاف التــشبيه والمحاكاة العربيّة، لا تُعطي إلاّ الكيفيّة نفسها، الكيفيّة البدئيّــة: **(لَقَدْ جِئْتُمُونَــا كَمَــا خَلَقْنَــاكُمْ أَوَّلَ مَــرَّةٍ)**(الكهــف:48)، وقــال

♦ [1] ابن كثير، **التفسير**، ج3، ص194 ؛ جلال الدين السيوطي، **الدر المنثور**، ج3، ص112. بل أنّ قراءةً تسبْر سطح هذه الآية (وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ قُرْآناً عَرَبِيّاً لِتُنْذِرَ أُمَّ الْقُرَى وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنْذِرَ يَوْمَ الْجَمْعِ لا رَيْبَ)(الشورى:7)، ترسم ملامح خارطة المركز، حيث "العربيّة"، وحيث "القرآن"، وحيث "الوحي"، وحيث "محمّد (ص) رسول النّاس والعالمين"، وحيث "أمّ القرى" لأنّها في البقعة الأولى التي ظهر منها البشر الأوائل، ثمّ، بعد آدم وهبوطه، صدر منها كلّ تجمّعات الإنسانية (القرى)، فهي أصل المجتمعات، الأقدم والأوّل، فالمجتمع الأوّل كان هناك في تلك المغاور على سراة الحجاز، و"يوم الجمع" الأخير سيكون هناك أيضاً، لذلك كان المسلمون يُحاكون يوم الجمع هذا في موقف عرفة، الشبيه بالمحشر.

(فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَــرَّةٍ)(الإســراء:51)، **(قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ)**(يس:79) وقال **(أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُــمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْــقٍ جَدِيـــدٍ * وَلَقَــدْ خَلَقْنَــا الإِنْسانَ ..)**(ق:15، 16) والخلق الأوّل هنــا هــم البــشر ولــيس الإنسان وإلاّ لقال (فلقد) عاطفاً بالفاء حين قوله **(ولقــد خلقنــا الإنسان)** ليُفيد أنّه يسترسل في الحديث عنهم، و**(وَضَــرَبَ لَنَــا مَثَلاً وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ)**(يس:78).

وكذلك **(يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمّىً ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلاً .. وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَــاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ)**(الحــج:5)، وهذه الآيــة ترينا أنّ البعث يُحاكي البداية، هو تــصنيع مــن تــراب، وأنّ الأرض هي الرحم الذي سيمرّ فيه الجنين البشريّ، سوى أنّــه لن يخرج طفلاً كما جرت العادة من أرحام الأمّهات، بل كمــا البدايــة يخرج رجلاً وامرأةً من رحم الأرض، موافقــاً لقولــه **(.. وَيُحْيِ الأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ* وَمِنْ آيَاتِــهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ* وَمِــنْ آيَاتِــهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجاً لِتَــسْكُنُوا إِلَيْهَــا..)**(الــروم: 19-21)

وهذه الآية صريحة بأنّ الحقبة الأولى أُخرجنـــا مـــن الأرض الميّتة تماماً كما يخرج النبات، فإذا فجأةً نحنُ بشر ينتشر ويدبّ هنا وهناك، فتلك آية ربّانيّة مذهلة، ثمّ أعقبها بالآية الثانية حين تعارفت إناث البشر وذكورها، لتبدأ مرحلـــة التـــزاوج وهـــي الحقبة التي عاصرها الآدميّ وخاطبته الآية بها، وهما من آيات الله الكُبرى، والمُنصف العاقل لن يجد محيصاً من الاعتـــراف بدقّة كلام الله وترتيبه، فالآية وبصراحة تُعلن أنّ خلـــق البـــشر المنتشر المُخرج كالنبات قدْ تمّ أوّلاً، ثمّ في مرحلةٍ لاحقة خلـــق لنا من أنفسنا أزواجاً لنسكن إليها وجعل بيننا مـــودّة ورحمـــة، فهو الخلق الإنسانيّ، من نفس الصبغة الجينيّة، ليـــتمّ التوافـــق الروحي والعقليّ والاجتماعي والأسريّ. فانتشار البشر تمّ قبـــل خلق الزوجين الإنسانيّين، ومنْ لا يرى هذا جليّاً ســـيعمد إلـــى تفكيك كلام الله وإعادة ترتيبـــه، وتقـــديم وتـــأخير، وتـــأويلات متعْسفة.

ولأنّ حقبة البداية نفسها هي حقبة النهاية قدّم سبحانه قوله **(اللَّهُ <u>يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ</u> ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)** في (الـــروم:11)، وعقـــب سبحانـــه قولـــه **(وَهُوَ الَّذِي <u>يَبْدأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعيدُهُ</u> وَهُوَ أَهْـــوَنُ عَلَيْـــهِ)** في (الروم:27)، ووسّط "الإنبات من الأرض" بينهما تماماً بدقّة حسابيّة في (آيات الروم:19_21) الآنفة.

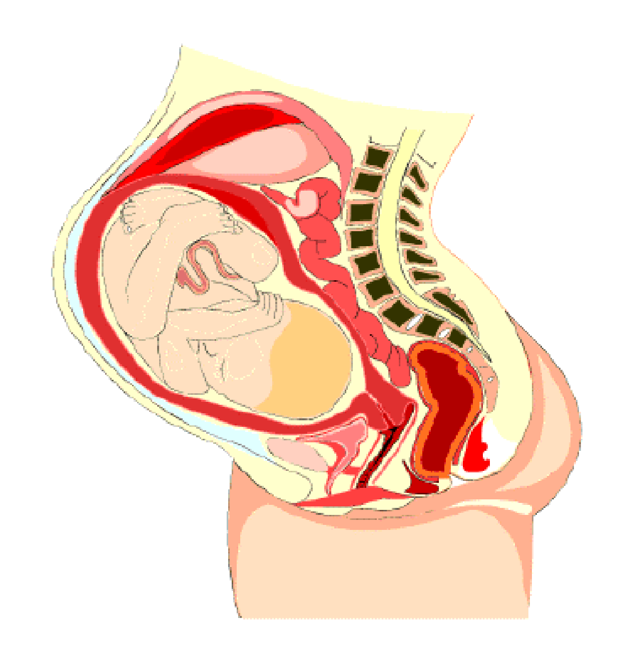
فالتراث العربيّ الصحيح كان يعرف "**النشأة الأولى**" (أو خلــق البشر) كيف حصلت، ويُدرك أنّها من طــين التــراب، حيــث خرجت البشر كالنبات، ولا أدلّ من ذلك أنّ نوحاً قالهــا قبــل أكثر من 5000 عام (**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتــاً**)(نــوح:17)، فهذه هي "النشأة الأولى" فليست النشأة الأولى النشأة في الأرحام من النطفة والمنيّ، فالله حــين قــال (**نَحْــنُ خَلَقْنَــاكُمْ فَلَــوْلا تُصَدِّقُونَ* أَفَرَأَيْتُمْ مَــا تُمْنُــونَ* أَأَنْــتُمْ تَخْلُقُونَــهُ أَمْ نَحْــنُ الْخَالِقُونَ* نَحْنُ قَدَّرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ* عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنْشِئَكُمْ فِي مَا لا تَعْلَمُونَ* وَلَقَدْ عَلِمْتُمْ النَّشْأَةَ الأُولَى فَلَوْلا تَذَكَّرُونَ**)(الواقعــة: 57-62)، فقد أحال علــى علمهــم بالنشأة الأولى التي هي من تراب/ماء/طين/صلصال، وليــست تلك التي تتخلّق ممّا يُمنون في الأرحام، وإلاّ لقال "**فلقد علمــتُم النشأة الأولى**" بالفاء ليكون عطفاً وتفريعاً على المعلوم الــسابق أيْ التخلّق من المنيّ، ولما قال "علمتُم" المفيدة لعلمٍ سابق خارج سياق الكلام، أمّا وقد قال "**ولقد**" بالواو[1]، فهذا يعني أنّه أحــال على نشأةٍ أخرى خارج الآية لكنّها معلومةٌ في العقليّة التراثيّــة وبالإمكان تذكّرها، وإنْ كانت ليست مشاهَدةً لديهم كنشأة المنيّ

♦ [1]– ولخاصّية الواو هذه قال أيضاً "وما نحن بمسبوقين" بالواو لا بالفاء ليدلّ على عدم العجز عن الإماتة المذكورة أوّلاً، وعلى البعث والإنشاء اللاحق ثانياً.

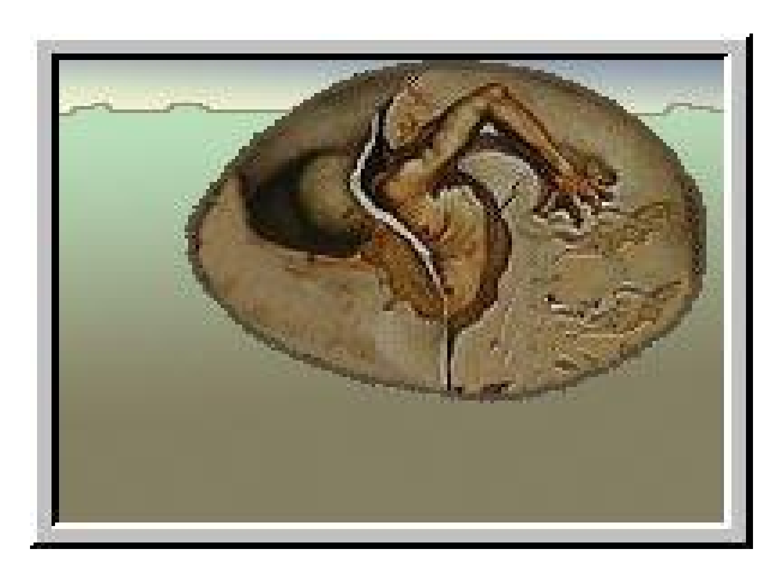
والأرحام، إذن؛ فالنشأة الأولى معلومةٌ لديهم، كلّ الذي علـيهم هو أنْ يستحضروها "**فلولا تذكّرون**".

والآية تشي بأنّ السلك الناظم بـين العمليّـات الأربـع: خلـق الخلائق من المنيّ، وتقدير الموت علـيهم، والإنـشاء الأخيـر (البعث)، والنشأة الأولى القديمة، سلكٌ ورباطٌ واحد[1]، وبرمجـة واحدة، أشارت إليه الآية بعبارة "**أفرأيتُم**" وهو "**ما تُمنون**"، هو الخليّة الأولى التي تحتوي على الشفرة الجينيّة، فهـي "الكتـاب الحفيظ"، ومدوّنة التخليق والإماتة، وإنْ كان من سـرّ لمـوت الخلايا أو توقّفها عن العمل فهو مخبوءٌ كبرنـامج مقـدَّر فـي سطور سلسلة شفراتها، وقد كشف العلم حديثاً بعضاً من هـذا؛ أنّ الكروموسوم (الصبغة) الرابع فيه جينـةٌ (مـورّث) تُعنـى بطول الأعمار من أصل 500 جينة يحتويها.

♦ [1]– هو المعبَّر عنه بشدّ الأسر، وهو السلسلة، الرباط، (كما في التراث السومري "اربط عليه صورة الآلهة") أيْ برنامج وقوانين تخليقيّة مقدّرة (نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً)(الإنسان:28)، وهو نفسه سلسلة الشفرة الوراثية الإنسانية، المدوّنة الجينيّة.



نشأة الأرحام المعتادة



نشأة الأرض الأولى ثُمّ الآخرة يوم البعث من بيوض الطين

5- الإخراج "تارة أخرى":

إذا أمضيْنا دلالة "**أخرى**" بأنّها تعني كرّةً بكيفيّة ثانية مغـــايرة، ونؤكّد على "مغايرة"، كما قوله **(وَنُفِخَ فِي الصُّور .. ثُـــمَّ نُفِـــخَ فِيهِ أُخْرَى..)**(الزمـــر:68)، بأنّها تعني "نفخة ثانية" غيـــر الكيفيّـــة الأولى، فالأولى للصعق والإماتة وسلْب النفوس حياتها الـــدنيا، والثانية على العكس تماماً هي للإحياء، إذا كـــان هـــذا هـــذا، سنُدرك لماذا قال سبحانه: **(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَـــا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)**(طه:55)، **(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ)** بالإنبات الأوّل من الطين كما قلنا، **(وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ)** تجـــاوزاً الآن نقـــول: بالـــدفن والموت الجسدي، **(وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ)** بالبعث والإنبات مرّةً ثانية. لكن ما معنى "**تارةً أخرى**"، ولماذا أُضيفت هنا؟

لقد جاءت "**تارة**" مرّتيْن في كتاب الله، واختلفوا في أصل الكلمة فقيل أنّ أصلها من "تور" الذي يبدو أنّه "طـــور". لكـــنّ دلالـــة "تارة" بغضّ النّظر عن أصلها، معروفـــةٌ فـــي منطـــق الفهـــم والسياق الاستعمالي العربيّ، فهـــي تفيـــد أمـــريْن: المغـــايرة والتكرار؛ ولإفادتها التغاير لا يمكن استعمالها في موقع "مرّة"، فالفعل بكيفيّة واحدة لا يمكن أنْ تقـــوم بـــه تـــارتيْن أو ثـــلاث تارات، بل مرّتين وثلاث مرّات **(سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ)**(التوبـــة:101)، **(إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً)**(التوبة:80)، ولهذا السبب جاء **(مَـــنْ**

يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)(الإسراء:51) و**(لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ)**(الكهف:48)، لأنّ خلْقَ أوّل مرّة هو تماماً كخلقِ ثاني مرّة، كلاهما من قبور طينية، ولو قال أنّه خلقنا تارةً أولى كذا، لكان كيفيّة خلقنا في التارة الثانية حتماً مغايرا؛ ولهذا السبب تيسّر دمج "تارة" مع "أخرى" لأنّ كليْهما يُفيدان التغاير (كما أسلفنا).

إذن؛ ما الذي يُقابل "الإخراج تارةً أخرى"؟ إنّه أمرٌ مغاير حتماً، وتجاوزاً نقول: هو خروجنا من الأرحام الذي ينتهي بموتنا و"الدفن" **(وفيها نُعيدكم)**، هو الذي يُقابل **(منها نخرجكم تارة أخرى)**[1]. لكنْ "تارة" لا تأتي لحدَث واحد، كما قُلنا، بل لمتكرّرٍ مرّتيْن أو أكثر، فهنا في بطن الأرض حدَث: خروجٌ، دخولٌ، خروج، وفي مثال البحر: دخول، خروج، دخول، فنلاحظ أنّ "تارة" تعلّقتْ بالحدث الثالث المغاير للثاني، والمتكرّر عن الأوّل، وهذا بالضبط عملُ "تارة" وفائدتها، أيْ:

♦ [1]-(أَمْ أَمِنْتُمْ أَنْ يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفاً مِنَ الرِّيحِ فَيُغْرِقَكُمْ)(الإسراء:69)، هذه هي الـ"**تارة**" الثانية في القرآن كلّه، لاحظ أنّ الذي يُقابل "الإعادة في البحر تارة أُخرى"، هو "الخروج منه والنجاة"، لا "دخوله أوّل مرّة"، فهناك دخول البحر أوّل مرّة، خروج منه، دخوله تارة أخرى وهي تقابل الخروج منه، ولو قلنا "دخوله مرةً أخرى"، لقابلت "دخوله في المرّة الأولى".

(مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ) = (منها نُخْرِجُكم)

(فيها نُعيدُكم**)** × **(منها نُخْرِجُكم)**

فكأنّ الأمر: نُدخلكم في الأرض تارة، ونُخرجكم منها تارة.

وأنتم موجودون بعدما خرجتُم بطريقة (أرحام)، ونخرجكم من الأرض بطريقة أخرى.

فالخلق الأوّل من الأرض هو للجنس البشريّ الأوّل كاقة، لا كما يُتصوَّر أنّه لآدم، فلذلك جاء ضمير المفعول المخلوق بالجمع، أمّا كيفيّته فليستْ كما صوّره الفهم التوراتيّ، بجبل المخلوق البشري فضلاً عن الإنسانيّ من تراب، بل كما يُمكننا تماماً وبالدقة نفسها تصوّر عمليّة الإعادة للبعث، إخراجاً كما النبات **(وَنَزَّلْنَا مِنْ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكاً فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ ... وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ الْخُرُوجُ)**(ق:9-11)، الصورة هي هي.

على أنّا فهمنا آنفاً أنّ "**تارة**" أفادتْ خروجاً من الأرض **(منها خلقناكم)**، ثمّ دخولاً فيها **(فيها نعيدكم)**، ثمّ خروجاً آخر **(منها نُخرجكم)**، ولكنّ الواقع المعاش يُكذّب هذا كما بيّنا فيما سبق، فهناك الملايين لمْ يُدفنوا، بل أُحرقوا، والبعض مات في الفضاء وفي خارج الكوكب، فكيف نفهم "**فيها نُعيدكم**" التي أدركنا من كلمة "**تارة**" أنّها العمليّة التي تُغاير "**منها نُخرجكم**"؟

هذا أمرٌ لمْ يتوقف أحدٌ ليسأله، وهو نفسه السرّ الــذي تكــشفه كلمة "**نُعيدكم**" فهي تعمل بوجهين:

وجهٍ يعني الإدخال في الأرض ليُقابــل الإخــراج الأوّل مــن الأرض (الخلق البدئي)، وهذا الوجه يُفيدنا أنّه يُعزّز أنّ الخلــق البدئيّ كان إخراجاً سيُقابله بعدئذٍ إدخالٌ في الأرض (الــدّفن أو التحلل إلى عناصر التراب). لكنّ سيادة هذا الوجــه وانطــلاؤه هو الذي أفضى بالإشكال المطروح.

الوجه الثاني لمعنى "**يُعيدكم**" هــو (rebuilt/recreate) إعــادة تخليق وتركيب ذرّات وخلايا وأعضاء الإنسان نفــسه، وهــو نفس المعنى الذي عناه المُنكرون (**فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيــدُنَا قُــلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)(الإسراء:51)، فهم لمْ يقصدوا الوجه الــذي معناه "منْ يدفننا في الأرض؟" قطعاً! ليسألوا عن هويّة الدفّان!! بل "مَنْ يُعيد تخليقنا بعد انفنائنا؟".

فبهذا الكشف، تتّضح الخارطة كلّها ويــزول الإشــكال، أنّ الله صنعنا في طين الأرض وأنبتنا منها لنخرج في البدء، ثــمّ لــو متنا أينما متنا ولو في المرّيخ أو في زُحل، فسوف يتمّ "إعادتنا" في نهاية الأمر (بمعنى تصنيعنا) في طين الأرض، لنخرج مرّة ثانية كما خرجنا أوّل مرّة. وهذا بالتمام ما أفــصحته الآيــات **(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتاً* ثُمَّ يُعِيــدُكُمْ فِيهَــا وَيُخْــرِجُكُمْ**

إِخْرَاجاً)(نوح:17، 18)، فتأمّل كيف جاءتْ "**ثُمّ**" بين "**أنبتكم**" في الزمن السحيق و"**يُعيدكم**" المستقبليّة، وهي حقبة قدْ تكون امتدّت لملايين السنين، ولكنْ ما مِنْ "**ثمّ**" أتتْ بين "الإعادة" (التصنيع في باطن الأرض) و"الإخراج"، لأنّ الإخراج سيعقب الإعادة – التي هي التخليق نفسه– مباشرةً، فالأرض الطينيّة والمستنقعات إذاً كانت مصنع النشوءات طُرّاً.

فهل من المعقول أنّ التراث العربيّ القديم الصحيح يعرف كلّ هذا؟ نعم، لأنّ نوحاً (ع) هو الذي قال الآية الآنفة (**وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنْ الأَرْضِ نَبَاتاً)** لقومه، واسترسال جواب موسى (ع) لفرعون هو حديث آيتنا المستهلّة (**مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى)** المحاكية لمقالة نوح تماماً.

ثالثاً – مصطلح "الإنسان" القرآنيّ:

إنّ مفردة "الإنسان"، تعني ذلك الكائن الاجتماعي الواعيّ المكلّف الذي عُدّل جينياً ثمّ نُفخ فيه الروح، فتميّز ليتطوّر إلى معرفة ربّه ومعرفة الكون ووعي ذاته ودوره الساميّ المعهودِ له به، وهي تشمل آدم الإنسان وذرّيته بالضرورة، بينما نلحظ المفسّرين يلوون هذه المفردة في التفاسير، حيث

دأبوا أنْ يخصّوا بها ذرّية آدم فقط دون أبيهم آدم، ليتخلّصوا من التناقض مع اعتقادهم، لاسيّما في آيات (النّطفـــة)، فهـــذا الإمام الطبريّ (ره) يقول تعليقاً على قوله تعالى: (**إِنَّا خَلَقْنَــا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ**)(الإنسان: 2): (أيْ إنّا خلقنا ذرّيـــة آدم من نطفة)! فالإنسان هو ذرّية آدم فقـــط، ولا نـــدري كيـــف استُثني آدم من الإنسانيّة وهو سببها ومصداقها الأوّل الأكيد؟!

ذلك لأنّ الفهم التقليديّ الدّارج لمْ يفطن كيف أنّ آدم خُلق من نُطفة وأمشاج ومنيّ، فقاموا بإخراجه منها، مـــع أنّ الآيـــات تنطبق أوّل ما تنطبق على آدم ثمّ مَن تفرّع عنـــه، فاللّـــسان العربيّ القرآني بنظمه يُخبرنـــا بالحقيقـــة بـــلا هـــوادة، أنّ "الرحمن" خلق الإنسان، أيْ بعناية تدبيريّة خاصّة، و"الرحمن" مفردة وردت كصفة لله 57 مرّة، وهي مفهومٌ معرفـــيّ واعٍ موهوبٍ للكائن الواعيّ (الإنسان مثلاً) ليتعامل به، فـــالحيوان لا يعرف "الرحمن"، يُدرك فقط نظامه الخاصّ به وبرنامجـــه الطبيعيّ (أيْ ربّه)، ولكن لـــيس "الـــرحمن"، ولـــذلك قـــال الكافرون حين سفُل إدراكهم ووعيُهم إلـــى حـــدود الطبيعـــة وحضيض الغرائز (**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْجُدُوا لِلرَّحْمَنِ قَالُوا وَمَا الرَّحْمَنُ؟**)(الفرقان:60). كما يُخبرنا القرآن أيضاً وبإصـــرار أنّ "الإنسان" – لا بني آدم فقط – بدأ خلقه من طين، وخُلق مـــن

صلصال، وخُلق من نطفة، ومن أمشاج، ومنْ علَــق، ومــن سلالة، وأنّ الإنسان كان **(نُطْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَــى)**(القيامــة:37)، فالاطّراد القرآنيّ، وخصيصةُ معنى "**الإنسان**" ودقتُها، تُحتّمان أنّ "آدم" داخلٌ في كلّ هذه المعادلات ليس بمخرَجٍ منها، بــل بعضها لا يعني إلاّ إيّاه بالخصوص، أمّا كيف؟ فسنأتي إلــى تفصيله في البحث، والآيات هي:

(وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفاً)(النساء:28)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ)(الحجر:26)

(أَوَلا يَذْكُرُ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)(مريم:67)

(خُلِــقَ الْأِنْــسَانُ مِــنْ عَجَــلٍ سَــأُرِيكُمْ آيَــاتِي فَــلا تَسْتَعْجِلُونِ)(الأنبياء:37)

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ)(المؤمنون:12)

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَــهُ وَبَــدَأَ خَلْــقَ الْأِنْــسَانِ مِــنْ طِينٍ)(السجدة:7)

(أَوَلَمْ يَرَ الْأِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَــةٍ فَــإِذَا هُــوَ خَــصِيمٌ مُبِينٌ)(يس:77)

(الرحمن ... خَلَقَ الْأِنْسَانَ)(الرحمن:1-3)

(خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ)(الرحمن:14)

(إِنَّ الْأِنْسَانَ خُلِقَ هَلُوعاً)(المعارج:19)

(إِنَّا خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً)(الإنسان:2)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي كَبَدٍ)(البلد:4)

(لَقَدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ)(التين:4)

(خَلَقَ الْأِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ)(العلق:2)

ولو أجلسْنا أمامنا أيّ مُسلمٍ أو عاقلٍ وأسمْعناه شريف قوله تعالى: **(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)**(الروم:20)، **(وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَراً فَجَعَلَهُ نَسَباً وَصِهْراً)**(الفرقان: 54)، ثُمّ سألناه سؤالاً: هل كلمة "**بشَر**" تُوحي بكائن حيٍّ أم جماد؟ لأجاب كلّ مَنْ سُئل: أنّه كائن حيّ، ولصدّق القرآن جوابهم هذا، لأنّه في كلّ وُرودات المفردة الـ 37 مرّة أتى بها بمعنى الكائن الحيّ. وحسب آية الروم والفرقان أعلاه، أنّ البشر المخلوق من التراب، والماء، هو كائن حيّ، ينتشر ويتزاوج، أيْ هو كما نحن تماماً، بل هو نحن، لا ننسَ هذا. فإذا جاء تعالى، ليقول: **(وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ)**(الحجر:28)، و**(إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ)**(ص:71). فهذا البشر المخلوق، كائن حيّ بالضرورة، وليس جماداً وتمثالاً، ولو كان جماداً لكان ينبغي أنْ يقول:

(إنّي خالقٌ كهيئة البشر) كما قال عيسى (**أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ**)(آل عمران:49)، ولو قال (ع) "طيراً"، لكان عليه أنْ يطير ككائن حيّ. فالبشر كائن حيّ وليس تمثالاً جامداً، وإلاّ له الحقّ مَن يزور متحف الشمع، أو أماكن المنحوتات والمجسّمات أنْ يقول صادقاً: لقد رأيت الكثير من البشر!!

لا، "البشر المخلوق" كائن حيّ وليس جماداً كما يزعم التوراتيّون، والله يردّ عليهم بالمنطق نفسه (**بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ**)(المائدة:18)، أيْ مجرّد كائنات حيّة "بشريّة" كغيركم. فهم ليسوا تماثيل، كزعْمهم في بداية الخلق البشري، الذي هو آدم لديهم!! فلاحظ "**خالقٌ بشراً**" "**بشَرٌ ممّن خلق**"، فعمليّة خلْق البشر أيْ جعله كما نحن، هي غير عمليّة نحْت قالَبٍ أو هيكل طينيّ أو شمعيّ أو تمثال بهيئة بشريّة.

هذا الكائن الحيّ المخلوق البشريّ يُعقّب سبحانه في سورتيْ "الحجْر" و "ص" بالعبارة نفسها (**فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ**)، "**فإذا سوّاه**"، "**إذا**" المستقبليّة، فهناك جنس بشريّ حيّ منتشر بعْدَ "خلقه بشراً" منْ طين التراب والماء (حسب آيتيّ الرّوم والفرقان)، ينتظر "**إذا**" التي

للتسوية، وينتظر "**إذا**" النفخ في الرّوح، لتسجد لـــه الملائكـــة بعدئذٍ.

رابعاً- الإنسان اللاّمذكور دهراً:

(هَلْ أَتَى عَلَى الْإِنْسَانِ حِينٌ مِـــنَ الـــدَّهْرِ لَـــمْ يَكُـــنْ شَـــيْئاً مَذْكُوراً)(الإنـــسان:1)، يقولون وما أكثر ما يقولون: "هل" هنا هي بمعنى "قد". والحال المؤسف أنّه ما من عربـــيّ يـــستعمل أو يفهم "هل" بمعنى "قد"، والله سبحانه قد استعمل الحرف "قـــد" في مئات المواضع، فما كان أيسر استخدامه هنا!

إنّ مجرّد الظنّ بالإبدال يُلغي فكرة إحكام القـــرآن، ويجعـــل كلام الناس فوق كلام الله، ويجعل القرآن محكوماً لا حاكمـــا، ويجعل فكرة الإتيان بمثله بل بأحسن منه أمـــراً مستـــساغاً، ويجعل القرآن احتمالياً ومبهماً بل وتعميةً لا بياناً، ويـــصيّرنا رُهَنَاء في أمسّ الحاجة لطبقة مـــن المفـــسّرين المتنـــازعين يعلّمونا أيّ "هل" هي بمعنى "قد" وأيّها بمعنى شـــيء آخـــر، وبالنهاية تحويل آيات القرآن إلى لغز لا يُـــدرك حلّـــه أحـــد المتدبّرين بل نهباً للآراء، وفي الأخير يُفضي بعـــدم قابليتـــه للاستخدام بالمرّة لأنّنا سنسير إدّاك علـــى أرض ملغومـــة لا

ندري أيّ "هل" قد تنفجر في وجهنا بـــ "قد"، لينقلـــب ســـؤال (هل) إلى إثبات وتحقيق (قد). ربّما عُذر بعض المفسّرين أنّه ركن إلى رواية في هذا الشأن، لكنّه بدلاً مـــن التفكّـــر فـــي الحقيقة وفي سرّ الرواية، مسح حرفين من كتاب الله وأخـــلّ بنظامه الصارم المحكم بجرّة قلم.

إذا عرفنا أنّ الخلق هو غير الإبداء والابتداع من عدم بل هو تغيير في الماهيّة والصورة، فالآية تخبرنـــا أنّ هنـــاك قـــوّة ربّانية خالقة تقول بأنّها على عاتقها تمّ خلق الإنسان من نطفة أمشاج، فمتى كان هذا الخلق؟ هي تفتح الـــسؤال للمخلـــوق الإنساني أنْ يبحث بنفسه بأداة تحثّه على طلب هذه المعرفـــة (هل) ليعرف أصله ويدرك النعمة، هي حقيقةٌ تعرفها القـــوّة الخالقة أنّه (قدِ أتى على الإنسان حين من الدهر)، لكن القرآن مُعدٌّ للإنسان لا للربّ، فللإنسان أنْ يتساءل ما دام هو لـــيس ربّاً خالقاً: كيف خُلق؟ **(فَلْيَنْظُرِ الْأِنْسَانُ مِمَّ خُلِـــقَ)**(الطـارق:5) ليعرف نفسه ضمن الكون والمخلوقات التي فيه، ولا عجـــب أنْ سُمّيت هذه السورة بسورة الإنسان، وسورة الدهر، لأنّهـــا تستحثّ الإنسان أنْ يرجع بالبحث في الدهر الأوّل حـــين لـــمْ يكن الإنسانُ شيئاً مذكوراً، فصار مذكوراً، وأُعطي الـــوعي والمشيئة ليشكر أو يكفر.

ونصّ الآيات هو: (**هَلْ أَتَى عَلَى الإِنسَانِ حِينٌ مِنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئاً مَذْكُوراً * إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً**)(الدهر: 1-3). فمن عجيب الدقّة القرآنية أنّ تغيير كلمة واحدة أو حرف تقلب الأمر رأساً على عقب، والقرآن كتاب الكون والحقّ والتاريخ، فلا يُمكن إلاّ أنْ يصف الحقيقة، إنّه "**انبثاق**" الحقيقة في كلمات، وليس "صياغة" الحقيقة في كلمات، أي هو انسباكٌ طبيعيّ عفويّ، لا اصطناعيّ، هو انعكاسٌ لا رسمٌ وتصوير. فقط تصوّر لو بدّلنا في الآية الثانية لتكون (إنّا خلقناه من نطفة ..) فوضعنا الضمير (الهاء) بدلاً من الاسم (الإنسان)، بل الحقّ، ربّما بدا للقارئ أنّ هذا الافتراض أولى وأخْصر، فلا حاجة لتكرار مفردة "الإنسان" في الآية الثانية لأنّها معلومة مذكورةٌ من الآية الأولى.

إنّ بعض الفطنين للمستوى الإعجازي القرآني يفترض أنّ آيات القرآن أو الوحْدات القرآنية (أكثر من آية متتامّة) تعمل لوحدها أيضاً بغضّ النظر عن سياقها وعن الآيات التي حولها، فبناءً على منهجه نستطيع القول أنّ حذف مفردة "الإنسان" من الآية الثانية يُصيّر الآية غير صالحة للعمل حال

انتزاعهـــا مفردةً، لاسيّما وأنّ الآيـــة الثالثـــة (**إنّـــا هـــديناه السبيل ..**) والتي أقيم فيها الضمير هـــذه المـــرّة بـــدلاً مـــن الظاهر هي جزء من وحدة الآية الثانية. هذا مـــنهجٌ حـــسنٌ ورصين يستحقّ الثناء والأخذ في الاعتبار.

لكن المتدبّر في خصوص الآية الثانية يرى أنّ تغييب مفـــردة "**الإنسان**" فيها سيضطره لإلحـــاق الآيـــة الثانيـــة بـــالأولى ضرورةً، لأنّ عائدها (وهو الهاء المُبدلة فرضاً) تُحيل إلـــى الآية الأولى، فسيكون إنسان الآية الثانية هـــو إنـــسان الآيـــة الأولى أُخرج من العدم أو من الفراغ، فتُصبح الآيـــة الثانيـــة شرحاً للأولى لا استئنافاً منفصلاً، وهذا سيقلب الآيـــة علـــى عقبها ويمحو المعنى المستقلّ الذي في الآية الأولـــى أيـــضاً، والآخر الذي في الثانية. بينما "**الإنسان**" في الآية الأولى هـــو نحن، الجنس الإنسانيّ برمّته، و"**الإنسان**" في الآية الثانية هو "آدم" أصلُنا، الذي أنهى حقبة اللاّمذكورية لجنسنا. أيْ أنّ هذا النسق القرآني المُدهش يُخبر الإنسان القارئ للقرآن الـــواعي لذاته (أنا وأنت) أنّه في الآية الأولى كان حيناً من الدهر شيئاً لا يُذكر، أيْ ليس بإنسان، هو غير مُكلّف، لا يُذكر لا بإيمان ولا بمعصية، لا يُذكر بقبيح ولا بحسن ولا مآثر تُذكر، هـــو ضمن رعايا الطبيعة والتـــسخير لا فوقهـــا، عقلُـــه مـــسخَّر

للغريزة، لا مُسخَّرٌ لها، لا يُبدع شيئاً ولا يُلفت الملأ الأعلى إليه لا بحسد ولا بثناء وإعجاب ولا بانتباهٍ ووصال، هو والنبات والحيوان واحد، يبصر كما البهائم (وليس "**بصيراً**")، ويسمع كما البهائم (وليس "**سميعاً**")، لمْ تُنفخ فيه روح ويُوضع فيه عقل وتُطلق له مشيئة ليؤول (**إمّا شاكراً وإمّا كفورا**) بل كان طائعاً بالطبيعة كمجموعة غرائز يُفكّر بها وتديره بالكَرْه كحال كلّ البهائم وإنْ كان أحذقها وأعلاها وأشدَّها تطوّراً، يُهلكه "الدهر" بلا بعْثٍ له ولا حسابٍ عليه ولا عتاب ولا كتاب، هذا الذي نجده في الأحافير أسبق من عشرات الآلاف من السنين كبشر النياندرتال والبشر الذين سبقوه، وليس كما يقولون "إنسان جاوه" "إنسان بكّين" بل بشر.

فالآية الأولى تُخاطب الإنسان لتقول له: لو بحثتَ بعمق لعلمت أنّ جنسك (البشريّ) كان دهراً لا شيء يُذكر، لأنّك حينها لمْ تكنْ إنساناً. وهذا ما سنراه توضّحه أسطورة "إيتانا والنسر" البابليّة لاحقاً.

ولكنْ، متّى صار الإنسان إنساناً؟

هذا ما تُبيّنه الآية الثانية، لذلك كـررّت مفـردة "**الإنـسان**" للتباين، ولمْ تُعوَّض بالضمير، فالإنسان قد بدأ خلقُه في الآية الثانيـة فقط، مِن ذلك الشيء الذي أشير له في الآية الأولى تعـيش سـلالاته دهْراً، ذلك المخلوق البشريّ النكرة اللامذكور الضائع في أحقاب مـا قبْل التاريخ بلا آثار ولا مآثر، وهذا ما بيّنته آيات سورة البقـرة فـي اختصام الملائكة في آدم أنّه كان من جنس همجيّ بهائميّ في وصفهم له (**من يُفسد فيها ويسفك الدماء، ونحنُ نسبّح بحمدك ونقدّس لك**)، العبارة تشير إلى أنّ المجموعة البشرية كانت لا تعي التسبيح والحمد والتقديس وغير لائقة للتدبير والاستخلاف، مجموعة فطريـة غيـر واعية تحكمها الغرائز، كغريزة الصراع والاقتتـال مـع الكائنـات الحيوانيّة ومع بعضها من أجل البقاء، لا غيْر.

فلو سأل سائل : لماذا لمْ تقل الآية (**هل أتى على** "البشر" **حينٌ من الدّهر لمْ يكن شيئاً مذكورا**)، بوضع "البشر" موضع "**الإنـسان**"؟ **لأجبنا:**

أوّلاً : وماذا سنقترح بعدئذٍ للآية التي تليها، هل هـي أيـضاً: (**إنّـا خلقْنا** "البشر" **من نطفةٍ أمشاج .. فجعلناه سميعاً بـصيرا**)، فإنّنا إنْ لمْ نفترض هذا تغيّر الموضوع بـين الآيتـيْن، وإنْ

افترضناه فالحُكم خاطئ، لأنّ البشر كانوا مخلوقين منذ دهر، وهذا المذكورُ كيفيّةُ خلْقِه للتوّ إنّما هو "**الإنسان**" متمثلاً في بدايته آدم.

ثانياً : أنّ الله سبحانه لا يُخاطِبُ إلاّ الإنسان، لأنّ أداة التواصل مع الربّ – وهي الرّوح– وُضِعَتْ فيه، يُخاطبه بكفره أو بشكره، فلو قال "بشر" التي تعني الفصيلين "المذكور منه" وهو الإنسان، و"اللامذكور منه" وهو الهمج، لكان الخطابُ خاطئاً بتعميمه؛ لأنّه خاطَب المُختارَ الذي عَقَل الألوهة، والمُكرَهَ الذي لا يعقلها، بأنْ يُفتّش في أحقاب دهره الأوّل ليرى بدائيّته وهمجيّته ونسيانه مِن الملأ الأعلى، فالثاني لا يصحّ عليه ذلك، وليس بواعٍ ولا مُكلّف والخطاب معه عبث لأنّه لمْ يتغيَّر حالُه في الزمانيْن، لذلك لا ترى في القرآن كلّه – ونعني "كلّه" فعْلاً– خطاباً إلهياً مع بشر، تراها كلّها مع "**الإنسان**"، وآيتُنا هذه "**هلْ أتى على الإنسان**" أحدُها، أن "**الإنسان**" هو الذي:

- يدعو ربّه في كلّ آيات القرآن.
- سيُبعث ويُحاسَب، البرُّ منه والفاجر، الشكور منه والكفور.

- عاداه الشيطان وأضلّه وجعله يكفر ليدخل النّار مع الدّاخلين.
- يُوصّيه سبحانه بوالديْه إحساناً، وبأنْ يشكرَه، ولا يُشرك بـه.
- لنْ يُترَك سُدًى، أمّا البشر الهمج فتُركوا سُدى.
- كادِحٌ إلى ربّه كَدْحاً فمُلاقيه.
- علّمه الرحمن ما لمْ يعلَم، و"**علّمه البيان**" أيضاً.
- خُلِق في أحسن تقويم.
- عليه أنْ ينظر ويتذكّر ويتفكّر ويُبصر.
- له متلقّيان ملائكيّان يُسجّلان أقواله وأعماله ليُنبأ يوم الحساب بما قدّم وأخّر.
- وحدَه الذي حمَل الأمانة الربّانية بعًد عرضِها وكان ظلوماً جهولاً.

فالملأ الأعلى لمْ يختصموا إلاّ في ذكر "**الإنسان**" الخليفة، ولمْ يختصموا عند ذكر "البشر" الذين خرجوا جماعات أوّل الدهر ككلّ حيوان. فهل يعقل أنْ يطلب سبحانه من فصيل البشر الهمج أنْ يُفتّش في ماضيه ليرى متى كان غير مذكور؟ هو

كان وهو للآن غير مذكور، لمْ يتغيّر شيءٌ بشأنه، وللآن هو فاقدٌ للرّوح (لو كان للآن موجوداً)، ولا يستطيع أنْ يستوعب في ذهنه معنى الزمان والمكـان ليبحـث فـي التـاريخ أو المستقبل أو في الأكوان والفضاء، تلك خصيصةٌ اختصّ بهـا الفصيل الآخر من البشر الذي أُيْقِظ فقط، هـو الـذي جُعِـل مذكوراً بنفخ الرّوح، فالمذكوريّة تميّزٌ ميّزتْ البشر "**الإنسان**" عن أسلافه البشر الهمج، وهذا هو المطلوب منه أن يرى تلك الحقبة الطفوليّة مِنْ أصله، بل وقدْ خُوطِبَ ليتوغّـل لأعمـق منها ليرى لحظة ولادته الكونيّة حين كان لا شـيء، وذلـك بزمنٍ قبلْ أنْ يكون شيئاً لا مذكوراً، يتوغّل ذهنياً وبحثاً مِـنْ كونه "شيئاً مذكوراً" الآن كإنسان، إلـى "شـيء لامـذكور" كهمج، ثمّ إلى "لا شيء" في الطّين، حقبة خلق كائنات أصـله الأوّل في ذلك الطين العجيب، في قوله تعالى للإنسان نفسِه: **(أوَلا يَذّكُرُ الْإِنْسَانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً)**(مريم:67).

والآن: هلْ يصحّ أنْ تقول لقرويّ هو للآن قرويّ: فكّرْ، هـل مرّ عليك دهرٌ لمْ تكن مدنيّاً؟ هذا كلامٌ لا منطِـقَ فيـه، ولا طائل. ولكن تقول لمدنيّ ذلك: هل مرّ عليك أيّها المدنّي دهرٌ لمْ تكن مدنيّاً؟ فهذا صحيح، وجوابه: نعم، حين كُنتُ قرويّاً.

ثالثاً : لأنّ الآية، تُخاطب الإنسان الذي مُنِحَ هبة المذكوريّة بــالرّوح ليذكر ربّه ويعي دوْرَه، أنّه قد يفقدها بتفريطه فيها، فيُعامَــل معاملة هؤلاء الهمج بل أشدّ، مثلما نسمعُ عن الحساب حيــث يُحشَر بعضُ الأفراد في صور البهائم التــي تمثّلوهــا فــي حياتهم، وهجروا توظيف الرّوح، فيكونون في الحــشر كمــا قال تعالى **(وَلَوْ نَشَاءُ لَمَسَخْنَاهُمْ عَلَى مَكَانَتِهِمْ فَمَا اسْتَطَاعُوا مُضِيّاً وَلا يَرْجِعُونَ)**(يس:67)، يُمسَخون على الهيئة التي تكوّنوا فيها وتشكّلوا عليها، ثُمّ لا يُذكَرون **(أُولَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِــي الْآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَــيْهِمْ يَــوْمَ الْقِيَامَــةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ)**(آل عمران:77)، وقال **(وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَــهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَــى* قَــالَ رَبِّ لِــمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً* قَالَ كَــذَلِكَ أَتَتْــكَ آيَاتُنَــا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى)**(طه:124-126)، فالشاهد، أنّه عــاد غيرَ مذكور، عقوبةً؛ لا يُكلّمه الربّ، ولا ينظــر إليــه، ولا يُزكّيه، يُحْشَر أعمىً، ثُمّ يُنْسى.

لذلك كان فعْل الشيطان إرجاع الإنسان إلى أصـــله الطينـــيّ، اللاذكر، ليكون في النّهاية لامذكوراً مــرّةً ثانيـــة فيتحـــسّر الإنسان لائماً الشيطان بأنّه **(لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الــذِّكْرِ بَعْــدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنْسَانِ خَذُولاً)**(الفرقــان:29). فالإنـــسان

اللامتميّز عن البهائم، لمْ ينتفع بنفخِ الرّوح فيه شيئاً، هو بشرٌ همج، ولو لبس أرقى الألبسة وأذْوقها، وتكلّم بــأحلى الكــلام وأعذبه، وركِب أفخم المركبات وأعقدها، مادامتْ حياتُه يأكل ويشرب وينكح وينام وهمّه أنْ يفترس أيّ شيء ليعيش، بــلا ضابطٍ داخليّ منه ولا أخلاق، ناسياً ربّه، هــو فــي الفــرْز الدقيق، مِنْ أولئك الأسلاف ولمْ يتطوّر، بالمعنى الحقيقيّ.

فكيف خُلِق "الإنسان"؟

تُجيب الآية الثانية من سورة "الإنسان" أو "الدّهر"، أنّه خُلــق بتصرّف جينيّ (**نطفة .. أمشاج**)، والأمشاج هي ما يُخلــط ويُغــزل بدقّة بين شيئين ولونين، ولو راجعت "مشج" في لسان العرب لرأيــت قول الأصمعي : أمْشاجُ وأوشاجُ : غُزولٍ داخلٌ بعضُها في بعــض، وقول ابن السكيت: الأمشاجُ الأخلاطُ؛ لأنها مُمْتَزِجةٌ من أنواعٍ، ولذلك يولد الإنسان ذا طَبائعَ مُخْتَلِفةٍ، وقال ابن سيده: والمَشِيجُ اخْتِلاطُ مــاء الرجل والمرأة؛ واتّفقوا أنّ أصل الأمشاج هو: كل لَــوْنينِ اخْتَلَطــا، وكلّ شيئين مختلطين. ولا نجد في الإنــسان غيــر الكروموســومات (الأمشاج) تكون نتيجة مزيجٍ بين لونين من الخصائص أيْ "صــبغة" (ومن ماء أب وأم)، حيث نصفها من الرجل (23 منها)، ونصفها من المرأة (23 الأخرى)، وهي مخــزن الطبــائع الموروثــة المختلطــة

(صبغة) من الوالدين كما عبّر ابنُ السكّيت، وصورتها كما بيّن العلْـــمُ حديثاً تُشبه الغزل (الجديلة) كما عبّر الأصمعيّ. وكلمة "صبغيّة" هـــي ترجمة لكلمة كروموثو/كرموسوم CHROMOSOME التي هـــي أصلها عربي ثم صارت في اللغات الأجنبيـــة كروموســـوم، فكلمـــة "كرومو" هي الأصل وهي: كرومـــو لفظـــاً بالـــسريانيّة و"قُرْمـــة" بالفصحى : صبغة/أصل. وكما أنّ "الـــصبغة" صـــارت فـــي الفهـــم المتداول طِلاء، فالصبغة هي "الخلْق الحيويّ" في اللغة العربية أيـــضاً أو كما يقوله القرآن الكريم: **(صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِـــبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ)**(البقرة:138) أيْ خلْق الله المتميّز ومَنْ أحسن مـــن الله خلقاً. فكما أنّ "البويا" أيضاً تعني صبغة، فندعو الجينات "صـــبغيّات" وهي كلمة صحيحة، فإنّ "بويا" تعني: صبغة وخلْق حيويّ وحياة، إلا أنّها صارت مع الاستخدام اليومي العامّي البسيط تستخدم في الطـــلاء فقط أيْ في الدهان، بينما هي في الأصل تعني صـــبْغة، فمـــن هـــذه (البويا) ذهبت أوروبا وصارت "بيو– لوجي" (علم الحيـــاة[1] – BIO- LOGY) ظناً أنّ كلمة بويا هي إغريقية!).

♦ [1]– وأيضاً فإنّ "لوجي / لوغي / لنغو / لوغوس– Logy" أصلها عربيّ وتعني "لغة"، وليس "علم" كما اشتهر خطأً.



صورة توضيحية للخلية ولنواتها وشريط "كروموسوم" واحد

فعَوْداً إلى الآية، واضحٌ منها أنّ الــ "**أمشاج**" أخصّ من الــ "**نطفة**"، إذن؛ هي شيء لابدّ أنْ يُوجد في النطفــة (الخليّــة المائعــة الأولى). فعلى هذا، ينتفي الوهم الذي يُلحق هــذه الآيــة (**نطفــة .. أمشاج**) ويُصيّرها نفس آيات (**نطفة مــن منــيّ يُمنــى / نطفــةٍ إذا تُمنى**)، ذلك أنّ كلّ آيات نطفة المنيّ التي محــضنها الــرحم كانــت شفرتها جينات إنسانية ثابتة متوارثة، أمّا تخليق الإنــسان الأوّل (آدم) بتحويله من الكائن البهيميّ، فقد كان بتصرّف وتعديل جينيّ (هندســة ربّانيّة جينية بلُغة اليوم)، فالإنسان الأوّل خُلِق من أمشاج، وبنوه (بنو آدم) ورثوا هذه الخلْقة / الصبغة الجينيّة من أبيهم الأوّل، لذلك نــرى

تحوّل آدم المباشر إلى "**سميع بصير**" وليس فقط "له سمع وبصر" كحال الآدميّين مثلنا، فهذا السموّ والنقلة في الوعي اختصّ بها الكائن الأوّل. فقول كتاب الله: **(من نطفة)** فُسّرت مباشرة بكلمة **(أمشاج)** على نحو تفصيل أكثر وللدقة، ولكنْ لنتريّث قليلاً، فليس هكذا سريعاً، إذّ لِمَ لمْ يقلْ سبحانه مباشرةً (من أمشاج) فيستغني بالدقّة والمباشرة عن الزيادة والعموم، ويُلغي كلمة "**نُطفة**"؟ ذلك، لأنّ هناك سرّا في وضع كلمة "**نطفة**" وإضافتها فما هو؟

1- أنّ المخلوقات البشرية الأولى الخارجة من تراب الأرض[1] (والمخلوقات الثانية أيضا أي نحن البشر الإنسان الخارجة من الرّحم) بدأ كلّ منها من نطفة، أي من خليّة أولى (قابلة للإخصاب والتكاثر)، وكذلك الإنسان في طور الرحم يبدأ بالنطفة أيضاً، فآدم الإنسان الأوّل بدأ بالنطفة (الخليّة الأولى

♦ [1]- الآية التي تُبيّن هذا في سورة فاطر، التي تُشير إلى الفطر الأوّل بقوله تعالى (وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ)(فاطر:11)، فالــ "نطفة" هنا ليست تلك التي في الرّحم، لأنّ مرحلة الــ "أزواج" من ذكورة وأنوثة ينبغي أنْ تسبق "نطفة" الرّحم لا أنْ تعقبها في ترتيب الآية، بل الأولى فهمها كمراحل الانبثاق البشريّ، بيولوجيا الخلق البشريّ، إذْ كان تراباً أوّلاً، ثمّ بعد دهور، بعد أن صار التراب طيناً وسلالات طينيّة، تكوّنت من عناصره الخليّة البشريّة الأولى (البذرة)، وهي الــ "نطفة"، في الطين، ثمّ انقسمت عن خلايا جنسيّة لتكوّن بعد أحقاب مديدةٍ الرجال والنساء وهي المعبَّر عنها (ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجاً)، وظلّت إلى الآن هذه الأزواج، التي بدأت مِنْ نقطةٍ تاريخيّة تنسل البشريّة عبر أرحام إناثها، المعبّر عنه (وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلا تَضَعُ).

المائعة) حينما لمْ يكن شيئا مذكورا. فالإنسان في كلا الحقبتـيْن بل وكلّ الكائنات الحيّة تبدأ من نطفة (خليّة حيّة أولـى) كيفما كانت الطريقة الحاضنة خارج الرّحم أو داخله.

2- يبدو أنّ الخليّة (أو الخلايا) الأولى (أو النطفة البدئيّة التي خُلق منها الكائن)، تلك التي استنسخت نفسها بالانقسامات حتّى صار للكائن الحيّ جسمٌ مكتمل بخلايا متعدّدة الوظائف، يبدو أنّ تلك الخليّة لها سرّ خاصّ لو تتبّعها العلم بصبغة معيّنة، إذ يلوح أنّ تغيير الشفرة الوراثيّة (الكامنة في "الأمشاج/الكرموسومات" في 100 تريليون خلية هي مجموع خلايا الإنسان)، فتغييرها عبرها هو الطريق المختصر لتعديل كلّ الخلايا سواءً قبل الانقسام أو بعده. وهذا ما حصل لآدم – الإنسان الأوّل.

3- إنّ كلمة "**نطفة**" يُعبّر بها عن المتبقيّ من قطرات الماء في الإناء، وهي صورة تعادل ما نحن بصدده كون آخر قطرات الإناء هي أوّل ما سُكب فيه (تقريباً، بفرض عدم الاختلاط، وعلى نحو التمثيل والتقريب) وهي آخر ما بقي منه، وهذا يُحاكي صورة النطفة الحيّة أو الخلايا الأمّ الأولى التي نسخت نفسها وانقسمت وهكذا، فلو قُمنا بحذف/نزف/تجاهل/شطب كلّ الخلايا-النُّسَخ المُضافة من جسم الإنسان، لصفينا أخيراً على الخليّة الأصل المتبقّية وهي كالنطفة في الإناء، وهي الخلايا الأولى المعبّر

عنها علميا بالخلايا الجذعية كاملة القدرة أو القوّة، أو قُلْ هــو النسخة الأولى من الــ دي. إنْ. إيه.

أمّا ما دور لفظة "**نبتليه**" الغريبة الوضــع فهــذا أمــرٌ أدقّ وأعظم؟ ولِمَ أتتْ مضارعة مستمرّة لا ماضية لتليــق بالكــائن الأوّل المنصرم، ولتناسب أفعال الآية الماضية (**خلقنا الإنــسان**) (**فجعلنــاه سميعا**) (**هديناه السبيل**)؟ ولماذا جاءت عاريةً من حــروف العطــف والجرّ (مثلاً: فنبتليه / لنبتليه)، بحيث أشكلت على المفسّرين وعلــى أهل النحو في إعرابها ما بين كونها خبراً ثانياً لــ "**إنّــا**" أو مفعــولاً ثانياً لــ "**خلقنا**" أو حالاً من فاعل "**خلقنا**" أو حالاً من "**الإنــسان**"، أو ذهب الكثير لتقدير حروف ومحذوفات)؟ جاءت كذلك، لا لأجــل أنْ نقدّر محذوفات ونكسّر الآية ونفكّكها لإعادة بنائها بما نهوى وما يُلائم قواعدنا، بل:

1- لأنّ الإنسان الأوّل منذ لحظة تكوّنه (بالصفّ الجينــيّ/الــصبغة المُخلّقة)، ذلك الصفّ الذي أصبح يُتوارث كصبغة مستمرّةٍ في بني آدم إلى الآن[1]، منذ اللحظة الأولى مــن اكتمــال الــصفّ الجيني (التسوية وإعداد النفخ) نُفخ فيه الرّوح التي هي من عالَمٍ آخر، فكانت هي الأمانة التي ابتُلي بها، دخَل إدّاك بقدمــه فــي

♦ [1]- وإنْ حصل له تشوّه باختلاطه بالهمج، وتزاوجه منهم، فصار الإنسان أحياناً بل وغالباً مِن المخلّق ومن غير المخلّق، كما بيّنته آية الحجّ – 5.

عالم المذكوريّة إنساناً، دخل عالم الـــوعي، عـــالم "الابـــتلاء" والامتحان، ابتُلي بإسجاد الملائكة وبعـــداوة إبلـــيس، إعطائـــه المشيئة، والعقل، وأمانة الروح، فصار مبتلىً بأمور جديـــدة – من يومها للآن– ومكلّفاً ومحاسباً، وليس همَلاً كمـــا الـــسابق. وكلّ معاني الابتلاء والبلاء مِنْ نعـــمٍ واختبـــارات وخيـــاراتِ تصرّفٍ التي نجدها في القرآن صارت تعنيه وحـــده، ولنـــا أنْ نقرأ **(ليبلوني أأشكر أم أكفر)** الموافقة لـــ **(نبتليه .. إما شاكرا وإما كفورا)**.

2- أنّ كلّ مقتضيات المشيئة والعقل والروح الإنسانية، لها ركـــائز وأسس جينيّة، أي كما أنّ "**نطفة**" --> "**أمشاج**"، فإنّ "**أمـــشاج**" --> "**نبتليه**"، فالنظام الإنساني الدنيوي خاضعٌ وأســـير للقـــوّة الخالقة عبر جيناته، وكما يقول سبحانه على لسان هـــذه القـــوة الخالقة في سورة الإنسان أيضا: **(نَحْنُ خَلَقْنَاهُمْ وَشَدَدْنَا أَسْرَهُمْ وَإِذَا شِئْنَا بَدَّلْنَا أَمْثَالَهُمْ تَبْدِيلاً)**(الإنسان:28)، فالتبديل عبـــر هـــذا "الرباط/الأسْر" يكون، من الأمشاج أو ما يُعبّر عنه بالتـــصرّف في خارطة جيناته، رباط أو سلسلة (الدي.إنْ.إيه–DNA).

3- أنّ نتيجة هذا الصفّ الجيني، والابتلاء بهـــذه الأمانـــة، فتحـــتْ عينيْ هذا المخلوق مباشرة على عالمٍ لم يكن يعيه ولا يدري به قبلاً، فابتُلي بأنْ يعصي الشيطان ولا يسمع لـــه، وابتُلـــي بـــأنْ

يطيع سادة الملائكة ويسمع لهم، وابتُلي بالاختيار، فكان في قمّة وعيه "**سميعاً بصيراً**" يرى الملائكة ويسمعها والشيطان أيضاً، وإنّ تعبير "**سميع بصير**" الذي انتقل إليه آدم بولوجه المعجز إلى عالم الإنسانية ليس سهلاً، بل هو سمة ربّانيّة فقدها الإنسان بعد إخراجه من الجنة وفقدها معه بنو آدم، وإلاّ لاستطاع الآدميّ أنْ يرى الملائكة وأن يرى الشيطان (لذلك نلحظ أنّ آية الأعراف-27 في تحذيرها من الشيطان "**يا بني آدم ... إنّه يراكم هو وقبيله من حيث لا ترونهم**" قد خصّت بني آدم فقط دون الإنسان الأوّل آدم وحوّاء). ويكفيك أن تعرف أنّ كلّ صفة "**سميع**" (وردتْ 47 مرّة) في القرآن هي لله تعالى عدا هذه، وكلّ "**سميع بصير**" وهي 7 مرات، هي لله عدا هذه، فميزة الإنسان أنّه يسمع ويُبصر لا أنّه "**سميع بصير**".

فالخلاصة أنّ (**نطفةٍ .. أمشاجٍ .. نبتليه .. فجعلناه سميعاً بصيرا**)، هو خطّ تاريخي يشرح بالتفصيل ما جرى على الكائن الأوّل، بانتقائه من مجموع كائنات بشرية بهيميّة بدائيّة، فرداً ذكراً وفرداً أنثى (**وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ**)(الكهف: 48)، (**وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ**)(الأنعام: 94)، ووُضع في قالب تخليقيّ طينيّ

لإعادة خلقه وتصنيعه، ثمّ تصويره وتسويته جينياً مرّةً أخرى[1] لكــنْ بمميزات الإنسان العاقل هو وكلّ نسله (ذرّيتــه) الــذين ســيحملون ويرثون شفرة مورّثاته نفسها (بنــي آدم)، لــذلك قــال تعــالى فــي الأعراف–11 (**ولقد خلقناكم** –أيْ بشريّا– **ثمّ صوّرناكم** –إنسانيا عبر جيناتكم– **ثمّ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم**) و"**ثُمّ**" الأخيرة أيْ بعــد نفــخ الروح الربّانية.

هذا الخطّ التاريخي يسير من الإجمال إلى التفــصيل خطــوةً خطوة، ومن السطح إلى العمق، فيقول بأنّ القوّة الخالقــة – والتــي أحدها جبريل (ع)– المضطلعة بتكليف من ربّها بشئون الإنسان، أنّها خلقت الإنسان من كائنٍ قبله بدائيٍّ غرائزيّ لا يُذكر، بالدخول علــى النطفة (الخليّة الأمّ الأولى)، ثمّ على "**أمشاج**" وهي الصبغيّات، وليس كلّها (الأمشاج) ولا أحدها (مشج) بل بعضها (**أمشاج**)، مــا يــدلّ أنّ خصيصة العقل –مثلاً– كجينات وكوظائف ينبغي أنْ نكتشفها موزّعةً على عدد من الأمشاج (أزواج الكروموسومات الــ23)، ثمّ وضــعوا

♦ [1] - In recent years, the Out of Africa theory has become increasingly dominant. In part, this is due to evidence provided by new genetic techniques. In three remarkable experiments, scientists extracted DNA from Neanderthal fossils and compared it with that of modern humans. **The DNA was very different**, supporting, but not proving the idea that Neanderthals were a separate species .

♦ (ref. http://www.channel4.com/history/microsites/N/neanderthal/)

فيه (في برنامجه/كتابه الجيني) مقتضيات الابتلاء من عقل، وضمير، وسجلّ أعمال تسجّل كلّ ما يصدر منه (**شاهد منه**)، ونتيجةً لهذا التحويل جعلوا هذا المخلوق كالربّ "**سميعاً بصيرا**"، ثمّ أروه طريق شكر الإله وطريق الكفور ليختار بنفسه السبيل الصحيح الجميل الأثر.

خامساً – بثّ الرجال والنساء:

لدقّة الهندسة القرآنية وبراعتها، لم يلتفت المفسّرون إلى علّة وضْع مفردتيّ "**الرجال**" و"**النساء**" في قوله سبحانه: "**وبثّ منهما رجالاً كثيراً ونساء**" ولم يدركوا ارتباط ذلك بـ "**الأرحام**"، في قول البارئ عزّ وجلّ: (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً**)(النساء:1).

فقال كثيرُهم: أنّ "النفس الواحدة" هي آدم[1]، و"زوجها" هي حوّاء، وهذا ما قاد البعض إلى تصوّر الفهم التوراتي أنّ

[1]– بل زاد المفسّرون أموراً حسب تفنّنهم في قواعدهم ومجازاتهم، فقالوا أنّ من موارد تأنيث المذكّر هو قوله تعالى في هذه الآية: (خلقكم من نفسٍ واحدة) والمراد به آدم، بل أنّهم أتوا بقراءة شاذّة تقول (خلقكم من نفسٍ واحد)!! وسبحان الله.

حوّاء خُلقت من ضلع آدم! ثمّ فهموا على ضوء ذلك أنّ من آدم وحوّاء بثّ الله الرجال والنساء، وهذا قادهم مرّةً ثانية إلى الخطأ الثاني بتصوّر أنّ أبناء آدم الذكور تزوّجوا أخواتهم الإناث، فانبثقت البشرية، وكان الأمر – حسب منظورهم– مقبولاً في البداية اضطراراً ثمّ حرّمته الشريعة!!

إذن، خطأٌ واحد استتبع أخطاءً على مستوى العقيدة والتشريع، ناهيك عن الأخطاء على مستوى العلْم والحقيقة التاريخيّة.

أمّا محمد شحرور، فقد فطن لهذا، فقال في كتابه "فقه المرأة" (فإذا سأل: لماذا قال (**وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً**) في الآية1 من سورة النساء؟ نقول: لأنّ البثّ لا يكون إلا مِن جماعٍ جنسي، والجماع الجنسي لا يكون إلا من رجل وامرأة، ولأنّ فعل "**بثّ**" لا يتحقّق إلا بوجود ذكر بالغ "رجل" وأنثى بالغة "امرأة")[1] انتهى. فخيرٌ أفادنا هذا المفكّر، أنّ "رجل" و"امرأة" هما للذكر والأنثى البالغيْن، فلْنبدأ من حيث انتهى.

♦ [1]– محمد شحرور، **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي** (فقه المرأة)، ص 256.

فعلى رأي شحرور كان ينبغي أنْ تنعكس الآية ليكون الرجال والنساء هما مصدر البثّ، والآية تقول أنّ المبثوث (وليس الباثّ) هم رجالٌ ونساء، فلاحظ! فلم يتنبّه الجميع– مع علوّ شأنهم وعقلهم – إلى نوعية المرحلة المتكلَّم عنها، وما هي "**النفس الواحدة**" (الكائن الحيّ المتنفّس الأوّل)؟ وكيف تمّ خلق زوجها منها؟ فإذا كان البعض فهم أنّ النفس الأولى آدم ومنها خُلقت حوّاء، فهذا صحيح على مستوى الوجود الإنساني لا البشري، ومِن آيات أخرى لا هذه، ووفق التصوّر الصحيح أيضاً لا كما اشتُهر، ممّا أدخل بذلك التسريجات التوراتية والزّعم بخلق حوّاء من ضلع آدم أو فاضل طينته[1] وما شابه! ولكنّهم لن يستطيعوا أنْ يُجيبوا كيف صار بثّ "الرجال والنساء" (ذكور وإناث بالغين) مباشرةً، وأين هم الأطفال؟ أين هم كما حكى سبحانه ذلك في قوله (**وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجاً**

♦ [1]– بناءً على قولنا أنّ آدم وُضع في حاضنة طينيّة (أشبه بالأجهزة فائقة التقنيّة أو العلميّة الخياليّة في يومنا) لإعادة تخليقه وصفّ جيناته، قد نُعطي لأنفسنا فُسحة للروايات الإسلاميّة المنسوبة أو حتّى التوراتيّة التي تقول أنّ آدم أُلقي عليه السُبات في الجنّة حين تمّ تخليق حوّاء، لفرضيّة استنساخ برنامجه الجينيّ لها، ليكونا نفساً واحدة جينيّاً، كما يُمكن أن نقبل بهذا التصوّر كونَ حوّاء خُلِقت مِنْ فاضل طينة آدم، بأنْ وُضِعت في الحاضنة الطينيّة التخليقيّة التي سبق ووُضِع آدم فيها. نقول هذا تسهيلاً لذهن القارئ أنْ لا تُشاكسه المرويّات على ظاهرها المُتخيَّل.

وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً)(النحل:72)، فـ "**بنين وحفدة**" تحتمل تصوّر الأطفال، وهي اللفظة المناسبة، لكنْ كيف لنا أنْ نتصوّر رجالاً بالغين ونساءً ينبثّون حين الولادة؟

هذا ما حاول **شحرور** أنْ يُجيب عليه مشكوراً ولم يُفلح، لأنّ الإشكال ما زال قائما، أنّ تعبير (وبثّ منهما ذكوراً كثيراً وإناثاً) أحقّ بالصياغة، لأنّها تحتمل الصغار ثمّ الكبار أيْ عالَم النّاس كلّه. وبإمكان تصوّر التزاوج بين الذكور والإناث كما أخبرتْ كلّ الآيات وليس أوّلها (**إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى)**(الحجرات:13)، بلا داعي لما افترضه شحرور. البثّ: هو بعْث شيء متحرّك وانتشاره، (**إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ)**(يوسف:86)، وإذا تعلّقت بالمخلوقات فقد ارتهنت في كلّ الآيات ببدايات الخلْق الأولى حيث بثّ الدوابّ (الكائنات الحيّة).

إذن، فإنّ آيتنا تنقسم إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: (**اتَّقُوا رَبَّكُمُ**) = "**اتّقوا**" (مخافة) + "**ربّكم**" الأسباب (طبيعيّة) -----> مخافة موضوعيّة-غرائزية.

<u>المرحلة الثانية:</u> **(وَاتَّقُوا اللَّهَ)** = "**اتّقوا**" (مخافــة) + "**الله**" مسبّب الأسباب (إيمانيّة) ---> مخافة ذاتيّة واعية.

ولذلك نجد أنّ في المرحلة الأولى فصّل بداية الخلْق حيــث كانت الخلايا الحاملة للجينــة البــشريّة الأولــى (الــنفس الواحدة) خلايا حيّة سابحة في الماء الأوّل تحمل الصبغتين الذكرية والأنثويّة، فهي عديمة الجنس (خُنثى)، ثــمّ خلــق منها زوجها، بانقسامها إلى خلايا ذكريّة وخلايا أنثويّة، ثــمّ نمت هذه الخلايا الذكورية والخلايا الأنثويّة كما تنمو الخليّة الملقّحة تماماً في الرحم، لتشكّل كائنات بــشرية، الخلايــا الأنثويّة كوّنت إناثاً، والذكريّة كوّنت ذكوراً، ولكــن لــيس إناثاً وذكوراً صغاراً بل نموْا في البيوض حتّــى خرجــوا بالغين أي نساءً ورجالاً، هذه هي مرحلــة ربوبيّــة بحتــة **(ربّكم)** حتّى لكأنّ الطبيعة هي التي تخلق، فليس مــن واعٍ بشريٍّ موجود يعي اسم "**الله**" إدّاك، هذه هي الحقبة الأولى لبزوغ هذا الكائن البشري **(رجالاً كثيراً ونساءً)** لا رجــلاً واحداً وامرأةً واحدة، ولا رجلاً واحداً خُلقت منــه أو مــن ضلعه امرأة، ولا رجلاً وامرأة تحدّرا من قــرود أو مــن سلالات أدنى، بل خلقٌ بالغٌ، فصيلةٌ مستقلّةٌ بذاتها قد انبثقتْ وظلّتْ تنبثق من الطين اللاّزب دهوراً طويلة، ثمّ لمّا تطوّر

بعد دهر، فمن هؤلاء الرجال وهؤلاء النساء تمّ التــزاوج، فانتقل بعدها طوْر الخلْق البشري إلى مرحلة الأرحام.

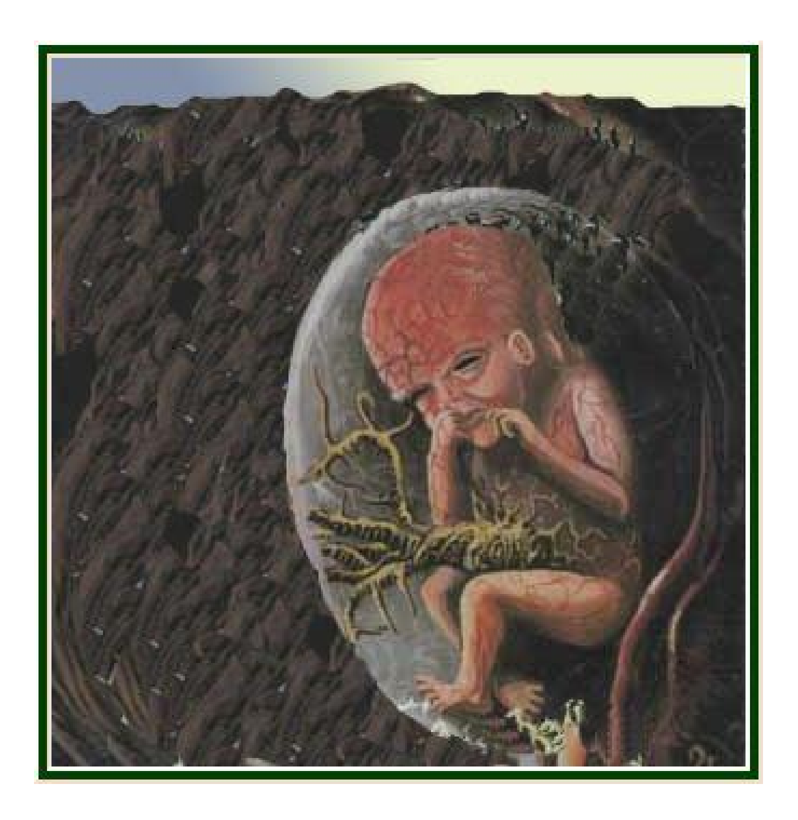
هذا الطور الثانيّ هو الذي خرج منه الإنسان بعد أحقــاب وعاصره، فأضحى الإنسان كأنّه يخلق نسله، وصار يُــؤثر في الوليد المخلوق البشري القادم حيث الأبوان بإمكانهمــا أنْ يجعلا الجنين ســويّاً أو مــشوّهاً بــسوء تــصرّفاتهما وأخلاقهما وما يتناولان، وبمقدار كفرهما بأيّ نــسبة مــن الوعي بالله والإحساس به وبرقابته، فجُعل "**الله**" رقيبا هنــا لدخول التصرّف الإنساني الحرّ ولحصول الــوعي عنــده بالألوهيّة ولمْ يكن مفهوم "**الله**" هو الرقيب هناك، بــل لــمْ يُشهدهم سبحانه تلك المرحلة كما أخبر (**مَا أَشْهَدْتُهُمْ خَلْــقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَــا كُنْــتُ مُتَّخِــذَ الْمُضِلِّينَ عَضُداً**)(الكهف:51)، هذا الخلق الطينــيّ المــستنبت الأوّل المبثوث قال سبحانه عنــه (**سُــبْحَانَ الَّــذِي خَلَــقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِــنْ أَنْفُــسِهِمْ وَمِمَّــا لا يَعْلَمُونَ**)(يس:36)، الأزواج التي نبتــت مــن طــين الأرض كانت كأصناف النبات: (أزواج مــن النــوع الــذي تُنبتــه الأرض)، وهذا قبل الانتقال إلى مرحلة التــزاوج، وهــي أزواج، أيْ مواليد ذكوريّة وأناثيّة (**من أنفــسهم**)، وهنــاك

أزواج تأتي بطرقٍ لا نعلمها. وقد قال تعالى **(وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآياتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ[1])**(الأنعام:98)، فالمستقرّ كان ولا يزال هو الأرض، هو في البداية حين النفس الواحدة، وهو الآن لكلّ إنسان يحبو ويمشي هو مستقرّ **(ولكم في الأرض مستقرّ)**، والمستودع هو الذي في الأرحام يتكوّن بلقاح الزوجين. وهي عمليّة عكسية للبداية، حيث الآن تُخلق النفس الواحدة من زوجين، وفي البداية خُلق الزوجان من نفس واحدة.

فبما أنّا عرفنا أنّ البداية البشرية انبثقتْ من خلايا وحيدة لا جنسيّة، انقسمت كلٌّ منها إلى خليّتين جنسيّتين ذكريّة وإناثيّة، ما أنتج بفعل الظرف الخاصّ واليد الربّانيّة خلايا مخصّبة (بيوضاً) كثيرة تحتضن أجنّةً بشريّة، نمت هذه "البيوض" في محضن الطبيعة "الأرض الطينيّة" حتّى فقست بعد أطوارٍ طويلة الآماد عن أفراد بالغين ناضجين جنسيّاً **(رجالاً كثيراً ونساءً)**.

---

[1]– هذه الآية لها معنىً باطن آخر، أنّ لكلّ نفس مثالها الآخر، فالمُستودع هو ما كان في هذه الدنيا للامتحان وهو المثيل، والمستقرّ هو ما كان في العالَم الآخر، عالَم المثال، وفي الآخرة يقترن المستودع بالمستقر، النفس بقرينها أو قُلْ بصورة عملها: **(وإذا النفوس زُوِّجت)**.



أجنّة بشريّة تولّدت في بطن الأرض وانشقّت الأرض عنهم رجالاً ونساءً بالغين

بما أنّا عرفنا هذه البداية فقد عرفنا في الحقيقة النهاية أيــضاً، حيث تفقس القبور الطينيّة عن رجالٍ وإناثٍ بالغين، لا عن كهول ولا عن أطفال، فليس في الجنّة والنّار أطفالٌ أو كهولٌ بل كلُّهم "أتــراب" أيْ متساوون[1]، وهناك "سيّد شباب أهل الجنّة"، وليس ثمّة "سيّد كهول

♦ [1]– ولعلّ تسمية "ترب" في الأصل جاءتْ لتساوي المخلوقات الترابيّة.

أهل الجنّة"! هذه النهاية الشبيهة بالبداية والمُحاكية لها، مغــزىً آخــر ووجهٌ لقوله سبحانه (**لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَــرَّةٍ**)(الكهـف:48) وقوله (**كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ**)(الأنبيــاء:104)، وقولـــه (**كَمَــا بَــدَأَكُمْ تَعُودُونَ**)(الأعراف:29)، لمكان كاف تشبيه الكيفيّة (**كما**).

هذه هي الصورة نفسها التي أخبر سبحانه عنها (**وَمِنْ آيَاتِــهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَــشَرٌ تَنْتَــشِرُونَ**)(الــروم:20)، حيــث الانتشار جاء مباشرة، لكائناتٍ بالغة خرجت مخلوقةً للتوّ من التراب، وهي الصورة نفسها والانتشار نفسه الذي سيُعاد فــي البعــث، يــوم الإعادة كما بينّا سابقاً، فقال تعالى: (**يَخْرُجُونَ مِــنَ الْأَجْــدَاثِ كَــأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ**)(القمر:7).

ولعلّنا ندرك الآن سرّ وضع هذه الآية[1] علـــى رأس ســـورة النساء، حيث كانت المرحلة الأولى الغرائزية في حفظ النوع البشريّ مرحلة متأخّرة، وأموميّة بحتة لا دور للرجل فيها إلاّ كفحْل إخصاب، وفي المرحلة الثانية التي بدأت بآدم وحــوّاء، حــين أُنــيط بالرجــل (الآدميّ) دور الالتزام بالأسرة، جــاءت الوصــيّة باتّقــاء الله فــي

♦ [1]-(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)(النساء:1).

الأرحام، وصيانة المرأة وحفظ النسل والأسرة، وهذا ما أفضى بالمجتمع ليكون ذكوريّاً، سواءً بشكلٍ صحيح أو باستبداد.

وإنّ انبثاق الخلق البشريّ الأوّل من الطين جاء بمراحل مديدة بعد خلق الحيوانات قبله، إلاّ الأنعام الأربعة (المعبَّر عنها بثمانية أزواج ليبدأ تكاثرها بعدئذٍ) فقد تزامن إيجادها مع الانبلاج البشريّ لأنّها صُنعتْ خصّيصاً له، وجاءت بتخليق خاصّ أيضاً ليستأنسها ويُسخّرها، فهي لمْ تُنشأ ضمن النشوءات الطبيعيّة بل بتدخّل ربّاني خاصّ، بإنزال شفرتها وتخليق الآلاف منها إدّاك مع البشر بنفس الطريقة، بل الآية تُخبر أنّ تخليقها تأخّر حتّى تزامن مع انتقال تكاثر البشريّة إلى مرحلة التخليق الإخصابيّ في بطون الأمّهات البشريّات (**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا –وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ– يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثلاثٍ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّى تُصْرَفُونَ**)(الزمر:6). فمع تجاوز ما يقوله المفسِّرون الذين خلطوا بين الآيات وساووها ببعضها وأخرجوها عن موضوعها، وعجزوا أنْ يروا بين مفاصلها ارتباطاً فأعادوا تفكيكها لتناسب أذهانهم ويروِّضوا الآية ليستريحوا من معضلتها. فالآية واضحة، لا تحكي لا عن آدم ولا حوّاء، ولا بإنزال خرافٍ من السماء، بل تدلُّنا على أصولنا البشريّة منذ صار البشر ينتجون أنفسهم، وأصول الأنعام التي سُخِّرتْ

لنا وبها عاشتْ البشريّة ولولاها لهلكنا منذ البداية، فأصــولنا كخلــق حيوانيّ (بيولوجي متحرّك) جاء من خلايا أولى تحمل الشفرة الأولى (DNA)، "**ثمّ**" بعد دهور وفي ظلّ ظروف مناسبة وتطوّرات **(جعــل منها زوجها)** هو نُسخة أخرى من الــــ DNA الأصــل، انقــسمت لتكوين زوج آخر من الخلايا وهكذا استمرّ بهذا الانقسام التخليق كمـــا يحدث في بطن الأمّ لذلك تركها سبحانه إيجازاً، وقد فصّلها ســبحانه في النساء-1 بولادة البشر البالغين، وأنزل ســبحانه (مــن مــصدر القرار في الأرض حيث الجنّة، والتدبير وتقريــر المــصائر) أنــزل أصول الأنعام الثمانية، وما دام الموضوع عن الأصول بأنّها الــشفرة الجينيّة، فأصول الأنعام المُنزلة هي خلاياها الأولى الحاوية شــفرتها الجينيّة، لتخليقها بهذه الكيفيّة المقدّرة بروعة والمناســبة لنـــا غـــذاءً وشراباً ولباساً ومركباً، لتتخلّق بداياتُها كما تكوّنا نحنُ لكـــنْ بـــصورةٍ جاهزة ومُعجّلة، متزامناً ذلك مع مرحلة التكاثر البشري بين الرجـــال والنساء، التي انتقلتْ بالولادات البشريّة إلى الطور الرحميّ.

سادساً – تطوّر السلالة البشرية:

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَــخَ

فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)(السجدة : 7 – 9). والعجيب في هذه الآية أنّها أعجزت المفسّرين لانحباسهم في الكمّاشة التوراتية، فمع بداهة أنّ "**ثُمّ**" تُفيد الترتيب والتراخي واتّفاقهم على ذلك، إلاّ أنّ تصوّرهم عن "آدم" أنّه "جُبِلَ" من طين كالتمثال، ثمّ سوّته يدُ الإله ونفخ فيه من روحه، حيّرهم في الآية الوُسطى (**ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ ..**): كيف جاء النسل من التمثال الطينيّ البدئيّ وتكوّنت لذلك التمثال سلالة من مائه المهين "المنيّ"، ثمّ بعدها –كما ينصّ سبحانه– قدْ سوّاه ونفخ فيه من روحه؟! كيف أنّ تمثالاً من الطين الأجوف غير المستوي، بعد مدّة أحقاب تخرج من منيّه سلالة ونسلٌ من البشر، ثمّ –ولاحظ "ثُم"– يسوّيه الله وينفخ فيه من روحه ليحيا؟ عجيبٌ ها؟ بل أعجب منه العقل الذي يُصدّق هذا وتنطلي عليه تلك الأمور. فهم بين ثلاثة أمور: إمّا أنّ أصدق القائلين سبحانه أخطأ، وإمّا أنّ معتقدهم التوراتي عن آدم هو المخطئ، وإمّا أنّ "**ثُم**" العربيّة لا تفيد في اللّسان العربيّ ما تُفيده من التعقيب والمُهلة.

طبْعاً الثالثة أهون الشرور، وهذا ما تبنّاه البعض، أمّا ابنُ هشام فلمْ يقبلْ هذا، بل أجاب بأمرٍ عجيب آخر أنّ الآية

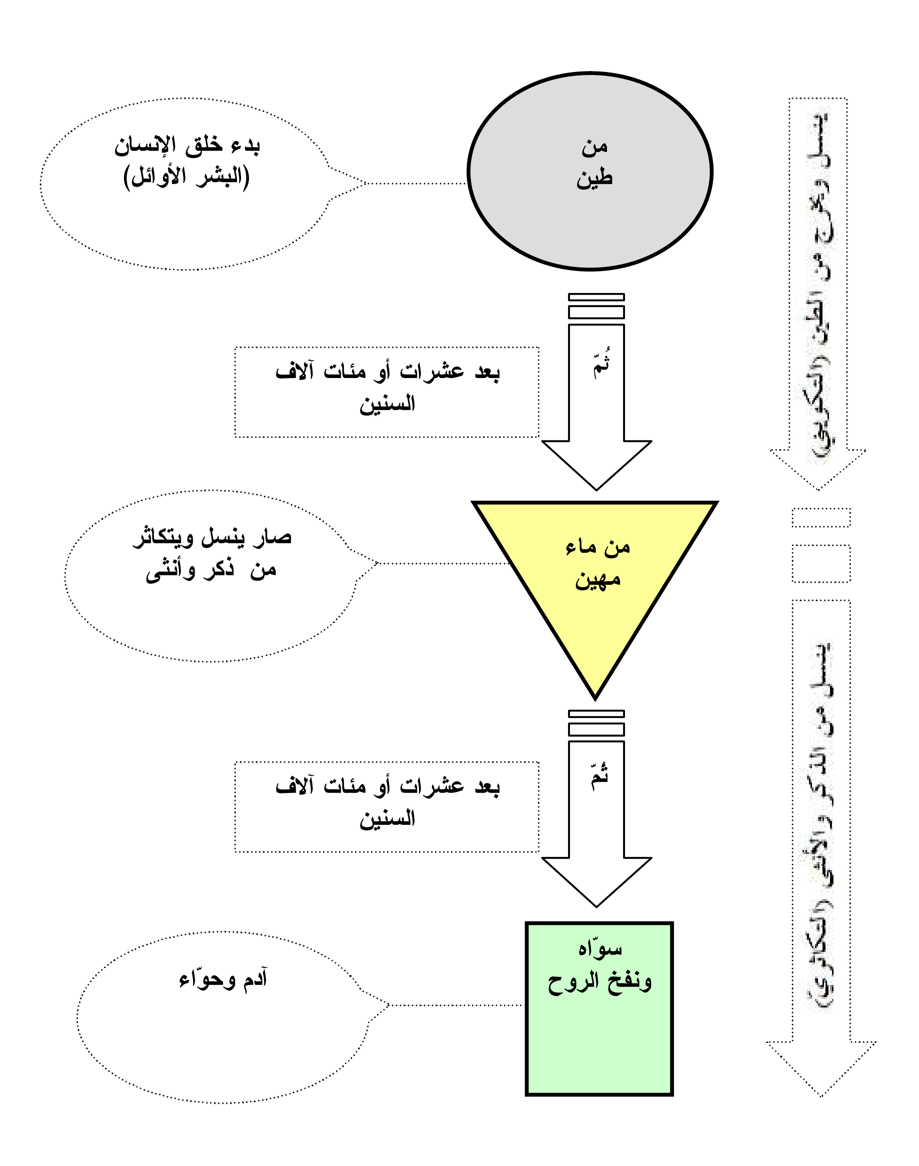
الثالثة هي عطف على الآية الأولى لا على الثانية! أي أنّه أعاد ترتيب الآية هكذا (بدأ خلق الإنسان من طين، ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه، ثمّ جعل نسله من سلالة من ماء مهين)!! والمصيبة العظمى أنّ بعض المفسّرين أو الكُتّاب، يُدافعون بحرارة عن مثل هذا، وهم يُدافعون لا عن القرآن بل عن اعتقادهم المُقلَّد، ثمّ يدمغون كلامهم بالختام الملكيّ هكذا: (وهذا معروف أو شائع في القرآن وفي اللغة العربيّة)، فنقول: لا هو ليس بمعروف ولا بشائع لا في القرآن ولا في اللّغة!!

لكنّ الحقيقة المؤسفة بل والمُخجلة أنّ كلّ تلك التخريجات إنّما أفادتْ أمراً واحداً فقط؛ هو نفسه الذي هربوا منه جميعُهم وتحاشوْه تنزيهاً لله تعالى، هو أنّ الله عزّ وجلّ فعلاً قدْ أخطأ باستخدامه "**ثُمّ**"، أو قدْ أخطأ في ترتيب آياته سهواً! سبحانه وتعالى عمّا يصفون.

عموماً، المتأمّل المتجرّد يستطيع أنْ يُلاحظ بوضوح وإيجاز: أنّ بداية خلق الإنسان بدأت بمخلوقات تولّدت من الطين، ثمّ بعد مدّة صارت تتناسل فكوّنت سلالات بالتكاثر الزوجي (من ماء مهين)، ثمّ تمّت تسوية المخلوق هذا (أيْ أحدهم) الذي يُراد له أن يصير إنساناً نهائياً بالنفخ فيه من

الرّوح الإنسانية وإمداده بالمدارك المركّزة لـــه ولأجيـــال ذريّته. لاحظ (الشكل–1) التالي:

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَـــخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)(السجدة: 7 – 9).


من
طين
بدء خلق الإنسان
(البشر الأوائل)
يَنسل ويخرج من الطين (التكويني)
ثُمّ
بعد عشرات أو مئات آلاف
السنين
من ماء
مهين
صار ينسل ويتكاثر
من ذكر وأنثى
ثّم
بعد عشرات أو مئات آلاف
السنين
ينسل من الذكر والأنثى (التكاثري)
سوّاه
ونفخ الروح
آدم وحوّاء

(الشكل-1)

أمّا في بسطها وتفصيلها فنلحظ التالي:

1- الله أحسنَ كلّ شيء خلَقه، فهناك مسيرة في إحسان كلّ خلق، ولها بداية، ثمّ تطوّر، ثمّ تسوية.

2- خلْق الإنسان حتّى صار حسناً مرّ بمراحل، كما بيّن نوح (ع) **(مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً* وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً)**(نوح:13،14)، وهو – نوح (ع)- يُذكّرهم بفضل ربّهم أنّه أوصلهم إلى أحسن طوْر، الذي هو أحسن تقويم، فما هي هذه الأطوار التي امتدّت لعشرات أو مئات الآلاف أو ملايين من السنين حسب الآيات أعلاه؟

الأولى: بدْء خلق البشر (البويضات الطينيّة الأولى) = "**بدأ خلق الإنسان من طين**" = "**الخلق**".

الثانية: تحسين خلْق البشر (مسيرة عمليّات التسوية في نسْل السلالة) = "**ثمّ جعل نسله من سلالة من ماءٍ مهين، ثمّ سوّاه**".

الثالثة: إحسان خلْق البشر بتطويره لإنسان (إتمام التسوية –التعديل- ونفخ الروح) = "**ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحه**" = "نهاية التسوية".

الرابعة: التوالد الإنسانيّ، المخاطبون من الله بوجوب الشكر أصحاب السمع والأبصار والأفئدة = "**وجعل لكم السمع** ..".

فما هي الاستفادات من هذا التسلسل العجيب للآيات؟

أوّلاً : لاحظ الكلام عن الإنسان في مراحله، فحين كان طينا هو ليس إنساناً، وحين كان سلالة بشريّة ليس إنساناً، فهذه مراحل تكوينه، كما نقول نخلق الطاقة الكهربائية بدءاً من تيار الماء، بوضع توربينات على مجاريه القويّة، ثمّ حصر الحركة المتولّدة ضمن مجال مغناطيسي لتتولّد شحنات، نسوقها عبر أسلاك مكوّنةً الكهرباء، فالكهرباء ليست الماء بل بدايتها هناك، وهي ليست حركة التوربينات، بل هي آخر ما ينتج من تلك البدايات، لذلك قال تعالى "**وبدأ خلق الإنسان**".

ثانياً : الطين هو الطين، أي مزيج التراب مع الماء، ومرّت عليه ظروف ملايين السنين حتّى صار قابلاً لأن يكون مادّة للحياة باحتوائه على الأحماض وغيرها، وممّا أخصب الطين ليكون قابلاً لإيلاد الكائن المعقّد الإنسان فيه، هو المخلوقات التي وُجِدتْ قبله مِن

الكائنات المجهريّة مروراً بالعضويات واللاعضويات الصغيرة إلى النباتات والحيوانات، هذه هي البيئة الأولى التي تشكّل فيها بداية المخلوق البشريّ الذي سيغدو بعد أحقابٍ إنساناً، فتولّد أوّلاً مِن الطين كائناً بشريّاً بالغاً يدرج كما الحيوانات، المخلوق الذي "**لمْ يركض في رحم**" حاله ككلّ المخلوقات المنبثقة المنبثة الأولى، والتي عبّرت عنه أساطير سومر وبابل **(لم يصبها ألم الولادة)**، وتوضّحها آياتٌ قرآنية أخرى.

ثالثا : ذلك الكائن البشريّ الخارج من تفاعلات الطين (موادّ الماء ومركبّات التراب وعناصر الحياة)، ليس فرداً، وليس جنساً واحداً، بل هو مجموعة ذكور وإناث، بدليل أنّه انتقل غرائزياً بعد أحقاب إلى مرحلة تكاثره بواسطة التوالد للتخلّق من الماء المهين أيْ بالتزاوج الجنسيّ، لا بالتولّد والتخلّق من طين الأنهار وهي الحقبة التي استمرّت آماداً طويلة حتى انتهت شيئاً فشيئاً مع انتهاء الظرف البيئيّ والمناخي الخاصّ، ففي طوْر التزاوج انتقلت الصفات التخليقيّة لتُخبّأ في الماء المهين (السائل المنويّ).

و"السلالة" عربياً هي امتداد شيء من شيء في رفق وخفاء، فهي تصدق أوّلاً على تطوّر الطين (المـــادّة الحيّة) عبر سلالة "تسلسل زماني مديد جـــدّاً" يـــصل لمئات الملايين مـــن الـــسنين، أســـهم فـــي تطـــوّر خصائصه، كلّ الأحياء التي خرجت قبل البشر، فهو خلاصة الطين، أو "لبّ الطين" حسب السومريّين، فقد مرّ بسلاسل معقّدة من تغيّر الخـــصائص. وتـــصدق ثانياً في تكوّن الأحماض النوويّة، وسلاسل الـــدي.إنْ إيه، في الطين لإنتـــاج المخلـــوق البـــشريّ الأوّل. وتصدق ثالثاً على اتّصال الخليّتين الجنسيّتيْن الذكريّة والأنثويّة في الرّحم ليكوّنا "سلـــسلة" الـــدي.إنْ.إيـــه للمخلوق الجديد من الماء المهين هذه المرّة (ونلاحظ أنّ "سلسلة" هي مِن الفعـــل "ســـلّ ســـلالة" أيـــضاً). وتنطبق رابعاً على انقسام هـــذه الخليّـــة المخـــصّبة الأولى برفق وخفاء ونموّ وامتداد فـــي الـــرّحم فـــي سلسلة تطوّريّة حتّى تُشكّل المخلوق الجديد. وخامساً هو الامتداد التكاثريّ الخارجي فكلّ ذكـــر يُخـــصّب أنثى فيكوّنان مخلوقاً بشريّاً جديداً، وهكذا فـــي كـــلّ

مرّة، فيتكوّن للمخلوق جنسٌ وامتــدادٌ هــو الــسلالة البشريّة التي هي النسل.

سوى أنّ مفهوم "السلالة" يأخذ بُعْــداً عُلويــاً، علــى عكس مفهوم "النسل" الذي هو انحــداريّ، فــالطريق منّا إلى آدم يمرّ عبر سلالة (آباء)، بينما مِنْ آدم إلينا يمرّ عبر نسل (أبناء)، وقد بيّن ســبحانه أنّ النــسل (وهو التناسل والانحدار من جيل أعلى لجيل أســفل) صار يتمّ مِن السلالة التي بدورها جاءت مــنْ مــاء مهين، هو منيّ الذكور والإناث المخلوقين بدايةً مــن طين أرضيّ. **(ثمّ جعل نسله --> من ســلالة --> من ماء مهين** --> من البشر المخلوق **(بــدأ خلــق الإنسان) --> من طين)**، ومقلوبها الزمانيّ:

بدْء الخلْق طين ---> ذكور وإنــاث ---> مــاء مهين ---> سلالة بشريّــة ---> النسل البــشري ---> "**ثمّ سوّاه ونفخ فيه من روحــه**" أي ظهــور الإنسان.

ولماذا صار ينسل من سلالة؟ أيْ لماذا قال "سلالة"؟

هذا يُبيّن أنّ هناك سلالات، وأنّ ثمّة انتخاب طبيعيّ وربّاني، للسلالة التي سيخرج منها الإنسان (حسب الشكل-2 الآتيّ). كما يُبيّن أنّ ثمّة تسوية وتحسين تجري على قدم وساق في كلّ سلالة، فكلّ نسل أو عدّة أجيال منه، يصير سلالة، بمعنى حصول تطوّر في النسل، وهو المسمّى بتحسين النّسل، حتّى وصل إلى استواءٍ طبيعي مناسب ومقبول لاختيار الإنسان منه، فتمّ التدخّل الربّاني لإتمام التسوية عليه بتسريع بعضها وتعديل الآخر في الجنّة-المصنع التخليقيّ الأخير.

رابعاً: التسوية ونفخ الروح، فالتسوية أخذتْ طوراً مديداً في تحسين السلالة البشريّة حتّى انتصب بمقدارٍ مناسب، بتغيّر ظروف الأرض وجاذبيّتها، وصار قادراً على توظيف يديه في المصنوعات، وتطوير أصواتٍ خاصّة به كنظام تواصليّ، ونظام اجتماعيّ، حتّى اختير ليحصل على ذروة التسوية المناسبة لأعضائه وجوارحه، وهي مرحلة "إحسان خلْق الإنسان" حسب بداية النصّ **(الذي أحسن)**، بالتسوية النهائيّة بواسطة قوى التخليق من الملائكة الصاقّة، بالتعديل الجينيّ له

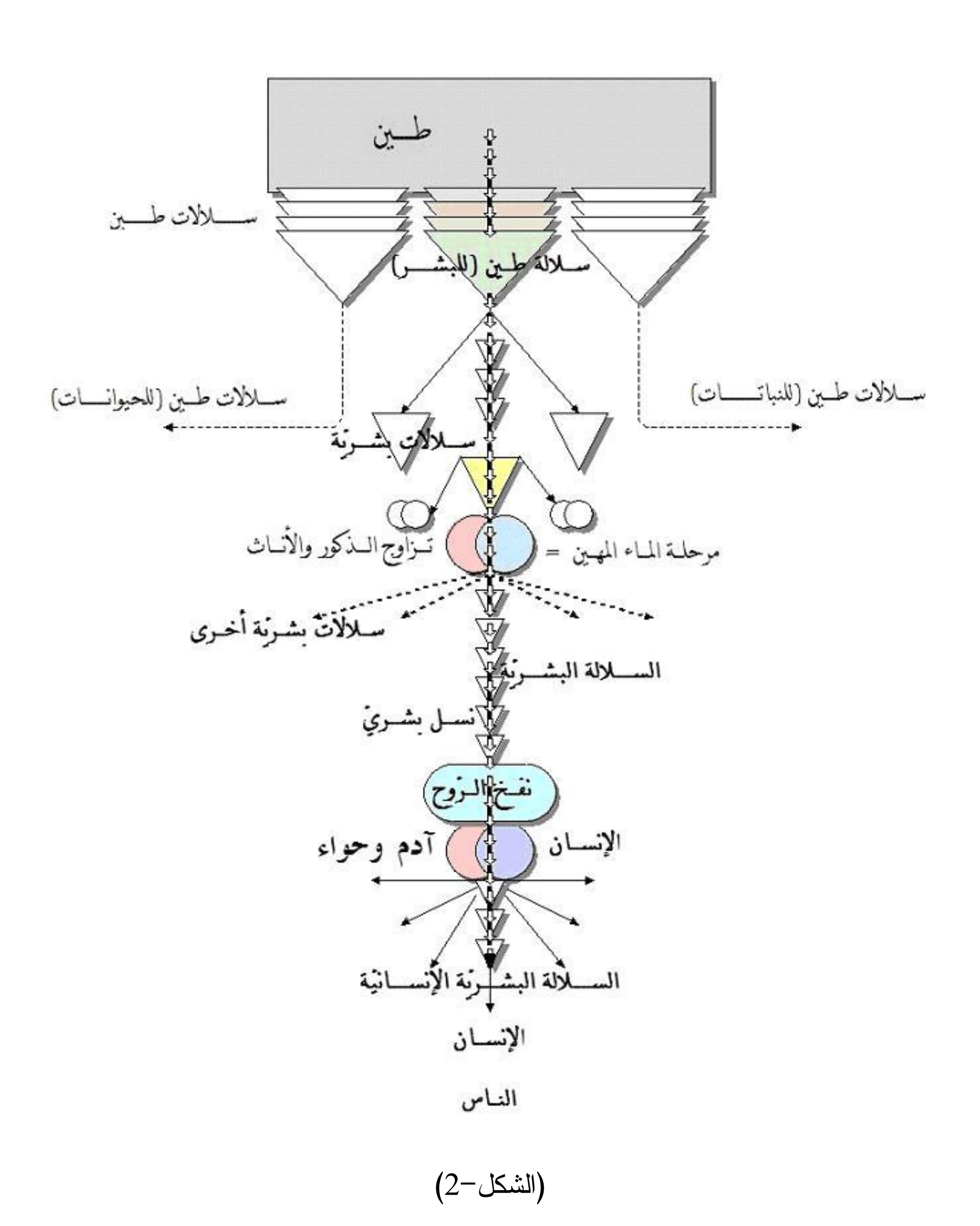
(لزوجيْن منه: آدم وحوّاء)، وإيتائه العقل المفكّر، ونفخ الروح الربّانيّة "روح الوعْي" فيه.

هذه المراحل الثلاث: "**الخلق**" البدئي من الطين، ثمّ تكاثر السلالة و"**تسويتها**" وتحسين نسلها بتغيّر الطبيعة الخارجيّة عبر قرون وأحقاب وتعلّمه من الطبيعة، ثمّ إنهاء التسوية "**بالتعديل**" بتدخّل القوى الربّانيّة لإخراج الإنسان الكامل الذي في أحسن تقويم من جميع الجهات، مِنْ أعلى تطوّر لنسل تلك السلالة المستوية وأقصى ما استطاعت بلوغه. هذه المراحل عبّر عنها القرآن في سورة الانفطار (**يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ* الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ* فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ**)(الانفطار:6-8)، وأنّه تغيّرتْ صورته مِنْ طور إلى طور، منذ أنبتهم من الأرض نباتا كما قال نوح (ع)، ففي كلّ طوْر يركب صورةً غير التي سبقها، حتّى عدله فجعله إنساناً واعياً مختاراً يُخاطب بالإيمان أو بالكفر.

خامساً: نلاحظ أنّ الضمائر قبل النفخ من الروح، كلّها مفردة تتكلّم عن البشر البدائي منذ بدايته إلى مرحلة تخليق

الإنسان منه، فتتكلّم عنه كواحد، كجنس، لا يهمّ مَـــنْ هذا ومن ذاك، مع أنّ له نسلاً، وصار ســـلالة (بـــل سلالات) وجُموعاً، لكنّه يُذكر كواحد، وكأنّه كلّه مِن أجل أمرٍ واحد، كذكور النحل التي تخرج لتخـــصيب الملكة فالمطلوب منها واحـــدٌ فقـــط، وكالحيوانـــات المنَويّة المليونيّة التي تتسارع لتخصيب البويضة، ما المطلوب إلاّ واحد، والباقيّ ينتهي دورهم ويتلاشون بعد التخصيب، فانبثاق الإنسان (آدم) يُنهـــي حقبـــة أولئك الذين لا تمايز بينهم ولا عنوان، ليأتي بعـــدها خطاب التميّز بصيغة الجمع للأناس الواعين الألوهة **(وجعل لكم السَّمْعَ .. تشكرون).**

سادساً: كلّ النّاس هم من بني آدم (من ذريّـــة آدم الإنـــسان الأوّل)، جُعِلَ لهم سمع وأبصار وأفئدة (أدوات العلـــم والإدراك، أدوات العقل فوق الغريزيّ)، ولـــمْ يقـــل سبحانه أنّه سوّاهم ونفخ فيهم من روحه، فهذا يدلّ أنّ كلّ الناس بعد آدم يرثون بـــالولادة تلـــك "التـــسوية النهائيّة" (التعديل الجيني) مـــن آدم الأوّل، ويرثـــون جزئية الروح الإلهيّة المنفوخة فيـــه، تلقائيـــاً. والآن لنرسم الشكل الكلّي للعمليّة:



(الشكل-2)

الرسم أعلاه بيان مُطابق للنصّين القرآنيّين التاليين:

(الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ)(السجدة : 7 – 9).

(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ * ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَاماً فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْماً ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقاً آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ لَمَيِّتُونَ * ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ تُبْعَثُونَ)(المؤمنون: 12 – 16).

فالنصّان يوضّحان، وكما الرّسم أيضاً، ثلاث مراحل:

- مرحلة من الطين إلى الماء المهين
- مرحلة من الماء المهين إلى نفخ الروح
- مرحلة ما بعد نفخ الرّوح

أمّا النصّ الثاني منهما بالخصوص، فمع أنّه يشرح المراحل الثلاث أيضاً، فإنّه لوحده أيضاً، ومن دون الآيتين 15 و16، يصف المرحلة الأولى لوحدها أيضاً، على أنْ يكون القرار المكين فيها هو بيوض طينيّة في الأرض، والنطفة هي بذرة الخلايا البشريّة الأولى، ذلك لأنّ الإنشاء في الأرض كالإنشاء في الأرحام تماماً، مع فارق أنّ

الخارج من رحم الأرض مخلوقٌ بالغ، والخارج من رحم الأنثى طفلٌ.

فالآية (**الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَا تَشْكُرُونَ**)(السجدة : 7 – 9)، جواب لسؤال علميّ: هذا الإنسان الموجود أمامَنا اليوم كيف وُجِد؟ الآية تُجيب: أنّ هذا الإنسان (كجنس) الذي هو أنتم:

1- بدأ خلقه من الطين (وهو الأجيال البشريّة الأولى والسلالات اللاواعيّة)، وهو لمْ يكن بعد إنساناً.

2- ثمّ في مراحل لاحقة، قام يتزاوج، وصار ينسل نفسه من منيّ ذكر وأنثى تلك السلالات.

3- ثمّ انتُخِب زوجيْن من جنسِه (الذكر والأنثى) ليسوّي "الإنسان" الآن فقط، ونَفخ فيه من روحه.

4- ليظهر بعدها الجنس الإنساني برمّته الذي لأفراده السمع والأبصار والأفئدة والمعاني الباطنة كالشكر والكُفُور.

وننوِّه أنّ الإنسان، الذي يقرأ القرآن تقليداً، وأسير الآراء، قد يجد غضاضة في مثل هذه الفكرة، فيقوم سراعاً كما أخبر القرآن من شأن الإنسان بالمُجادلة بالباطل ليُدحض به الحـــقّ، ولنـــسْف بنائيّـــة النظام القرآنيّ وضمائره، على حسْب مدرسة التـــرادف والاعتبـــاط، فإذا كان عليّ (ع) وهو أعلمُ النّاس بالقرآن وجَد مَن يُجادلُه بـــالقرآن أيضاً وصيّر **(إنْ الحكمُ إلاّ لله)** بقانون الترادف واللانظام بمعنـــى (لا إمْرة إلاّ لله)، فلا غروَ أنْ يجد أيُّ أحدٍ مبتغاه منْ أيّ آية، لكنْ بشرْط اللّعب بآيات الله بأن يُشوِّه اللّسانيّة المبينة لتلك الآيات فلا يأبه كيـــف يُسقط رأيه على القرآن وكيف يُخلخل التركيب والمنطـــق والكلمـــات والأحرف، وبصراحةٍ تامّة لا يهمّه معرفةُ الحقيقة بمقدار مـــا يهمّـــه إثباتُ رأيه ودفع أيّ رأي مقابل.

فمن الآراء التي تُصرّ على الفرار عن الحقيقة، تلـــك التـــي تجعل موضوع الآية هو الإنسان عموماً، تتكوّن مادّته من الطين، ثـــمّ يصير نطفةً من ماءٍ مهين، ثمّ يُنفخ فيه الرّوح في الرّحم! هكذا، فـــلا يهمّ ترتيب القرآن ولا سرّ مفرداته ولا ضمائره ولا سياقها المـــرتبط بالتدبير الألفي في ليلة تقدير وجود الإنسان الأوّل، ولا توقفت لتـــسأل ما فائدة وجود كلمة "نسْلَه" في قوله **(ثمّ جعلَ نـــسْلَه)** وكـــان ينبغـــي التعبير "ثمّ جعله – هو– سلالةً من ماء مهين" لا "جعلَ نسْلَه"، وحتّى هذه لا تمشي بل المفروض "ثُمّ جعله <u>نُطفة</u> من ماء مهين" لا "جعلـــه

سُلالةً"، كما قال تعالى في سورة المؤمنون: **(وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ* ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ)**(12-13)، وإلى ما هنالك مِن أغاليط عديدة؟!

ويحدونا الأمرُ بالإشادة بتعليقٍ هو خيرُ ما وصل إليه مُفسِّر (وأما القولُ بانتهاء النسل إلى فرديْن من الإنسان الكامل بالكمال الفكريّ من طريق التولّد (أيْ آدم وحوّاء)، ثمّ -أي صعوداً- انشعابهما وانفصالهما بالتطوّر من نوع آخر من الإنسان غير الكامل بالكمال الفكريّ (أيْ البشر اللاواعي)، ثم انقراض الأصل وبقاء الفرع المتولّد منهما على قاعدة تنازع البقاء وانتخاب الأصلح. فيدفعه قوله تعالى: **(إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ)**(آل عمران:59) على التقريب المتقدّم وما في معناه من الآيات)[1].

فهذا المفسِّر الكبير (ره)، لمْ يكن لديْه من إشكال إلاّ ظنُّه التعارض مع آية أخرى هي "**إنّ مثل عيسى**" التي سنتعرّض لها.

فالخلاصة: نفترض أنّه، وِفْقَ مخطّطٍ وتدبير ربّانيّ كوَّن شفرات أزواج مخلوقات اليابسة، وظهرتْ إلى الوجود بدْءًا في الطين الأوّل (الهيولى الأوّل) الذي أنتج أقلّ المخلوقات تعقيداً كالمجهريّات

♦ [1]- الطباطبائي، **الميزان**، مج16، ص258.

والنباتات، لمئات ملايين السنين، أسهمت بدورها الحيويّ في نقل الطين لحالة أخصب وأعقد ويحتوي على مركبّات عضوية أكثر، فتطوّر الطين ليُوجِد مستويات من الخلق أعقد كالحيوانات من أدناها شيئاً فشيئاً لأعلاها، وهكذا حسب دورات الحياة، وفي محاكاة قريبة للسلسلة الغذائيّة، كلّما انوجَد مخلوقٌ هيّأ بتواجده وموته عبر ملايين السنين، هيّأ الطين للانتقال إلى مستوى في الخلْق أعقد، حتّى تُوّج الغِنى الخصبيّ للطين، بإخراجه آخر المخلوقات وهم البشر الأوائل، الذين يبدو أنّهم خرجوا عقيمين أوّلاً، أو سريعي الانقراض بحيث لم يستطيعوا تكوين نسلٍ طبيعي يُعيد دورة حياتهم، ثُمّ بموتهم وتحلّلهم يخرج آخرون من رحم الأرض وهكذا، فيتطوّر الطين لإخراج جيل ثانٍ محسّنٍ عن الأوّل، واستمرّت هذه الحالة أيضاً مئات الآلاف من السنين وكانت أعمارهم قليلة، باعتبار الظرف القاسيّ المُحدق بهم، ولأنّهم يخرجون بالغين، حتّى نجحت الأجيال البشريّة على التزاوج لتنسل نفسها أو خرج جيل أخير محسَّن وقادر على التناسل، فانتقل التكاثر عندها إلى الأرحام، متزامناً مع انتهاء الظرف الطبيعيّ الذي هيّأ لإيلاد البشر من الأرض، فبدأت تخرج أجيال البشريّة من الأرحام بدلاً من الأرض، وبدأت عمليّات التحسين في السلالة جيلاً بعد جيل وراثياً، حتّى بلغ مرحلة تطوّر مناسب يسمح بانتخاب زوجين منه لنفخ الرّوح فيهما وتحويلهما إنسانيْن.

سابعًا – غرض النسل الإنسانيّ:

إنّ الجنس البشريّ القائم قبل آدم كان يتبع النظام الأموميّ، أيْ نظام الطبيعة (وحسب الفكر السومريّ والبابليّ يُدعى بالنظام الأموميّ العشتاريّ)، نظام التزاوج العشوائيّ والإخصاب لبقاء النوع، و"أموميّ" حيث لا وجود إلاّ لأمّ ترعى الصغار، والرجل ما هو إلاّ فحل للإخصاب كممالك الحيوان، وبخلْق الإنسان انتقل نظام الاجتماع إلى الأسرة (نظام "إيل" حسب المدوّنات القديمة) لتسود المعرفة –لدى الجنس المتميّز– بالإله وبالكون وبالخلائق، لدى الكائن الجديد كما بيّن ذلك سبحانه في قوله (**يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**)(الحجرات:13)، فالذكر والأنثى هنا هما بداية الموجود الإنساني لا البشريّ، أيْ آدم وحوّاء، منهما نسلتْ الشعوب والقبائل الإنسانية وكُرّم بنو آدم بوعي الإله.

هذه البداية القادحة تاريخياً، وغرضها الرئيس، أثبتها سبحانه في قوله:

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّاهَا حَمَلَتْ حَمْلاً خَفِيفاً فَمَرَّتْ بِهِ فَلَمَّا أَثْقَلَتْ دَعَوَا اللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ * أَيُشْرِكُونَ مَا لا يَخْلُقُ شَيْئاً وَهُمْ يُخْلَقُونَ)(الأعراف: 189ـ 191)، "**نفس واحدة**" هنا هي النفس الإنسانيّة الأولى، أيْ آدم، وليستْ الخليّة الحيويّة الأولى كالتي في (النساء:1، الأنعام: 98، الزمر:6)، كما بيّنا فيما سبق. وهذه الآيات تبيّن الغرض من خلق آدم وحوّاء، وتكوين نظام الأبويّة، أي نظام الأسرة التي فيها أب وأمّ يرعون أبناءً تُسمّى الذرّية الإنسانيّة، يُبسَط لها في الجسم والعلم، لتكون ذرّية ربّانيّة تستعمر الأرض بالخير، تعرف ربّها وخالقها وغاية تخليقها الإنسانيّ، لا نسلاً حيوانيّاً غرائزيّاً ماديّاً بلا روح ربّانيّة فيه، فلو أراد سبحانه ذلك لأبقى الشريعة الأموميّة فقط ولمْ يرفع البشر من حضيضهم إلى الإنسانية بالعقل والروح والتخليق الجينيّ المطوّر المتميّز.

فخلقَنا سبحانه بهذه المواصفات، منْ نفس واحدة مخلّقة بهذه الفرادة لتنتهض لدورها (الذكَر الآدميّ)، وجعل منْ نفس النسخة تماماً زوجها (الأنثى الآدميّة "حوّاء")، فصارت النفس الإنسانية (ذكراً

وأنثى)، لتنبثق الإنسانية وتنسل منهما، ويكون دائماً أبٌ وأمّ، أيْ إنسانان معاً، ليقوما شراكةً بتعاهد المشروع الإنسانيّ الإلهيّ المتولّد، جُعلا من نفس الشفرة وذات المكوّن ليسكن الزوج إلى زوجه، الواحد إلى الآخر، من جميع الجهات فكرياً ونفسياً وروحيّاً فيقع الانسجام، لتأتي الذرّية صالحةً في هذا الجوّ الطيّب المنبت المُتناغم السويّ.

فإذا كان التخليق الأوّل (لآدم وحوّاء) تمّ ربّانياً، فقد نُقل التخليق الإنساني بعدئذٍ إلى الأبوين بتغشّي الذكر الأنثى بداية ثمّ بممارسة التربية ضمن الوصايا الربّانية المعهودة من جهة ثانية.

ولكنّ "الإنسان الظلوم لجنسه الجهول بربّه" خلال مسيرته قدْ أخلّ بالميزان، فكلّ ثنائيّ زوجيّ، تراهما يستحضرانِ الله ربّهما في قلبهما في أحلك الظروف، ظرف إثقال الحمْل والتوجّس، ويدعوان بالذرّية الصالحة جسماً (بيولوجياً)، لكنّهما بعدئذٍ حين التربية يورّثان أبناءهما المولودين معافين، يورّثانهما العلمَ الخطأ والشرك والسفاسف والبهائميّة، و"الإنسان" كُرّم وخُلق معلّما ربّانياً ليعلّم أجياله وذراريه الصواب لا الخطأ، والحقّ لا الباطل، والخير لا الشرّ، فقام الإنسان يعمل العكس، حتّى صار أكثر الأخطاء والخطايا الموجودة المنتشرة، يُعزى أصلها إلى التوارث سواءً من تقليد الآباء: **(قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ)**(الشعراء:74)، أو إهمالاً من الآباء أوانَ التعليم فتحتجّ الأبناء بعدئذٍ: **(مَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي آبَائِنَا الْأَوَّلِينَ)**(المؤمنون: 24)،

فتجنح أفعال الأبوين بالذريّة بعيداً عن الفطــرة والاتّجــاه للخــالق. فالأسرة التي جعلها الله حصْناً عن البهائميّة ومدرجاً للوعي ومغرســاً للقيم، انقلبت وصارت عشّاً لبذر المادّية ووكْراً للشرك وموبئاً لــسوء التربية والسلوك.

ودليلنا أنّ الله يحكي عن المسيرة الإنسانيّة جميعها في شــقّها الأسريّ (كلّ أب وأمّ) لا آدم وحوّاء بالخصوص، قولــه فــي ذيــل الآية**(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ)** (الأعراف:190)، **(فتعالى الله عمّا يُــشركون)** ولــيس (عمّــا يُشركان).

ختام الفصل:

رأينا كيف أنّ الآيات تصرح بدقتها أنّ الأصل الذي خلق الله منه البشر هو الطين الذي هو مزيج الماء والتراب وعناصره، ويقرّر العلم الحديث أنّ الحياة ظهرت على هذه الأرض أوّل ما ظهرت على ضفاف المسطحات المائية حيث يتكون بجوارها طمي الطــين الــذي ينشأ منه الزبد والحمأ المسنون على مرّ السنين، فنبتت –فــي ذلــك الظرف وتلك البيئة– أوّلاً الكائنات المجهريّة البسيطة، ثمّ تعقّد الخلق فجاءت الطحالب، فالنبات فالحيوان فالبشر، وأنّ هــذا التطــوّر فــي

حالات الطين وأشكاله السالفة الذكر والظروف حدثت عبــر مئــات الملايين من السنين حتى أثمرت شجرتها الأولى، وكان أعقد و أكمل وآخِر ثمره من ثمارها وختامها هو البشر، الذي منه بعد مــدّة صُــنع الإنسان الخالد بروحه المتطوّر إلى وعي الألوهة (**يَا أَيُّهَــا الْإِنْــسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ**)(الانشقاق:6).

ومع هذا الكمّ المتواتر والهائل من آيات الحقّ التي ترسم كلّ واحدةٍ منها منفردة، ثُمّ مع بعضها، خارطة الخلق البشريّ ثُمّ الآدميّ، إلاّ أنّه من المؤسف، أنّ البعض لا يهمّه إلاّ القدسيّات الزائفــة لغيــر كتاب الله، وقد ردّ أحدُ المفكّرين على مقالة مصطفى محمود في كتابه "التفسير العصري للقرآن – ص (54)" حين استفزّه تعليقُه على قولــه تعالى: (**ولقد خلقْناكم ثم صوّرناكم**) بقول: أنّ آدم مرّ بمراحل التخليق والتصوير والتسوية واستغرقت ملايين السنين، ردّ عليه: (إنّ يجهــل العربيّة فوقع في المحظور)، ثُمّ عقّب: (لو تأمل مصطفى محمود في قوله تعالى: (**إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثمّ قال له كن فيكون**)، فهلْ خلق عيسى (ع) في رحم أمه استغرق ملايــين السنين؟ ومرّ بــأطوار حيوانيــة مفترســة كمــا زعــم مــصطفى محمود؟)!!!. أمّا تعليقنا نحن فــ: لا حــول ولا قــوّة إلاّ بــالله، والله المُستعان.

ونتساءل: أيّ محظور هذا وأينه، حين يُعتَق القرآن من سطوة تأثير إسرائيليّات (يهوديّات) التوراة؟ وأيّ محظور من اتّفاق الحقـائق العلميّة مع القرآن، ولسنا نعني تفسيره بهـا وبالنّظريّـات المتقلّبـة، فالقرآن يُفسّر بعضَه ببعضِه ومُستغنٍ بنفسه، حتّى عن جهابذة المفسّرين؟ وهل آراؤنا المفسِّرة للقرآن والمخالِفة للعلم، هي القرآن نفسُه ليكون الخروج عنها خروجاً إلى المحظور؟ متى سيتفعّل هذا القرآن إنْ بقي مطموراً هكذا تحت جهْل أو قُصور حامليه؟ ما هذه المشاجب التي تُرفَع على مَن خالف رأياً جامداً غير قرآنيّ وغير مقدّس، بأنّه لا يفهم العربيّة أو الدّين؟ فهل العربيّة سرّ كيميائيّ نادر أم أنّ العرب لا يعرفون لُغتهم؟ ثُمّ هل القياس السابق المُغالِط المُحتَجُّ به يشي عنْ فهمٍ للعربيّة حقّاً؟ هل يَفهم (ذلك القياس) سرّ التمثيل ("**كمَثَلِ**") ومغزاه في العربيّة، وماهيّة الزاوية المُمثَّل بها؟ وأين السياق القرآنيّ لنرى مَنْ وقَع في المحظور وفسّر القرآن برأيه وصادم القرآن بعضه ببعض ليُوحي بتناقضه وهو لا يشعر، فقط للتشبّث بالأطلال القديمة؟

وطرْداً لهذا القياس، وعلى منواله نمضي حسب الفهم التقليدي التوراتيّ الشائع فينا لنقول: آدم جُبِل من الطين كالتمثال، وأُلقي على باب الجنّة حتّى يجفّ 40 سنة، فكيف بالمثْل عجن الله تمثال عيسى؟ وأين ألقاه 40 سنة ليجفّ ويدخل الشيطان فيه ويخرج؟! ليكون خلْق

عيسى لدى الله كخلق آدم! ثمّ كيف زُرِع هذا التمثال الطينيّ في مريم بعد ذلك جنيناً؟!

وأين المثليّة، في أنّ عيسى قد جاء الملَكُ إلى أمّه وتمثّل لها بشراً تامّاً ونفخ فيها روح الإنسان باعتبار المولود سيجيء من أبٍ غير بشريّ ليس مِنْ نسلِ آدم، فكيف تصله نسمة الرّوح التي أُوْدِعت في آدم وانتقلت في أصلاب (جينات) الذرّيّة؟ عموماً، فادّعاء المثليّة يسأل: أين ذاك الملَكُ الذي زار أمّ آدم وتمثّل لها بشراً ونفخ فيها من روحه، بدل أنْ ينفخوا في آدم مباشرة؟!

لاحظ أنّ قياسنا المعْوجّ هو نفسه القياس ذاك، وهو مُزرٍ في الحقيقة ومُخجِل، ولا يُفيد علْماً بمقدار ما يُفيدنا خصاماً ولجاجاً وابتعاداً عن بريق القرآن وروْحنته في حروب لا أخويّة وتسفيلات كلاميّة!

أمّا عن مغزى التمثيل، وصياغة **(مثَلُ كذا كمثِلِ كذا)** القرآنيّة والعربيّة، فلقياسنا المعوجّ أنْ يُواصل بِغَصّته الاحتجاج: أنّ الله عزّ وجلّ يقول أيضاً **(مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ)**(الجمعة:5) فطبقاً لذاك القياس نستنتج: الحمار له أذنان طويلتان وذيل، فهل للتوراتيّين أيضاً؟! ويقول: **(مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنْبَتَتْ...)**(البقرة:261) فهل أولئك المُحسنون طُمِروا (كالحبّة) في الأرض وسُقوا ماءً وطلع من فوق رؤوسهم

الحشيش والسنابل؟! ويقول: **(فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ)**(الأعراف: 176) فهل الإنسان المذكور كان يدلع لسانه ويلهث وينبح كالكلب؟! و**(مَثَلُ الَّذِينَ ... كَمَثَلِ الْعَنْكَبُوتِ)**(العنكبوت:41) فهل يُخرجون خيوطاً من مؤخّراتهم أو يُعشّشون في زوايا الغُرَف، ولهم ثمان أرجل، وأنثاهم أضخم من ذكَرهم؟! تُرَّهاتٌ كثيرةٌ يستطيع المرء أنْ يحشدَها، وأمثلتنا الآنفة واحتجاجاتنا كلّها سخيفة، بل سوْقُها نعدّه استهزاءً بآيات الله، ونعتذر لله العليّ ولكتابه العزيز وللقارئ المؤمن والعاقل منها، لكنّنا نرمي لحاجةٍ؛ أنّ قائمة آيات القرآن قاطبةً تنفي هذا القياس الغريب عن العربيّة والبعيد من المنطق، لكنْ جدالاتنا غير المثمرة تقودنا للأسف لمثل هذا التلاعب والاستخفاف بآيات القرآن والتراشق بها، في حروب غير مقدّسة عن آرائنا بتمزيق المصاحف ورفعها في وجه الخصم.

إنّ غاية جميع المتجادلين - هداهم الله وإيّانا- لو سلمت النوايا وأحسنّا الظنّ، هو الدفاع عن قرآننا الأقدس وتثويره، لا غير، من أجل كينونتنا ورفعتنا، إذن؛ فلنُفكّر في الآيات ولْنفهمها كما هي مجرّدين من آرائنا وأوهامنا، فلا نأتي بها ونحن نلوي لسانها لتشهد على ما نقول شهادة زور، ونضع في فمها ما نُريد قوله، ونُسبغ عليها لبوسنا، أيْ عارٌ علينا أنْ نُنطّق القرآن بهوانا وعصبيّتنا وردود أفعالنا؟!

والآن، لو عُدنا إلى الآية بصفاء فكْرٍ وزكاةِ نفْس لنقرأها في سياقها كما هي (**إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)(آل عمران:59)، فقد جاءت هذه تتويجاً لقصّة عيسى (ع) المُؤلَّه لدى طائفة نصارى نجران إدّاك وللآن لدى البعض، في معرض إقناعهم وكشف اعوجاجهم، فبيّنت أنّ عيسى (ع) لا يخرج عن طرق الخلْق البشريّة، له جسمٌ ترابيّ، مُستكِنٌ في بويضة مريم التي فُعّلتْ وخُصّبت بالملَكِ التدبيريّ المُتمثّل "**بشراً**"، ثمّ هو روحٌ منفوخٌ فيها مِن المَلَك، باعتباره (ع) لمْ يأتِ من السلالة الذكوريّة لآدم فلمْ يرث نسمة الرّوح العاقلة، فحصوله على الرّوح لا بالوراثة كالآدميّين بل كما حصل عليها آدم مباشرة، فتشابهه مع آدم في هذه الخصيصة بالخصوص، لا أكثر، بدليل أنّ نفس القصّة يسردها سبحانه في سورة مريم ويُعقّب بعدها (**ذَلِكَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ قَوْلَ الْحَقِّ الَّذِي فِيهِ يَمْتَرُونَ**)(مريم:34)، فهو (ع) بشَرٌ به روح تماماً كآدم وبنيه من بعده وكلّ الأنبياء: (**قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ**)(إبراهيم:11)، لمْ يخرج (ع) عن هذا المنوال السائد مُنذ آدم ولا عن هذا النّظام قيْد شعرة، والاستنساخ في يومنا أيضاً لن يخرج عن هذه الطريقة. والذي (**خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ**)(آل عمران:59) في الآية هو آدم بالخصوص، لذلك لمْ يقُلْ (خلقهما مِنْ تُراب) ليعمّ عيسى وآدم. أمّا عيسى لو أردنا أنْ نضع له آية نزعمها

(فخُلق من نُطفة مستوية وقال له كُنْ فيكون) التي هي نفسها نفخ روحٍ فيه.

فكيف خُلق آدم من تراب (ثُمّ) قال له كُنْ؟ هذا ما أوضحته سائر آيات القرآن الأخرى، بل لو لمْ يكنْ لدينا إلاّ هذه الآية لأفادتْ الأمرَ نفسه: المخلوق مِن ترابٍ جاء أوّلاً، وهو ليس تمثالاً جامداً، وإلاّ لقال "صوّره من تراب/جبله من تراب/شكّله من تراب" أو "خلق من الطين كهيئة آدم" كما فعل عيسى (ع) مع الطير. بل الآية صريحة أنّه "**خلَقه مِنْ تراب**"، أيْ كان كائناً حيّاً مخلوقاً، وهو إذّاك غير تراب، فمعنى "**خلَق**" هو هذا: نقْل الشيء إلى طوْرٍ آخر غير الطوْر السابق، فإذا قال القرآن أنّ الله سبحانه: (خلق السماء) (خلق الأرض) (خلق بشراً) (خلق الذكر والأنثى) (خلق الأنعام)، وكان المخلوق شيئاً مادّياً، فيعني أنّ أمامنا سماء، وأرض، وبشر حيّ، وذكر وأنثى، وأنعام، وإذا قال (**خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ**)(النور:45)، فلا يُمكننا أنْ نتصوّر سوى وجود دوّابٍّ أمامنا تَدُبّ أحياءً، لا تماثيل مائيّة أو جليديّة منحوتة على شكلِ دوابّ، وهذا بالتمام ما بيّنته حتّى أقوالُ الكافرين (**أَإِذَا كُنَّا تُرَاباً أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ**)(الرعد:5)، فالخلْق الثاني أو الجديد الذي مِن تراب، هو نفسُه الخلق الأوّل البشريّ مِن تراب، فـ "**خلق مِن تراب**" هو كائن بشريّ حيّ يمشي، آدم قبل نفخ الرّوح "**خُلِق مِن تراب**" حيّاً، والنّاس بعد مبعثهم "**خُلقوا مِن تراب**"

أحياء. فـــ **(خلقه مِن ترابٍ ثمّ قال له كُن فيكون)**، **(ثُمّ)** بعـــد وجـــود ذلك المخلوق البشريّ الحيّ الذي أصله من تراب، قال له "**كن** – آدم – **فيكون**". فالآية لا تقول أكثر مِنْ أنّ عيسى لمْ يخرج عــن الخلــق الآدميّ، وأنّ آدم قبل أنْ يكون آدم الإنسان بـــنفخ الـــرّوح الإنـــسانيّة المميّزة الواعية فيه، أيْ قبْلَ أنْ يُسمَّى "آدم"، كان مخلوقاً آخر، خُلِقتْ بداياته مِن تراب – كما فصّل سبحانه في بقيّة آياته كقوله **(خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنتَشِرُونَ)**– **(ثُمّ) قال له كُنْ**، بعد مئات الآلاف من السنين، تدخّلت القوّة الإلهيّة الخلاّقــة وحوّلــتْ ذلــك المخلــوق المُتحدّر من مخلوقات النسل البشريّ الترابيّ، إلى آدم الإنسان بكلمــةٍ من عالَم "الأمر" هي "كُنْ" التي هي عمليّة نفخ الرّوح نفسه، الـــرّوح التي من "أمر الربّ": **(قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي)**(الإسراء:85).



تصوّر صحيح لإخراج البشر الأوائل من الأرض باليد الربّانية، وخاطئ إنْ قُصِد به آدم

الفصل الثالث

خلق البشر وآدم في تراث الآباء الأوّلين

تمهيد:

سنُعرض عن تفصيل ما قالته توراة الكهنة، باعتبار أنّنا قدّمنا في الموجز في بداية البحث ما يفي بالغرض، وباعتبار أنّ الحقيقة كما كانت شبه متجلّية في نصوص التوراة حتّى مع تحريفها كما أشار القرآن وكما أثبت كثيرٌ من الباحثين العرب بل وباحثين يهود أيضاً ليس آخرهم المؤرّخ الإسرائيليّ هرتزوغ، فإنّ هذا المصدر –التوراة– يضحى (مع مفرداته المحرّفة عن مواضعها، أو الفهم الخاطئ لعباراته) هو النشاز الوحيد في الميراث العربيّ حول مسيرة ثبات هذه المعرفة السامية منذ أوّل المدوّنات الدينية إلى آخرها (القرآن الكريم). لذا، فإنّا سنرجع إلى زمن أقدم حيث الحضارة العربية العمرانيّة الصحيحة في الرافدين ووادي النيل، وحيث التلويث نادر أو قليل، لا الحضارة المخترعة للتوراتيّين، التي لمْ تكن سوى عشائر مُتخلّفة متنافرة تسكن الخيام والمغاور والبرّيّة، وكانوا يحفرون الآبار بالعصيّ من أجل الماء، ويتقاتلون من أجل غنمة أو بئر ماء، ويغيرون على القوافل ويسرقون أموال النّاس، كما تقوله

التوراة نفسها، ثمّ انتحلت لها تراثاً، لتصوغ لها حضارةً في الهـواء، بعد ما سُمّي بالسبي البابليّ[1].

كما أنّنا لنْ نُحاوِل تثبيت التراث الأوّل (الأساطير والمدوّنات) وبرهنته كمصدرٍ صحيح تصلح نصوصُه للاعتماد والتوثيق المعرفيّ، ولنْ ننشغل بالتدليل على ذلك، بالرغم من حاجة القارئ لهذا التعزيز، بفرض أنّ غيرنا من باحثين ومفكّرين قد قام مشكوراً بذلك، ولأنّنا -ثانياً- سنتعرّض لبعضه في بحثٍ آخر.

لكن القارئ يدري إجمالاً أنّ القرآن قد أشار إلى وجود "**الصُّحف الأولى**" و"**صُحف الأوّلين**" و"**أساطير الأوّلين**" على النحو المعتمد المحمود المُحاكيّ لمقالات الأنبياء وللحقيقة القرآنيّة، وأشار أيضاً إلى أنّ تعاليم السماء لمْ ولن تنقطع عن الأرض، وأنّه "**علّم الإنسان**" منذ وجوده "**ما لَم يعلم**"، ووجدنا لدى الأولّين في الرّافدين وسوريا ومصر النّيل- الذين اتُّهموا جميعاً جهلاً بوثنيّتهم، وهو غير

♦ [1]- هذا السبي المسمّى بالبابليّ، حسب بعض المحققين، ليس إلى "بابل" عاصمة الحضارة العريقة في العراق، بل إلى مدينة محاكية للعاصمة اسماً، في شبه الجزيرة العربيّة حيث كان بنو إسرائيل، وتُدعى "بابلون" تصغير "بابل" كما هي مكتوبة في التوراة بالإنجليزية والعبريّة (Babylon)، وهي التي دُمّرت، حسب رؤيا يُوحنا (18: 21)، أشخصهم ملك بابل العظيم لفسادهم على طريق التجارات وسلبهم النّاس مِنْ موقعهم على الخطّ التجاريّ في سراة غرب الجزيرة العربيّة إلى الشرق قليلاً في حاميةٍ من حامياته العسكريّة، وحصنٍ من حصونه يُدعى "بابلون".

صحيح بإطلاقه – نجد لديهم علوماً وحقائق رفيعةً لا يُمكن أنْ تُوجَد إلاّ بتعليمٍ ربّانيّ بلْ وتلتقي تماماً مع تعاليم الأنبياء وما أتتْ بـه من أسرار الكون والعالَم الآخر، وقد دلّت مرويّاتنا الإسلاميّة أنّ أنبياء الله المعلّمين قد انتشروا في هذه البقاع، كتعليم إدريس/تحوت (ع) لأهل مصر الكتابة– الرّسم والتصوير والرموز– والنّحت والفنون والمساحة والعمارة والفلك والحساب والهندسة والنسج وغيرها.

وكنموذج من حمورابيّ، وحامو– رابي من اسمه تعني محامي الربّ، كما نقول يومنا حامي الدين، أيْ الحارس من قبل الله على حدوده، حيث نجد أنّ شريعة حمورابي (النفس بالنفس) كما في المدوّنات أنّه تلقّاها من قوّة الشمس، والشمس في التراث المصريّ (أوتوم) والرافديّ (أوتو/شمش) تعبّر عن مبدأ العدل والمساواة والرقابة الحيّة، هذه الشريعة الجزائيّة الصارمة التي سبقتْ موسى بأربعة قرون وقبل صياغة التوراة ب 15 قرن، هي عينها المكتوبة في كتاب موسى، وضمّنتها مدوّنات التوراة الموجودة، وأشار القرآن إلى صحّتها وأنّها من تعاليم السماء لا بنحو واضعٍ بشري: **(وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ)**(المائدة:45)، يعني أنّ شرائع الأنبياء والتعليم الربّانيّ في حضارات الوطن العربيّ سبقتْ موسى (ع) بكثير، فضلاً عمّن ادّعى الانتساب إليه من التوراتيّين.

غير أنّه، إنْ كان مِن خلل في تلك المدوّنات المنقولة على أيدي الغربيّين من الألواح والرُّقم والبَرديّات وجدران المعابد، فهو خطأ النقل النصّي، ثمّ خطأ المترجمين، وللأسف الشديد فهذا هو ما وصلنا وليس غيره. لذا سنتجاوز باب البرهنة هذا، خشية اتّساع البحث علينا وانفراطه، فكان إيثارُنا أنْ نأتي بتلك النّصوص على علاّتها كشواهد أكثر منها كمعالجة أو كتصحيح، فمن تلك الآثار في تراثنا:

أولاً – إشارات في التراث:

هناك إشارات كثيرة في التراث أنّ الخلق البشري الوحشيّ قد سبق الإنسان الاجتماعي:

فمن كتاب حضارة وادي الرافدين[1] (في ملحمة الخليقة السومريّة، الألف الرابع قبل الميلاد بعد قيام "إنليل" (وهو اسمٌ يُمثّل قدرة الله وأمره) بفصل السماء عن الأرض، ثم خلق الإنسان ووضع في يده المعول للعمل وخدمة الآلهة، نجد بدايات البزوغ البشري إنباتاً:

♦ [1]– عبد الوهاب حميد رشيد، **حضارة وادي الرافدين**، ص160.

فحفر شقّا في الأرض

ووضع بدايات البشرية في الشقّ

وعندها بدأ البشر يظهر كالحشيش في الأرض

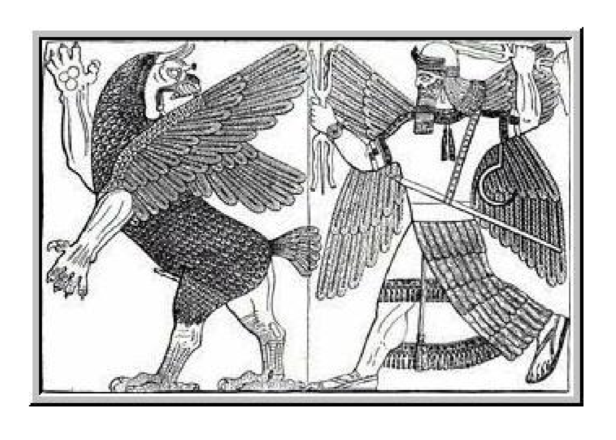
وأيضاً (أسطورة ربّ الشعير "أشنان" والنعجة)، نصّ يتكلّم عن الحالة الهمجيّة أوّل ما وُجدت قبل التطوّر ثمّ الأنسنة:

البشر الأوائل لمْ يعرفوا أكل الخبز

ولم يعرفوا ارتداء الملابس بعد

وكانوا يسيرون على أيديهم وأرجلهم (أي كانوا يُحاكون الحيوانات لا أنّهم يسيرون على أربع، ومع هذا فلا يمنع تطوّرهم)

ومن القنوات يشربون الماء



مردوخ
(القدرة الربّانية)
يُروض الطبيعة
قبل خلق الإنسان

أمّا في ملحمة الخليقة البابليّة (إينما إيليش=حينمـا أوّلاً) فـي اللّوح السادس، فتقول أنّ بطل الأسطورة وهو القوّة الربّانيـة المدبّرة ("مردوخ" الذي مردغ وذلّل الطبيعة وسخّرها)، فبعد استقرار الأرض بتمهيـده لهـا وتـشكيل غـلاف الأرض والأنهار، وصيرورة الظـرف صـالحاً للعـيش البـشريّ، واستقرار القمر وتبريده نهائياً بكلّ آثاره قبل مئـات ملايـين السنين، وبعد اختصار كلّ تلك المئات الملايين من الـسنين، الذي كلّما مرّت حُقبُ طوفانات عالميّة نتيجة انحسار عصور جليديّة، ذكّرت بالغمر البدئي، و"تيامت/ذات اليمّ" البحر الأوّل وأعيد استلهامُه، حتّى حانت لحظة خلق الإنسان الواعي قبـل عدّة عشرات ألف من السنين، على حطام البـشر المتـوحّش اللاواعي قبْله، تقول الملحمة[1]:

عندما **سمع مردوخ كـلام الآلهـة** (أي الملائكـة والقـوى الروحانيّة، وترجموها خطأً "آلهة")

♦ [1]– وديع بشور، **الميثولوجيا السوريّة** - أساطير آرام، ص209. وهي تُحاكي قريباً ترجمة منشورة:

- "Blood I will mass and cause boned to be
- I will establish a savage, 'man' shall be his name
- Verily, savage man I will create
- (http://www.ancienttexts.org/library/mesopotamian/enuma.html)

حدّث "أيا" بما يجول في قلبه ("أيا" أي قوّة الإحياء الذي هو "أنكي" أيضاً)

إنّي جامعٌ دماً، إنّي خالقٌ عظماً

سأخلق متوحّشاً، وسيكون اسمه "الإنسان"

حقّاً سأخلق الإنسان المتوحّش "لولو"

هذا النصّ لنا فيه وقفة، لأنّه قد أُسيء ترجمته، نظراً لأنّ الغربيّين ثمّ المُعرّبين حشدوا كلمة "آلهة" لكلّ كائن أرضيّ أو قوّة كونيّة، علاوةً أنّه لم يهمَّ بعضِ المعرّبين والمترجمين إلاّ صياغةُ نصٍّ أدبيٍّ مُقنعٍ ومُمتعٍ بغضّ النظر عن علميّة مفرداته ودقّتها، فهنا اختلطت كلمة "بشر" بكلمة "إنسان"، وكلمة "خلْق" بـ "تخليق"، وشتّان.

والمُدهش أنّ النصّ قد تُرجم بعدّة تخمينات، فهناك كسْرٌ في اللوح السادس وسطورٌ تالفة وكلمات ضائعة، والمترجمون قاموا بملء الفراغ بمقارنات واجتهادات، بعضُها تعسّفيّ، والبعض ترجمها ثانياً بغير هذه الترجمة[1]، وثالثاً بغير

- [1]–"My blood will I take and bone will I [fashion],
- "I will make man, that man may ... [...].
- I will create man who shall inhabit [the earth],"
- (http://www.sacred-texts.com/ane/stc/stc09.htm)

الثانية[1]، وهكذا. ملخّصها أنّ "القوّة الربّانية الخالقة/مــردوخ" سيجمع الدم والعظام، من كائن أصليّ، ليُخلّــق مــن الكــائن البدائي إنساناً، ثمّ يطلب أنْ يُؤتى له بواحدٍ من هذه الفــصيلة البشريّة المتوحّشة ليُقتل وحده ومنه يَصنع إنساناً تنسلُ منــه الإنسانيّة[2].

وهذه هي الوجهة الصحيحة، لشرح النصّ المُعــرّب أعــلاه، فالبشر المتوحّش موجود، ولن يتمّ خلْقه لكنّ ســيتم تخليقُــه، (فالبشر المتوحّش "لولو") سيُخلّق أيْ سيتمّ تحويله إلى إنــسان عاقل (Man).

لذلك يقول مردوخ (القوّة الخالقة) تكملةً للنصّ الــسابق فــي المصدر نفسِه: **(ليُقبض على واحدٍ من إخــوتهم** – أيْ تلــك الفصيلة حسب الترجمة الإنجليزيّة kindred – **ولْيُقضَ عليه منْ أجل خلق البشر)** أيْ البشر الإنسانيّ الواعي.

- [1] '– Blood to blood I join,
- blood to bone I join from an original thing,
- its name is MAN, aboriginal man
- is mine in making.
- (http://www.gatewaystobabylon.com/myths/texts/classic/enuma.htm#7)
- [2] - ' Let one of the kindred be taken; only one need die for the new creation(المصدر السابق).

وقد ناقشنا باستفاضة الاسم "لولو" التي تدلّ على كائن غير واعٍ في بحث "وعصى آدم"، إلاّ أنّه من المنصف الإشادة بما كتبه أحد الباحثين تعليقاً، هكذا: (**"لولو/Lullu": الإنسان البعيد أو السحيق، أو الإنسان الأوّل، أو الإنسان المتوحّش والبدائي .. وهو الإله! الذي ذُبح وصُنِع من لحمه ودمه مع الطين الإنسان، في الأسطورة الأكديّة**)[1]، فلو حذفنا كلمة "الإله" العبثيّة، وحوّلناها إلى "الكائن" لما خالف الحقيقة شيئاً.

فالأسطورة تحكي أنّ بداية البشريّة متوحِّشة، ثمّ تمّ خلق الإنسان من فردٍ بشريّ متوحّش واحدٍ قُبِض عليه وقُضي عليه ليُخلق إنسان فردٌ منه يأتي نسْل البشريّة الإنسانيّة الجديدة (أيْ آدم)، واللافت للنظر أنّ القارئ للترجمات التي وضعنا بعضها في الهامش لا يسعه إلاّ الاعتراف بمحاكاتها الدقيق لمقدّس قوله تعالى (**إذْ قالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ طِينٍ* فإذا سوّيته ..**)(سورة ص:71، 72).

وأمّا في ملحمة "**أتراخاسس**" البابليّة، المعنيّة أيضاً بالخليقة والطوفان، فنتبيّن أنّ خلق البشر تمّ من الطين لا من الماء البدئي، الطين الذي وقّرته قوى الأنهار/الماء العذب (إنكي)، وأنّ خلق الإنسان بالخصوص لمْ يكن إلاّ بعد أنْ أُطفئت قوى

♦ [1] – خزعل الماجدي، **متون سومر**، ص160.

القمر، وأنّ سيّدة/قوى الإخصاب هي التي ستخلط الطين، أيْ ستخلقه، ثمّ بعد أحقاب مِنْ كائن ذي لحمٍ ودمٍ، سيتمّ مزجُ إلهٍ وبشر في الجسم الطينيّ، أي نفخ الروح الربّانية فـــي البـــشر بكلّ بساطة. وواضح أنّ خلق الإنسان تمّ في نهايـــة الـــشهر القمري[1].

- [1] - They called up the goddess, asked
- The midwife of the gods, wise Mami,
- 'You are the womb-goddess creator of mankind!
- Create a mortal, that he may bear the yoke!
- Let him bear the yoke, the work of Ellil,
- Let man bear the load of the gods!'
- Nintu made her voice heard And spoke to the great gods,
- 'It is not proper for me to make him.
- The work is Enki's; He makes everything pure!
- If he gives me clay, then I will do it.'
- Enki made his voice heard
- And spoke to the great gods,
- 'On the first, seventh, and fifteenth of the month
- I shall make a purification by washing.
- Then one god should be slaughtered.
- And the gods can be purified by immersion.
- Nintu shall mix clay
- With his flesh and his blood.
- Then a god and a man
- Will be mixed together in clay
- (**http://www.personal.psu.edu/faculty/o/x/oxf3/atrahasis.html**)

ثانيا –طريقة القدماء في دفن الموتى تحاكي البدء البشري:

ومن الآثار والنّصوص، نستشفّ أنّ القدماء من سابق علمهم بكيفية نشوءهم الأوّل، قدْ عمدوا إلى طريقة دفن تحاكي البدء البشري، أيْ أنّ الدّفن كان دينياً بحتاً، لـذلك تـراه مرتبطـاً بالطقوس، ومن يطّلع على "كتاب الموتى" لدى حضارة وادي النيل يُدرك عظمة المعرفة التي يمتازون بها، فبشأن الـدّفن (عُثِر في العراق في موقع **تل قاليج آغا** علـى دفـن تحـت أرضيات البيوت، بالإضافة إلى العثور على جـرار تحـوي هياكل أطفال– وعُثِرَ على توابيت طينية في موقع **خفاجـة** – وفي **ماري** السوريّة شاع الدفن داخل الجرار الفخارية خلال الألفية الثاني ق م– وشاع الدفن في الجرار الفخاريـة فـي المشرق العربي– وفي مواقع أخرى عُثِرَ في بعض القبـور على نماذج فخارية لزوارق شراعية) راجع "بشار خليـف– شعائر الموت ومعتقداته في الشرق القـديم". وهـذا يـدعم الفرضية أنّ البشر الأوائل كانت حاضناتهم بيوض فخاريـة طينية، أيْ أنّ وسَط إنباتها هو الطين وغشاء تلـك البيـوض الرقيق هو من موادّ الطين، كما هو "الكلس" لبيض الطيـور والكلس من الطين أيضاً.

ذاك المشهد التخليقيّ الأوّل قد أعيدت أجواؤه في تخليق آدم- الإنسان فصار له خروج من بيضة فخارية تخليقية ثانية، وحوّاء أيضاً، ولك أنْ تقارن النماذج الفخارية للزوارق، والنصّ السومريّ عن اغتصاب "ننليل" في الزّورق (والذي نزعم أنّه رمز على تخليق حوّاء)[1]، وقد بيّنّا في الموجز معرفة الأوائل بخاصيّة الطين كمصدر خلق البشر، وهذا أمرٌ لا يُمكن للإنسان أنْ يتوصّل إليه بلا تعليم، فمن الذي يُدري الإنسان أنّ هذا اللّحم والعظم والأعصاب والدم، أصله طين أيْ "طمي الأنهار"، لولا أنّ الدّين/التعليم الربّانيّ أتى بهذا لمْ يكن إليه سبيل، فلمْ يشهد الإنسان السومريّ خلقاً بشرياً نهض من بيوض الطين، بل شهد ولادات من بطون الأمّهات، فما الذي حدا بالملك البابليّ جلجامش (حسب الملحمة المشهورة) أنْ يقول راثياً صديقه إنكيدو: **(صديقي الذي أحبّ عاد إلى الطين)**، فلماذا يقول "**عاد**" التي تستبطن علْماً بأنّ من الطين بدايته وليس "دُفن"؟ ولماذا لا يقول "التراب" بدلاً من "**الطين**"، وفي الطوفان البابلي ينعى نوح (أوتونفشتيم: مؤتي حياة النفوس) **(وقد عاد البشرُ إلى الطين)**، فالتراثُ مُعلَّم وواحدٌ.

♦ [1]- انظر بحث: **وعصى آدم**، الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.



رسم تخيلي لجلجامش يحمل جثمان صديقه أنكيدو



وآخر لجلجامش وهو يندب أنكيدو

وكان قدامى عرب النيل يدفنون موتاهم في الجرار الطينيّة أيضاً وفي التوابيت[1] والنواويس، فهذا التلاقي على الدّفن في الجرار والطين في مصر وسوريا والعراق، يدلّ أنّ القوى الربّانيّة علّمت الإنسان ما لمْ يعلم، وقد أشار سبحانه إلى نوع من أنواع وسائل التعليم، حين بعث الغراب يُعلّم أحد أبناء آدم (المشهور في التراث الإسلاميّ "قابيل" أو التوراتي "قايين") كيف يدفن أخيه الذي قتله، وليست هذه هي بداية تعليم الدّفن كما اشتُهر، ولمْ يكن آدم الإنسان الأوّل (ع) غير عالِمٍ بها، وما انفكّت الملائكة تُعلّم النّاس أساليب حضارتهم مباشرة أو عبر الأنبياء والمعلّمين أو إلهاماً، والدّفن وتقديس الميّت واحترامه، هي من التعاليم الأولى التي تُواري سوءات الإنسان، غفل عنها ذلك الفتى اليافع الشرّير لغرّته وابتعاده عن الهدى، لا لعدم وجود اهتداء لهذه الطريقة قبله.

ثالثاً – القوى الروحانية المكلفة بتخليق آدم:

سبق أنْ أشرنا في الموجز أنّ التراث يؤكّد بأنّ خلق البشر، ثمّ الإنسان، قد تمّ بتدخّل قوى علويّة، وهذا هو البونُ الشاسع

♦ [1]– انظر: أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص 331 .

بين: الصدفة العمياء وبين القصد والإرادة الإلهية. فلدى السومريّين نجد حواراً بين القوى الروحانيّة المكلّفة بتخليق الإنسان ويرجع نصّ تدوينه إلى 2500 ق.م، ولكي لا يذهب الذهن بعيداً، فالقوى الروحانية هي الملائكة المدبّرة نفسها، والتي عدّتها ترجمات الأساطير الخاطئة الواصلة إلينا "آلهة" بحسبانهم أنّ المنطقة هذه تغصّ منذ القدم بالشرك والوثنيّة، لا بالتوحيد والمعارف، فكلّ لفظة "آلهة" تُوضع أمام القارئ، فما هي إلاّ رمز إلى فعاليّات قدرة الله، وتعيّناتها الخلْقيّة، فهي قدرة الله حال الفعْل، أيْ أنّها تتمظهر في وظائف وتدبيرات عبر قوى روحيّة نسمّيها الملائكة، تقوم بالنواميس، والأسباب. ثمّ صار الأنبياء والمعلّمون يُقدّسون أيضاً ويُحترَمون فيُطلقون عليهم "أرباباً" بمعنى "السادة" لا بمعنى الآلهة، كما نقول ربّة البيت بمعنى السيّدة لا الإلهة.

ففي هذه النصّ، يجري خطابٌ رمزيّ بين الملائكة، قوى التخليق، فيُخاطب "إنگي/إنقي /إنجي" وهو مبدأ الحكمة والنقاء وهو المُنجي، حيث مرّةً "أنگي" هو "أن- گي" (أنْ/عيْن: سيّد/عين/مسئول-- گي: أيْ قِيع، لعدم لفظ حرف العين، وهي قيعان الأرض، فهو مُدبّر الأرض من الملائكة، وأيضاً "عين القاع" هو الماء) أو "أنقي" مسئول توفير المياه

النقيّة (العذبة) المعتمد عليها حياة الأحياء خلْقاً واستمراراً، أو "أنجي" وهو المنجي والمُغيث والمُعين والمُعلّم، مثلما نجد أنّ "هذه القوّة" أو الملاك هو الذي علّم نوح بناء السفينة لإنجائــه من الطوفان وعلّم البشر العلوم والحضارة.



القوة الربانية (إنكي) الجالسة للتدبير والمسئولة عن الماء،

يفيض من جوانبه الأنهار

أمّا القوّة الروحانيّة الثانيّة "نين ماخ/نين ماح": فهـــي ســـيّدة المخّ، أيْ العقل المدبّر، أمّا إنْ قُرِأتْ "نين ماح" حيث الخـــاء والحاء في (الأكاديّة) السريانيّة واحدة، فهي ســـيّدة الإحيـــاء، باعثة الحياة. وقدْ تبرز تمظهرات أخرى أسبق لهـــذه القـــوى مثل "نين مو" أيْ سيّدة الماء، القوّة الفعّالة التي تخلـــق مـــن الماء كلّ شيء حيّ، أو بتعبير آخر "ناموس الخلـــق الأوّل"، باعتبار أنّ الخلايا الحيّة الأولى على كوكب الأرض قد بدأتْ

في قاع الماء (لهذا دُعيتْ حضارة المايا لتـشير إلـى هـذه الحقبة، ورمز لها المصريّون القدامى بزهرة اللّوتس السابحة فوق الماء وجعلوها مفتاحاً للحياة وسرّها)، ثـمّ مـع تـشكّل اليابسة من البراكين، تعقّدت مظاهر الحياة لتنتقل إلى الطـين المائيّ الآسن وعناصره بدءاً بالأحياء النباتيّة، يليها بملايـين السنين الحيوانيّة، وأخيراً جدّاً جاءت البشريّة بالكيفيّـة التـي شرحنا، وفي نهايتها بعد تطوّر تلك السلالات يأتي الإنسان.

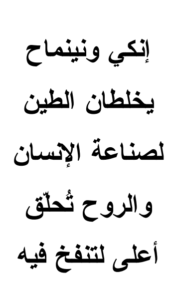


نينورتا، عشتار (إنانا)، إنكي (إيا) يفيض بالأنهار، شمش، يشرفون على الجبل ذي القرنين (مقرّ التدبير)

فيُخاطب "**أنجي**" وهو قوّة الإنجـاء والخـلاص والحكمـة، يُخاطب القوّة الإحيائيّة الأولى "**نين مو**" أيْ القـوّة المـدبّرة، الأمّ الكبرى، الناموس الأوّل، قائلاً : "**إنّ الكائن الذي نطقـتِ**

باسمه موجودٌ"، فردّت القوّة الربّانيّة تلك عليه : **(لا، اربطْ عليه صورة الأرباب وانفخ فيه من الرّوح)** وفي ترجمة أخرى **(يا أمّاه، إنّ المخلوق الذي نطقتِ باسمه موجود، فاربطي عليه صورة الآلهة، عيّني سماته، إنّه إنسان)**، وترجمة أخرى : **(يا أمّاه، إنّ المخلوق الذي نطقتِ باسمه موجود، فاربطي عليه صورة الآلهة، اعجني لبّ الطين الموجود فوق "مياه العمق"، واجعلي "الصانعين المهرة" يُكثّفون الطين، وعليك أنت أنْ تُوجدي له الأعضاء والجوارح، وستعمل ننماخ (الأمّ –الآلهة) من فوق يدك، وستقوم بجانبك إلهة (الولادة) .. في أثناء صُنعك، يا أمّاه قدّري مصيره، وستربط (ننماخ) عليه صورة الآلهة**[1].





إنكي ونينماح
يخلطان الطين
لصناعة الإنسان
والروح تُحلّق
أعلى لتنفخ فيه

♦ [1]– صامويل نوح كريمر، **ألواح سومر**، ص 199؛ وانظر أيضاً المصادر

والنصّ واضح أنّ الكائن البشري البهـــائميّ موجـــودٌ قبْـــل الإنسان وصاروا شجرةً أيْ نسلاً، هم البشر الأوّل الذين ظلّوا يخرجون في بدء الخلْق من بذرة/بيوض فما خـــرج غيـــرهم بعدها حين تغيّر الظرف وعقمت الأرض عن توليد مثل هذه الحالات، خرجوا تماماً كما سائر الكائنات الأخرى كلٌّ مـــن بذرته .. ثمّ جرى على واحدٍ منها عمليّة تخليق ثانيّـــة فـــي محضن طيني ربّاني خاصّ (من لُبّ الطين)، لا طبيعيّ، وفي داخل الجنّة فوق مياه العمق (الأبسو) حيث مقـــرّ الأربـــاب، فتلك القوى الروحانيّة (الملائكة الصاقّة) بـــدأتْ مـــشروعها بمخلوق موجود كخامة لصنع الإنسان الذي سيُصوَّر واعياً به روح يتّصل به بالملأ الأعلى وله مشيئة، أيْ علـــى صـــورة "الآلهة" أيْ القوى الرّوحانيّة، وتمعّـــن فـــي وجـــود "القـــوّة المسئولة عن الولادة"(إلهـــة الـــولادة) حـــسب الترجمـــات القاصرة، فالولادة هي إخراج حيّ من حيّ لا من ميّت، وُلّـــد الإنسان مِن البشر.

التي نقلت ترجمات أساطير سومر مثل: وديع بشور، **الميثولوجيا السورية - أساطير آرام**، ص 69 .

ويقول بهذا الصدد الأمريكي اليهودي زكريا ستجن في كتابه (الكوكب الثاني عشر – 1976)[1]، عن خلــق البــشر لــدى السومريّين: "إنّ من الأحــداث التــي تناولتهــا الأســاطير السومريّة المدونة في الرُّقُم التي عثــر عليهــا فــي مكتبــة آشوربانيبال في نينوى، ما أدّى إلى نــشوء نــوع بيولــوجي جديد سجلته أساطير سومر، وتوفّر لنا أولى المعلومات عــن العمليات التي نسميها اليوم بالهندسة الوراثيــة. وفــي نــص سومري نقرأ كيف تهيأ بويضة أنثى القرد الــشبيه بالإنــسان (ويعني البشر الهمجيّ) والتي يلقحها (أيْ يُخلّقها) أحد الآلهة، أي أحد المخلوقات الكونية واسمه إنكي Enki ثــم توضــع البويضة في رحم إلهة مخلوق كوني اسمها نينورساغ غيــر أن العملية تفشل فالمواليد كانوا عقيمين وذوي عيوب وراثية كثيرة. أما التجربة التالية فكانت ناجحة وأول مولود لها كــان اسمه آدابا وأمه كانت الإلهة نينكي. وبعدها صــار الإنتــاج نمطيا وأوّل مجموعة ناجحة سميت آدامــوا!. فيُفتــرض أنّ بدايات الإنسان العاقل كانت في تلك العمليّات الجينية الواردة في الرقم المسماريّة مما يعني مواصــلة للفرضــيات التــي

♦ 1– http://home.iae.nl/users/lightnet/celestial/zechariah.htm

طرحها عدد من العلماء وهي أن ظهور الإنسان جاء نتيجة لتدخّل كوني في مصائر كوكبنا".

ونحنُ مع هذا الكاتب في استنتاجه بأنّ ثمّة تدخّل ربوبيّ، ولسنا معه في تفسيره للمفردات وفهمه حيثيّات وصورة وآليّة الخلق الأوّل، وهو أمر سيتمّ معالجته في بحث آخر عن الخلق الكونيّ.

لكنّ الأساطير بيّنت فعْلاً أنّ ثمّة خلقاً بشرياً قبل الإنسان ناقصاً خلّقته القوى الربّانيّة المُدبّرة (بشكلٍ طبيعيّ)، ليس بمستوى البشر الأواخر، ويفتقد المهارة والذكاء والانتصاب، بل أيضاً أخبرتْ بوُجود البشر العقيم في أوّل الأمر الخارج من بيوض الطين قبل أنْ تُطوّره يد القدرة الربّانيّة وتُحسّنه ليتهيّأ أنْ يجيء نسلُه من الماء المهين باقتران جنسيّ: **(لقد صنعت نين ماح من الطين المرأة التي لا تلد .. وصنعت نين ماح من الطين مخلوقاً ليس له عضو الذكر ولا عضو الأنثى)** "وصنع "إنكي" المخلوق البشريّ الذي لا يتكلّم، ولا يستطيع أنْ يتناول الأشياء بيده، ولا أنْ يثني ركبتيْه"[1].

♦ [1]– صامويل نوح كريمر، **من ألواح سومر**، ص 200؛ وديع بشور، **الميثولوجيا السوريّة – أساطير آرام**، ص 86.

رابعاً – كتاب الصابئة المندائيين "كنزا ربّا":

أمّا الصابئة المندائيّون الذين ذكرهم القرآن الكريم، فهم سريان عرب، وموحّدون، ويرجعون في تعاليمهم إلى صحف آدم الرسول وشيث وإدريس (ع)، أي أقدمها قبل ثمانية آلاف عام، وأهم كتبهم هو كتاب "كنزا ربّا" (الكنز العظيم)، ويسمى أيضاً "الكتاب العظيم" أو "كتاب آدم" فيقول المستشرق الألماني رودولف : **(اهتمت نصوص عديدة في (كنزا ربا) بعملية تكوين الإنسان، إذ إننا نجد فيها التفريق بقوة بين تكوين الجسم (بغرا) أو الجسد "سطونا" لآدم، أي أن تكوين جسم، آدم "آدم– بغرا" حصل من قبل المشاركين في عملية التكوين وملائكة الكواكب بأمر من الخالق العظيم، حيث نجد فيه ملامح من العالم الأكبر (عالم النور). وهبوط "نشمثا" في الجسد مِن قبل أحد الكائنات النورانية، ولا توجد نصوص موحّدة عن ذلك، أي منْ هو الكائن النوراني، ومع ذلك نذكر أسماء الرسل الذين يتعلق الأمر بهم، وهم "منداهي" أحد الأثيري المجهولين، عدد من الأثيري "الحياة" نفسها "هيبل– زيوا"، "جبرائيل"، "ادكاس زيوا". لا يمكن الحصول على معلومات من النصوص حول تأثير المعرفة في عملية**

تكوين الإنسان، التي تلعب دوراً في هذه الموروثـــات، إلا أنّه يبدو "تشمثا" قديماً قد جلبت من قبل "مندادهي" أو أحد الرسل المجهولين)[1].

ويقول أيضاً عن خلق آدم: **(تكـــوين جـــسم آدم : بثاهيـــل وملائكة الكواكب كوّنوا جسم آدم، بغرا، بإيعاز من أبيـــه "أباثر"، وبقدرة الخالق (الحي العظيم) وإرادته. "بثاهيـــل" يسمى آدم "ابناً له"، ويعطيه لقب "ملك هذا العـــالم"، ملكـــاً وهو مثيله مثيل أباثر)**[2].

فالنصّان جليّان أنّ آدم هو ملِك هذا العالم، كما سيأتي فـــي الأسطورة التالية، وأنّه مثيل للربّ، وأنّ ملائكة الكواكـــب بأمر الخالق العظيم هم الذين خلقوا البشر (جسد آدم) وهـــو الخلق من الطين حسب كلّ التراث، ثمّ جاء أحد الكائنـــات النورانيّة من عالم النور بـــ "نـــشمتا" وهـــي "نـــسمة" أيْ الرّوح، وأُودِعتْ فيه ليُصبح مثيلاً للـــربّ (أبـــاثر) وهـــو الفاطر، حيث الباء فاء، والثاء والتاء (أو الطاء) واحدة فـــي أصوات السريانية.

♦ [1]– كورت رودولف، النشوء والخلق في النصوص المندائية، ص204، 205.

♦ [2]– كورت رودولف، النشوء والخلق في النصوص المندائية، ص 141.

وينقل البعض[1] عن المندائيّين أنّ كائنات نورانيّة .. أكبر من الملائكة وليستْ آلهة (أي أرباب)، انهمكتْ في عمليّة الخلْق بأمر "ربّ الأرباب" "مار- د- ربيبوتا" (مار= سيّد/ربّ، والدال للتعريف والإضافة في العربيّة القديمة، وربيبوتا = الربوبيّة)، أحدهم هو "افتاح إيل" (وهو الفاتح، بادئ الحياة، وهو "فتاح/بتاح" نفسه الذي تقدّس عند عرب واديّ النيل، والذي بدأ عمليّة الخلق الأولى في الماء، ثمّ على الأرض)، وكان الخالق الذي لمْ ينجح في جعل "آدم" (أو بالأحرى الإنسان) يقف منتصباً، (وهذا يُوافق ما فعله "أنكي" عند السومريّين في البشر المُعاقين)، إذْ كان مخلوقُه مادّياً بالكامل (أيْ لمْ يُزوَّد بنفخة الرّوح الربّانيّة بعد). لذلك فقد أُحْضِرتْ "روح" من عالَم الأنوار وأُوْدِعت في آدم وجعلته كاملاً، فهي لمْ تُسبِّب في انتصابه سويّاً وحسب، بل وفي وضعيّته كشخص موحىً إليه هو وزوجته "هوا" (حوّاء). تعلَّم آدم أنْ يُحرِّر نفسه وروحه كي تعود إلى عالَم الأنوار تاركةً الجسد المادّي خلفها. و"روها" (أيْ الروح) هي كيان غامض يدور بين الجسد والنفس،

♦ [1]– انظر مضمون الفقرة: أحمد داوود، **تاريخ سوريا الحضاريّ القديم – المركز**، ص239، 240.

ويقولون: لقد هبط إلى هذا العالَم 360 كائناً أثيرياً كان على رأسهم "مار– د – ربيبوتا"، (وهو ربّ الأرباب، أو ربّ الملائكة)، ومنهم هيجل زيو (تجلّي الضيا، حيث الضاد تُلفظ زاي، التجلّي النورانيّ)، و"أباتر راما" (أباتر: الفاطر، راما: رحمة، الفاطر العليّ/الرحيم)، ويحيى (أي المُحيي والمخلّص)، و"بهرام زيو" (باهر الضيا)، و"افتاح إيل" (فتّاح الربّ)، و"سيمات هيا" (معطية سمات الحياة)، وكانوا يقومون بأعمال إلهيّة، وليسوا بآلهة، كما أنّهم ليسوا بشراً، وليسوا ملائكة.

خامساً – أسطورة "عندما رسم الآلهة المدينة":

أسطورة "**عندما رسم الآلهة المدينة**"[1] سبق أنْ قُلنا أنّ كلمة "الآلهة" هي من ترجمة الناقلين، والتعبير الأنسب كان "القوى/الأرباب"، فعبارة "عندما رسم الآلهة المدينة" بإمكان ترجمتها إلى عبارات احتماليّة كثيرة هي:

عندما : ...

♦ [1]– هذا النصّ الآخر له تكملة، حتّى أنّ الأسطورة نفسها يُطلق عليها البعض "أسطورة إيتانا والنّسر" انظر بحث: **وعصى آدم**، الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

رسم: خطّط/ هندس/ شيّد/ صاغ/ فصّل/ وضع/ أسّس ..

الآلهة: الأرباب/ القوى/ المدبّرون/ الملائكة/ السادة/ الأثيريّون/ الروحانيّون/ العُلْويّون/ ملوك السماء ..

المدينة: البيت/ المقام/ البناء/ المسكن- حيث "مدَن": تعني أقام، بنى، سكن، بات..

فمن **تلك** الاحتمالات نستطيع أنْ نخرج بمئات التراكيب التي تبدو مناسبة. وبإمكاننا اختيار (حينما- وضع- المدبّرون- البيت/ المقام- الأوّل)، والذي هو تماماً قول القرآن (**إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكاً وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ**)(آل عمران:96)، والذي هو نفسه جنّة سكنى الخليفة، آدم حينها، ومقام إبراهيم في زمنٍ آخر، ومقرّ أرواح أبرار النّاس في الأرض، كان هذا أوّل بيت مقدّس يُسجد لله فيه، بيت روحانيّ أُنزِل من السماء[1]، مزار

♦ [1]- صامويل كريمر، **من ألواح سومر**، ص 62؛ وفي أسطورة "إينمركار وربّ أراتا"، حيث " إينمركار" إين = عين/حارس، مركار (معركار: صانع المعاركين الأبطال = ربّ الحرب)، تتخاطب هذه القوى / الأرباب فيما بينها، بين القوّة الحارسة "إينماركار"، وقوّة الخصب الكونيّ "إنانا":

الموحّدين، هذا البيت هو "المدينة" المعنيّة في النصّ وهو المسكن، لذلك نجد ترتيلة لنصٍّ آخر تُقرأ للربّ (إنليل في مسمّى السومريّين)[1]:

مدينة "نفر" (نيبور) ذات مظهر يبعث الخوف والرهبة...

"نفر" هي المزار حيث يسكن الأب (الجبل العظيم)..

منصّة البركة والخير في معبد "إيكور" الذي يعلو

الطود الشامخ، الموضع المطهّر

أميره (الجبل العظيم) الأب إنليل

فقد أقام عرشه على منصّة "الإيكور"[2]، المزار الساميّ

♦ (Let **Aratta** build a temple brought down from heaven)

♦ راجع موقع :

♦ (http://www.piney.com/BabEnAratta.html).

♦ فواضح أنّ الأسطورة تُحاكي البدء، حيث جبل "أراتا"، هو جبل النور، وفيه المعبد والمزار القصيّ الذي أُنزل من السماء، و"أراتا" هذا هو الجبل المقدّس الذي رحل إليه لوجال بندا جدّ جلجامش لطلب نصرة الأرباب:

♦ A **third** epic, ***Lugalbanda and Enmerkar***, tells of the heroic journey to **Aratta** made by Lugalbanda in the service of Enmerkar

♦ (http://www.piney.com/BabGloss.html)

♦ [1]– وديع بشور، **الميثولوجيا السورية** – أساطير آرام، ص 63.

♦ [2]– لعلّ كلمة "إيكور" مركّبة من "إيك – أور" حيث إيك : هي أشجار الفردوس / الجنّة. وأور : هي حور وغور، أيْ بيت/ مغارة، فالمجموع يعني "المسكن الفردوسيّ". كما يُمكن أنْ تكون "إحْگور" أيْ إحْجور أي

المعبد الذي لا تُردّ ولا تُبدّل نواميسه المقدّسة، مثل السماء...

إنّ نواميسه المقدّسة كنواميس "العمق" ما من أحد يستطيع إدراكها

وقلب المعبد كالمزار القاصيّ وسرٌّ خفيّ كسمت السماء..

بيت إنليل، إنّه جبل الخير العميم

الـ "إيكور" بيت اللازورد، المسكن الساميّ الذي يبعث الرعب في القلوب

إنّ رهبته وخشيته لتُضاهيان السماء...

إنّ هذا النصّ العجيب لآبائنا القدماء الذين اعتنت بهم اليد **الربّانيّة** وسدّدتهم، لَيعجّ بالعلوم وينضح بالأسرار، وليست "نيبور" هي تلك المدينة التي في سهل جنوب العراق الخصيب، كما يظنّ المترجمون فليست تلك مزاراً سامياً قصيّاً وليست هي جبلاً عظيماً ولا تبعث الرعب والرهبة، بل

المكان المحجور والممنوع والقاصيّ وغير المُدرك والخفيّ، تماماً كما تصفه الترتيلة في عباراتها. أو هي كما تُترجم إي- كور، بيت الجبل (**EKUR** "Mountain-house")؛ إذّ "كور" تعني فوهة الجبل، والنصّ يقول هذا أيضا.

هي الجبل العظيم حيث جنّة آدم[1] (المسمّى "إنليل" أيضاً لأنّـــه على صورة الربّ (إنليل) الذي نفخ فيه من روحه)، والقارئ للنصّ يدرك ببساطة أنّ المقصود هو مكان سامٍ جدّا ومهيـــبٌ جدّاً وقصيّ جدّاً، يُـــسمّى "نفـــر"، وهـــو المكـــان "الـــوفير" والخصيب وفيه "نافورة" المياه المقدّسة، فنلاحظ أنّ "**المدينة**" هي نفسها "**مزار**"، و"**معبـــد**" أي مسجد وبيت طاعة محضة لا كبْر ولا معصية فيه، وأنّه "**جبل**"، و"**بيت**"، و"**مـــسكن**" ســـامٍ. وإنّ عبارة "**المزار القاصي وسرّ خفـــيّ كـــسمت الـــسماء**" تستدعي في الذهن فوْراً مسمّىً قرآنياً هو "**المسجد الأقـــصى**" الحقيقيّ والأصل، الذي في الجنّة أيضاً وعلى ذلـــك الجبـــل والطود الشامخ، الذي يُذكّرنا بـــ "**الطور .. والبيت المعمور**" وأسفله "**البحر المسجور**".

فماذا عن تلك الأسطورة؟

♦ [1]– ونصّ آخر يرينا أنّ "نيبور/ نفر" هي الجنّة تحديداً (في الوقت الذي لمْ يكن قد خُلق الإنسان بعد، ويوم كانت مدينة "نفر" مأهولة بالآلهة فقط، كان فتاها هو الربّ "إنليل") وديع بشور، **م . ن** .، ص 73، فالكلام هنا عن الجنّة قبل وجود الإنسان، فهي ليست إذاً مدينة "نفر" جنوب العراق التي بُنيت بأيدي ذرّية الإنسان بعد خروجه من الجنّة ببضع عشرات آلاف من السنين .

إنّ أقدم نصّ لهذه الأسطورة السومريّة ("**عندما رسم الآلهة المدينة**" أو "**إيتانا والنّسْر**") قدْ وصلنا من العصر البابلي القديم (2000– 1600 ق.م)، وعثر عليه في موقع مدينة سوسة العاصمة العيلامية، كما وصلنا نصٌّ منه آخر من العصر الآشوري الوسيط (1600–1000 ق.م)، ونصٌّ ثالث من مكتبة آشور بني بعل من نينوى يعود للقرن السابع قبل الميلاد، وهو النصّ الأكثر اكتمالا ووضوحاً من بين تلك النصوص، وإنّ بعض المؤرّخين أوصل شواهد هذه الأسطورة ومضامينها إلى 2600 ق.م. أيْ أنّ الأسطورة دامت "مكتوبةً" أكثر من 13 قرناً إلى 20 قرناً فيما يُعلَم، أمّا شفويّاً قبْل ذلك كم دامت؟ فالله أعلم.

وعلى خلاف الذين قرأوها بعين تاريخيّة أو أدبية أو جزئية عابرة، أو لتمرير فهم أو تحليلٍ معيّن على السومريّين الذين زعموا أنّهم غير ساميّين[1] (ويعنون أنّهم غير عرب) فكانت شواهدهم من هذه الأسطورة وغيرها بالتعلّق بترجمات

♦ [1]– السومريّون غير ساميّين فعلاً، لكن لا على النحو المزعوم، فهم يقصدون أنّهم غير عرب أيْ ليسوا من هذه المنطقة، بناءً على التقسيم الاستشراقي الاستعماريّ بعد تعميم فكرة توراة الكهنة وأنّ النّاس جميعاً هم من أبناء نوح سام وحام ويافث، لكنّ الحقائق تُكذّبهم إذّ السومريّون قبل سام، وهم عرب، وليس الناس جميعهم أبناء نوح (ع).

خاطئة لمفردة أو لألفاظ وعبارات منها، وخلافاً للذين ظنّوا أنّها أسطورة تشويقيّة أو خرافية[1].

سنحاول – بإيجاز شديد– فهْم ما تقوله الأسطورة، ببساطة الأوّلين، الذين كانوا قريبيّ العهد بالإنسانيّة الأولى، وكانت الحقائق والاعتقادات والطبيعة تشغل مساحة أذهانهم، لا الافتراضات ولا التنظيرات ولا الاجتهادات، ولا حتّى الأدب الشعبيّ إلاّ كقالبٍ يخدم السلوك والدين وتعليم الاجتماع والنظام.

وكانوا يُجسّدون الفكرة ويُموقعونها في حياتها حسب محسوساتهم، كانوا بعيدين عن التجريد لأنّه يسمو عن الطبيعة، وهم يريدون أنْ يعيشوا الطبيعة، فأسماء الله الحسنى تتّخذ لديهم تشخّصات طبيعيّة لتناول الفكرة، فاللطيف قد يُجسّد بالهواء، والرحيم قد يُجسّد بالأم، والمعاقب قد يُجسّد لديهم بالرعد والبرق، وسنلفى في هذه الأسطورة الشمس (شمش) وهي تقوم مقام القيّوم، الشهيد، القائم على كلّ نفس

♦ [1]– البعض عدّها خرافة لعسر تفسيرها لديه وعدم وجود ترابط بين جزئيها، وبإمكانك أنْ تعثر على مثل هذا الرأي لدى بعض المترجمين الغربيّين مثلما هو في: د. إدزارد، م.هـ. بوب، ف. رولينغ، **قاموس الآلهة والأساطير**، ص 60، وقد أوردها أيضاً فاضل عبد الواحد علي، **سومر أسطورة وملحمة**، ص251. ضمن فرع القصّة الخرافيّة.

بما كسبت، العادل، وجه الله الذي أينما نولّي نجده، الكاشف بنوره لكلّ خبء، هكذا ينبغي أنْ نفهم ترميزاتهم لئلاّ نجحف بهم. وسننقل النصّ، الذي هو عن ترجمة غربيّة، من كتاب (سلسلة الأساطير السوريّة) كما هو موجود بنسخ قريبة في كتب فراس السوّاح، وسومر أسطورة وملحمة ص 251، كما في الهامش، وموجودة مجملة في كتب أخرى كما في الميثولوجيا السورية ص 227 وغيرها من مصادر، بل يستطيع المرء العثور عليها في الإنترنيت باسم أسطورة إيتانا (ETANA MYTH):

النصّ الأوّل:

وضع الآلهة مخطّط المدينة...

وأسّس الآلهة المدينة...

وضع الآلهةُ أساساتها...

(التعليق: مضمون الأسطورة يُحاكي المشهد القرآني "**إنّي جاعلٌ في الأرض خليفة**"، والمدينة هي الجنّة الأرضية المهيأة للخليفة الأرضيّ كما قدّمنا أعلاه، بعد استقرار الأرض بكلّ موجوداتها وأساساتها التي هيّأتها الملائكة

المدبّرون، وهي التي تنقلها التراجم أنّهم "آلهة" ونرى أنّ الترجمة المُثلى والأصحّ كانت "قِوى" أو "أرباب" في النصّ السالف والآتي وفي كلّ النّصوص، أمّا تعليقنا على الباقي فسنضعه أمام أسطر النصّ، بإيجاز مبالغ فيه).

والآلهة الكبار أنوناكي محدّدو الأقدار: (أنوناكي[1]: السادة الأنقياء/ الملائكة الأطهار، يُحدّدون الأقدار في "يوم القدر").

تذاكروا وهم في المجمع بشأن البلاد (مجمع الملائكة/ الأرباب، حيث الجنّة الأرضية المقدّسة والمركز، والبلاد: الأرض).

مع آلهة الكون الذين يخلقون كلّ شكل (المدبّرون من سادة الملائكة الذين خلقوا الأرض وهيّأوها، وخلقوا الكائنات).

مهيبة كانت الايجيجو في نظر البشر (صنف الملائكة-الجنّ الزائرة الأرض "حجيج" منذ القدم، وهي متأجّجة "أجيجٌ").

لقد حدّدوا للبشر عيد رأس السنة (بدْء اليوم الربّاني، رأس السنة، 25 كانون الأوّل، يوم القدر، بداية الإنسان)[2].

♦ [1]– أنو– ناكي : أنو: سماء، علويّ، رفيع، سيّد – ناكي : نقي، طاهر، فهم أنقياء السماء، السادة الأطهار، الملائكة.

♦ [2]– راجع بحث: **ليلة القدر**، عيد الخليقة، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

دون أنْ يعيّنوا ملكاً يحكمهم ("البشر" موجود، لكن كبهائم ذكيّة، دون خليفة وملك).

فلم يكن حتى ذلك الزمان

من عمَرةٍ أو إكليلٍ (أيْ "آدم" لمْ يُوجد، ولا حضارة، ولا عقل مفكّر مدبّر، يصلح لتاجٍ وعرش).

ولا من صولجان مرصع باللازورد

ولا مِن عرش قد أقيم حتى ذلك الحين (العرش هو المدبّر، الخليفة).

وكان الآلهة السبعة

يوصدون الأبواب وراء البشر (البشر فصيل غير مذكور لدى الملائكة ولا يُؤبه له، ولا اتّصال معه).

وفي الأماكن المأهولة

كانوا يوصدون الأبواب (البشر لم يدخلوا الجنّة المأهولة بالملائكة، ليس بعد، إنّما بدأ ذلك بآدم فقط).

وكان الايجيجي يحيطون بالمدينة (الملائكة المتأجّجة يُحيطون بالجنّة الأرضيّة/السماويّة، كما قال القرآن "**والملك على أرجائها**").

وفي هذه الحالة

كانت عشتار ترغب في إيجاد راعٍ للبشر (هو الخليفة، ودور "عشتار" كقوّة واضح، لأنّ الخليفة نسل بشريّ).

فكانت تفتّش عن ملك للبلاد ("عشتار أو إنينا" هي قوّة الخصب، والتخليق، والنسل، هي أحد قوى الملائكة الصافة الموكولة بأسباب الطبيعة).

وترغب "**أنينا**" **في إيجاد ملك البلاد** (بمعنى أنّ أنينا وهي"عين السماء" تبحث للأرض الزاهية، والطبيعة الأرضيّة، عن ملِكها، خليفة الربّ في الأرض).

فأخذ "**إنليل**" **في التحرّي عن عروشٍ في السماء** (أيْ بين الملائكة إنْ كانوا يصلحون كخليفة ومدبّرين، والعرش هو للمدبّر والتدبير)[1].

ففتّش في كل مكان عن عرش الملك

♦ [1]– بهذا نستطيع تفسير كثير من الآيات غير المفسّرة إلاّ باعتسار وتكلّف ومجافاة للعربيّة المبينة مثل (وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ)(الحاقة:17)، (أَوْ كَالَّذِي مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا)(البقرة:259) فعروشها هم أهلها المدبّرون لها وتقوم بهم، في هذه الآية وفي التي مثلها (الكهف 42) و(الحج 45).

لأنه لم يكن بعد من ملك في البلاد[1] (يقـول المنـدائيّون: "أنّ روحاً أُحضِر من عالَم الأنوار" لتُودَع في آدم الكامل).

وعندئذ نزلت الملكية من السموات (إنليل ربّ الروح نـزل بالرّوح من السماء وبأمرِ جعْل الخلافة في أحد البشر، بعـد نفخه بالرّوح).

فقرّر إنليل أن يخلق ملكاً للبلاد (من البشر سـيخلق إنـساناً ملكاً للأرض، ونسله سيكونون أربابها ومدبّريها).

سادساً – نصوص وادي النيل:

أمّا في وادي النيل في الألف الخامس قبل الميلاد، فنجـد أنفسنا أمام قَطْع شأفة الهمجيّة، وتكريس نظـام الأسـرة بدلاً من شريعة الأمومة، فتقول سيّدة وادي النيل (مصر) إيزيس (Isis)، وهي "حيزيت" مِـن الفعـل "حـاز" أي المُبصّرة المُنبّأة الكاهنة، التي منها سمّت العـرب أحـد أصنامها (عُزّى) بالإبدالات بين الحـاء والهمـزة، ثـمّ الهمزة والعين، وما زلنا في لهجتنا العامّية نقول "اِحْزَى"

♦ [1]– يقول أوفيد في كتاب **مسخ الكائنات** عن هذه المرحلة (ولم يكن قد ظهر بعد بين الكائنات من اتّسم بطابع الآلهة، وكان جديراً بأنْ يملك الذكاء الخارق الذي يُتيح له أنْ يكون سيّد سائر الخليقة. ثمّ كان أن خلق الإنسان).

أيْ خمِّنْ وتكهَّنْ وتنبّأْ وحاولْ أنْ تعرف، والنصّ يجــده القارئ في "ديانة مصر القديمة- لأدولف إرمان": **(إنّنــي أنا إيزيس عاهلة البلاد جميعاً وقد تعلّمــت علــى يــد هرمز، .. إنّني أنا التي تشرق في نجمة، إنّني أنا التــي يسميها النساء ربّة، من أجلي قد شُيّدتْ مدينة بوسطة، إنّني أنا التي فتقت السماء وبيّنــت مــسالك النجــوم، واخترعت الملاحة، وعقــدت بــين الرجــل والمــرأة، وقضيتُ بأن يحبّ الأبناء آباءهم، لقد وضعتُ مع أخــي أوزيريس** (Osiris من الفعل "آزر" وتعني الوزير) **حــدّاً لأكل البشر! وأريتُ الناس الأسرار الخافية، لقد أدلــتُ دولة الطغاة وحملتُ الرجال على حبّ النساء، وجعلــتُ العدالة أقوى من الذهب والفضة ..)**[1].

♦ [1]- أدولف أرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص559 :

♦ (I am **Isis**, mistress of the whole land. I was instructed by **Hermes**, and with **Hermes** I invented the writings of the nations in order that not all should write with the same letters. I gave mankind their laws, and ordained what no one can alter. I am the eldest daughter of Kronos. I am the wife and sister of the king **Osiris**. I am she who rises in the dog **star**. I am she who is called the goddess if women. I am she who separated the heaven from the earth. I have pointed out their paths to the **star**. I have invented seamanship.

- I have brought together men and women. I have ordained that the elders shall be beloved by the children. With my brother **Osiris** I made an end of cannibalism. I have instructed mankind in the mysteries. I have taught reverence of the divine statues. I have established the Temple precincts. I have overthrown the dominion of the tyrants. I have caused men to love women. I have made justice more powerful than silver and gold. I have caused truth to be considered beautiful .. I assigned to Greeks and barbarians their language . . . I established penalties for those who practice injustice.)
- Refer to:
- **http://www.mystic-mysteries-magic.com/mysteries_egyptian_invoke_isis.htm**
- **http://duke.usask.ca/~niallm/252/Diodisis.htm**
- **http://www.sacred-texts.com/eso/sta/sta10.htm**
- **http://azothgallery.com/alchemical/k_damiani_sophiasoul.html**
- and others



أكل لحم البشر



فقد أثبتت البصّارة إيزيس أمــريْن رئيــسيْن مــن آثـــار الهمجيّة كانا سائديْن: أكل لحم البشر، وشريعة الخــصب والزواج العشوائيّ. فالحالة الهمجيّة أو التأثر بها إذاً كان إدّاك موجوداً، في ظاهرة أكل البشر، ولوحقت آخر فلوله ووُضِع حدٌّ له في بلاد العرب قبل سبعة آلاف سنة، لذلك ليس غريباً أنْ نرى أنّ العربيّ ليس في ثقافته أكل لحوم البشر، وأنّ القرآن يُوضح طبيعتــه الإنــسانية، **(أيحــبّ أحدكم أنْ يأكل لحم أخيه ميتاً فكرهتموه)**، بل العربيّ لا يأكل جواده، إلاّ تضحيةً وكرماً، في حــين نــرى فـــي الغرب استسهالاً لهذا الأمر لدرجة أنّ المرء يُعبّر عـــن شدّة جوعه بقدرته على أكل حصان:

(I am so hungry I could eat a horse)

أمّـــا الهمجيّـــة بعـــادة أكـــل لحـــم البـــشر فتُـــسمّى (Cannibalism)، وكانت من فرط شيوعها في الغرب أنْ دخلت في صميم نوادرهم وفكاهاتهم، ففي حين لا نـــرى في طرائف العرب باباً يتفكّه بهذه العادة، فعلى النقـــيض

في طرائف الغرب نجدهم يُفردون لآكلي لحوم البشر باباً للنوادر[1]، لأنّها جزء من الثقافة ومن تكوين المجتمع.



نموذج لواحدة من مئات الطرائف التي لا نجدها في ثقافة أمّتنا

أمّا ظاهرة الأمومة والخصب – كما بيّنت إيزيس– حيث لا عقْد مخصوص بين الرجل والمرأة، ولا دوْر للآباء مع أبنائهم، فكانت سارية أيضاً، إذّ كان التكاثر – قبل

- [1]– من تلك النوادر :
- – أنّ رجلاً من آكليّ البشر دخل مطعماً فأتى له الجرسون بقائمة الطعام، فردّها قائلاً: (ائتني بقائمة المدعوّين)!
- – ونصحت الأمّ ابنها قائلة له: (كم مرّة قُلت لك، أنّه ليس من الأدب أن تتكلّم وشخصٌ في فمك).
- – ودخل الطفل الجائع على أمّه متسائلاً: ما غذاؤنا اليوم يا أمّاه؟ أجابته: جدّتك! فامتعض متأففاً: أوه، لأسبوعٍ كامل، كلّ يوم الغداء نفسه، "جدّتي جدّتي"!!! هذه نماذج من طرائفهم!

انتقاء آدم الإنسان- عشوائيا أيْ لـــم يكـــن هنـــاك زواج وأسرة، فالإخصاب كان السلاح الوحيد الفعّال الذي كـــان يملكه ذلك الجنس البدائي في تلك الضرورات والظروف القاسيّة، حين لمْ تُوجد ولا تُوجَد معايير أخلاقيـــة غيـــر البهائمية. وما وُجدتْ المعايير الأخلاقيّة إلاّ بـــآدم وبعـــد المعصية أيضاً، فبدأت الأخلاق تتطوّر حـــسب المفهـــوم الأول للمعصية الأولى مع تطوّر الإنسان عبر المراحـــل التي مرّ بها وتجاربه واختبار وعيه ونُظم اجتماعه.

فنظر الإنسان إلى ضرورة التكاثر ليـــسود علـــى ســـائر المخلوقات الأخرى والعنصر البشري البهـــائمي الآخـــر الذي كان مُزاحماً وموجودا بكثرة أيضاً، والذي مثله مثل سائر الوحوش آكلة اللحوم البشرية وغيرها، بـــل كـــانوا يصطادون بعضهم البعض، وربّما بقي هذا النـــوع إلـــى اليوم في الكهوف البعيدة في كل الأنحاء، وقد يتعلّم قليلاً من الإنسان كما يتعلّم أرقـــى الحيـــوان وأذكـــاه بعـــض الشيء، لكنه يخلو من الرّوح الواعي كالإنسان الـــسويّ.. (وقد استمرت هذه الطريقة التكاثرية حتى بعـــد تدشـــين نظام الأسرة، فقد كان الخصب واجباً والعقم لعنةً، ولمـــا كانت الحقبة أمومية أغلب المناطق التي لمْ تطأها أقـــدام

أنبياء ومرسلين، فلم يكن تنسب الأبناء للآباء بل للأم، إذ كانت "عشتار" رمز لقوى أنثوية قبل تحوّل الفكر السائد آنذاك إلى مرحلة إيل الذكوري. لذلك نجد أنّ "إيزيس" وهي البصّارة أو المتنبّئة، هي التي أرستْ الشرائع الإنسانيّة، بتسديد النبي "إدريس" معها، المسمّى لديهم "حِتْحوت/ إتْحُوتْ/ تْحُوتْ/ تُوتْ[1] : Thoth /Thot" وهو "خنوخ/ إخنوخ" أيضاً، وهو "إدريس" لأنّه كما يُقال درس الكُتب، وهو أيضاً المُسمّى "هَرموز/ هرمز: Hermes" ولعلّها من كونه مُعلّم الرّموز والحكمة (هِرْمُزْ أو "هـ- رموز"، والهاء إمّا هي إقلاب عن الألِف إرْمُزْ، أو هي هاء التعريف كالألف واللاّم لدينا، حسب اللّهجات القديمة) وسُمّي مضيق "هرمز" باسمه[2].

♦ [1]- صار التيمّن باسم النبيّ "إدريس" تحوت/ توت (تحوط: أي ذو الإحاطة بالعلوم)، بادئة في أسماء ملوك مصر، مثل "توت عنخ آمون" و"عنخ" = عين أخ أيْ المُعيِّن والرقيب من الصاحب الله، والله "آمون": آمين، مين، مينا، معن، أيْ المعنى الحقيقي للوجود.

♦ [2]- بل أنّ بعض الباحثين أثبت أسماء أخرى له، و"آثاراً له في المعمورة، وجعل أصله سومريّاً فيقول (أنّ هرمس هو الملك السومريّ "أنسيبازي أنّا" ويُسمّيه بيروس "إيفيدواكس" الذي حكَم مدينة "سبّار" قبل الطوفان، وتسلَّم من الإله "إنكي" المعارف والعلوم ونشرها شرقاً إلى فارس والهند، ورحلَ غرباً إلى مصر وسُمّي هناك "هرمس- توت" و"إدريس" وربّما يكون قد بنى الأهرام، ولكنّه علَم السحر والطبّ والعرافة والحكمة للمصريّين .. وبذلك يكون هرمس السومريّ أوّل عالِم موسوعيّ علَّم العلوم للبشر كلّها، ويرتقي



المعلَّم الربّاني (تحوط) وهو إدريس وهرمز، يحمل اللوح والقلم، عند عرب وادي النيل

سابعاً – قصة الأمير العربي "قدموس Cadmos":

ونقرأ في التراث في قصّة الأمير العربيّ "قدموس الفينيقيّ Cadmos" ابن الملك أجينور، وهو الذي علّم الإغريق الحضارة والأبجديّة الفينيقيّة، الذي راح يبحث عن أخته

هرمس إلى مرتبة النبيّ في التاريخ الدينيّ) خزعل الماجدي، **ميثولوجيا الخلود**، ص 105.

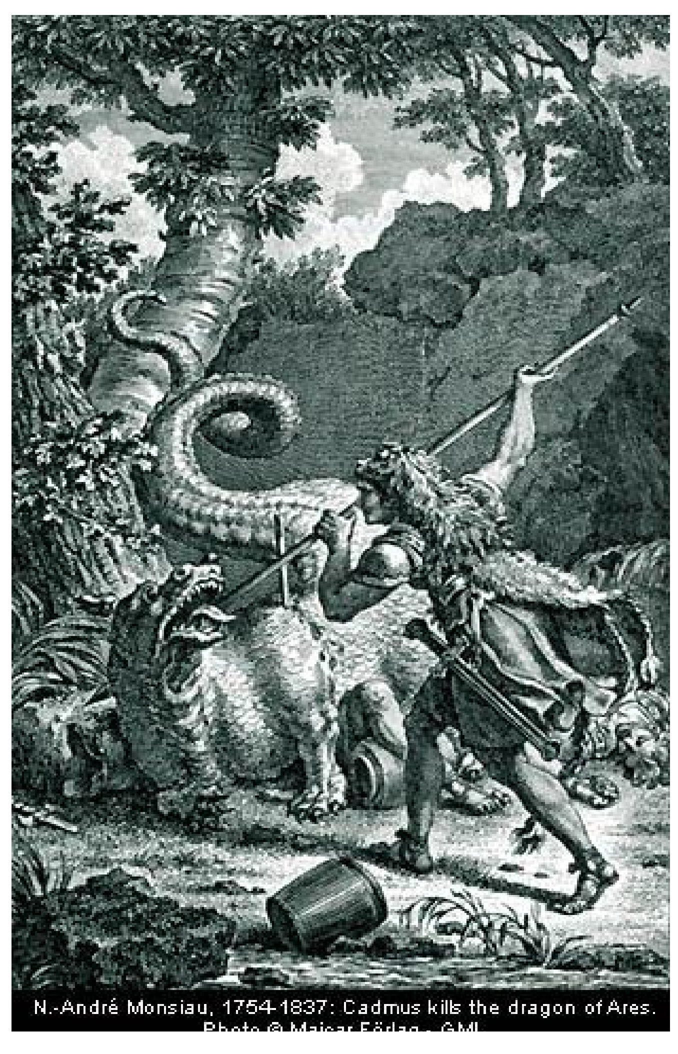
الأميرة "عروبة" أو أوروبا حسب أسطورة الإغريق والتي سُمّيت القارة باسمها، حينما ذهب إلى شبه جزيرة المورا (اليونانيّة الآن) مع أفراد من عشيرته لبناء مدينة "طِيبة" Thebes، كما أشارت عليه العرّافة (ديلفي Delphi) في معبد البعل (أبولّو) بتتبّع بقرة وحيثما غرزت أرجلها فالأرض تصلح لبناء المدن، فبينما كانوا يبنون "مدينة طيبة" شعروا بالعطش (حسب القصّة) فأخذوا يبحثون عن الماء وذهبوا إلى المغاور والكهوف فخرج لهم أبناء التنين[1] ("وكان العرب الأوائل يُطلقون على السلالة الهمجيّة أبناء التنين وساكني الجحور والمغارات والأفاعي وأبناء الحيّة، وأشهرها وأشدّها هم الصّقلاب/ الصّقالبة[2] كما في المرويّات وفي الأدعية أيضاً، وهم جيل من البشر نهمٌ شرّهٌ أكولٌ قصير القامة عريض الوجه والفكّين يسحق العظام بها، وهذا الصنف كان موجوداً في الشمال الأوروبي وفي الغرب وهو – أي هذا الصّقلاب– الذي خرج إليهم من الكهف، ودارت معركة بين هذا النوع من الهمج وبين

- [1]– وديع بشور، **الميثولوجيا السورية – أساطير آرام**، ص 434 – 438؛ تحوي صفحات عن موجز لأسطورة قدموس.
- [2]– صقلب– الصقلاب: الأكول، الصقالبة: جيلٌ من النّاس تُتاخم بلادُهم بلاد الخزر بين بُلْغَر وقسطنطينية. بطرس البستانيّ **محيط المحيط** ، ص514 .

قدموس وجماعته حتى أنّه قُتل من جماعة قدموس العـــدد الكثير")[1] وتحوّلتْ قصّته وقتْله التنين ونثر أســنانه وبنائــه المُدن إلى أسطورة ورمز[2].

♦ [1]– نجد محاكاةً لهذه المعارك، في فيلمٍ أجنبيّ اسمه **(المُحارب الثالث عشر The Thirteenth Warior)** بطله الممثّل الأسباني "أنطونيو بانديراس"، ويحكي عن بطل عربيّ "أحمد بن فضلان 309هـ" يذهب شمالاً ويُقاتل مع بعض الفرسان الشجعان قبائل الهمج المتوحّشة البدائيّة من سكنة الكهوف الذين تحكمهم شريعة أموميّة متخلّفة.

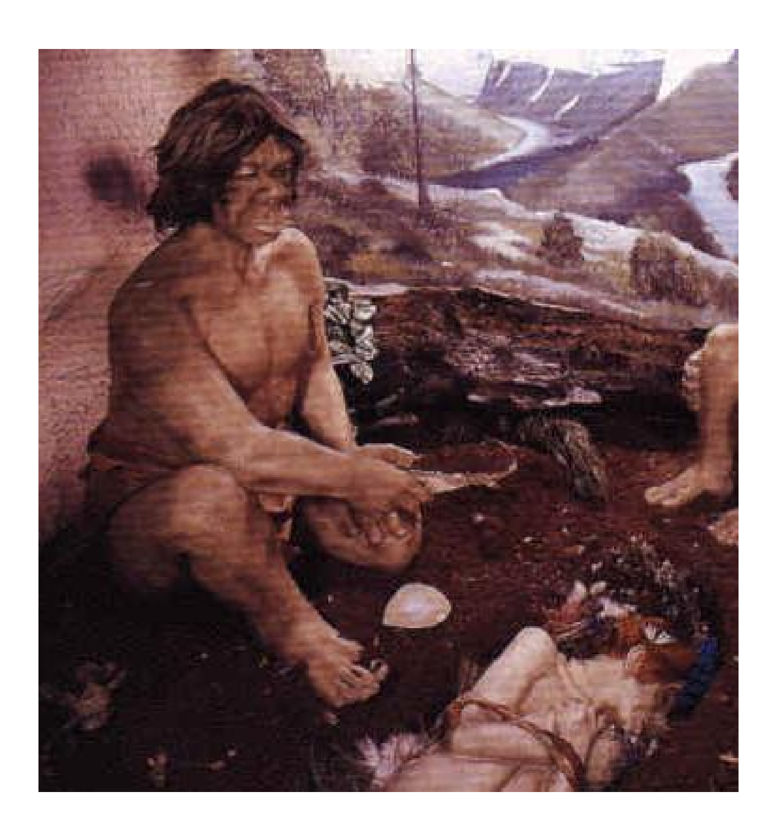
♦ [2]– When Cadmus left Delphi, he soon ran into a white cow. He followed her a long way, over hill and mountain, through valleys and across rivers. Finally, the cow lay down on a knoll in the middle of a large plain-the perfect spot for a walled city. Then Cadmus sent one of his men to get water from a nearby spring. While he was gone, Cadmus sacrifice the cow to thank the gods. When the man he sent never returned, he sent two more men to see what had happened. They did not return either and he sent the rest of his men, a few at a time, after the others. Finally, he was left alone and went to see for himself what was keeping his men. When he reached the spring, he saw a dragon guarding the spring. At first, Cadmus was afraid it would eat him too, but the dragon was very sluggish and sleepy after eating so many men and Cadmus slew the dragon easily.



قدموس يقاتل الهمج (المرموز له بالتنين)

وهذا النوع من البشر الصقلاب هو الذي نراه في الإليـــاذة أيضاً، فحين ذهب الكاهن عنْيا مع جماعة عتيكـــة نـــراهم يصطدمون بهذا البشر الصّقلاب آكل لحوم البـــشر. وفـــي

كتاب ڤيرجل الإنياذة: لقد شرع الملك إيڤان يُخبر "عنيا" وجماعته النازحين إلى هناك بالكثير من أحوال البلاد، وكيف كانت في الأيام الماضية مأهولة بشعب متوحّش يعيش عيشة الوحوش، فقال لهم: لمّا هرب رفاقي من هذا الشاطئ اللعين تركوني في كهف الصقلاب وهو مخيف الهيئة، وحشيّ المنظر قد جاوز الحدّ في ضخامة جسمه، يتغذّى بلحم البشر، وقد رأيت بهاتين العينين كيف مدّ يده وقبض على اثنين من رفاقي وسحقهما على الحجارة سحقاً، أجل لقد رأيت أطرافهما متناثرة تتجّه نحو فمه". هذه هي صورة الصقلاب ساكن الكهوف في أوروبا، قبل هجرة العرب الأوائل إليها هناك في زمن قدموس وقبله، في شبه جزيرة المورا وفي زمن الطرواديين بحوالي 1300 قبل الميلاد، كان هذا الكائن هناك ولعلّ تكوينه النفسي ما زال هو السائد).



صورة تخيلية للهمج آكل لحوم البشر

بل إنّنا نرى أنّ الأمير العربيّ "قدموس" يُدشّن في أوروبا التي كان يسكنها البرابرة والهمج آنذاك، يُدشّن في حاضرتها آنذاك "اليونان" أوّل مبادئ الأسرة والزواج المسجّل، فيقول أوفيد الرّومانيّ في كتابه "مسخ الكائنات" ص 116 **(وبُنيتْ مدينة "طيبة"، ووجَد "قدْموس" السعادة في منفاه، فقد تزوّج النبيلة "هرمونيا" ابنة الربّ مارس،**

والربّة فينوس، وأنجب منها أبناء وبنات .. أسّسوا تقاليد الأسرة، وأرسوا روابط المحبّة بين أفرادها)، والربّ والربّة تعنيان السادة المعلّمين والمربّين، وإنْ فهمها الرّومان خطأً فألّهوا شخصياتها[1].

ونرى أصداء الهمجيّة أيضاً في أسطورة "أتراخاسيس[2]" وهو نوح (ع) التي يعود تدوينها إلى 1700 ق.م، والذي حسبما يلوح من اسمه أنّه عُدَّ "حامي الذرّيّة" (أترا: عترة – خاسِسْ: خاشِشْ، أيْ محتفظ، مُخبّئ) حيث كان (ع) يدعو إلى شريعة إيل، لا الإباحة مِن جهة أولى، ولا معاشرة أشباه الهمج من جهة ثانية، فهو بهذا صائن النسل الإنساني، وهو باعتبار الطوفان المُهلِك الذي حصل في المنطقة وأباد الخاطئين والهمج هو أيضاً صائن النسل الإنسانيّ بدعائه على الفجّار وإنجاء الأخيار ونسلهم معه، وقد حظي نوحٌ بعدّة أسماء حسب ثقافة الأسطورة، فهو

- [1]– راجع بعض التفاصيل في: وديع بشور، **الميثولوجيا السورية – أساطير آرام**، ص 435.
- [2] – (أترا–هاسِس) كما وصلتنا بهذا التصويت، يحتمل مع الإبدالات الصوتيّة بين السومريّين أو الغربيّين، أنْ تكون: أ– عترة–خاشِش، أي المحتفظ بالنسل. ب– أدرى–حاسِسْ، أي أكثر الناس إحساساً ودراية بالربّ وما يُرضيه وما يُسخطه. ج– إطرا–خاصِصْ، أي المخصوص بالإطراء والثناء كما أثنى تعالى (سلامٌ على نوحٍ في العالمين).

"أتراخاسس" البابليّ، وهو "زيوسدْرا" السومريّ: ذي الصدر (الصدارة)، وهو لدى البابليّين أيضاً "أوتنبشتم/ أوت– نفشتم" حائط وراعي النفوس.

نجد أنّ في ملحمة "أتراخاسس" اللّوح الثانيّ؛ أنّ الله امتحن البشر بالبلاء والجوع، وعمّت الأرض الظروف القاسية، فعاد البشرُ المُهلَكون بعدئذٍ بالإغراق إلى "شريعة الهمج" حيث صاروا يأكلون بعضهم البعض ويأكلون أبناءهم[1]، سواءً أكلوهم ماديّاً أو هو رمزٌ لحالة التوحّش والظلم.

ثامناً– القوة الكونيّة الإخصابيّة في التراث السومري والبابلي:

لقد بيّن التراث السومري والبابليّ موقعاً خاصّاً للقوة الكونيّة الإخصابيّة وسمّها (إنانا) وهي (عينان) سواءً تعني العين، أو عين العناية، أو عين آن، أي عين السماء، ورمزوا "كوكب الزهرة" لها لأنّها تبقى كالحارسة الرقيبة

◆ [1]– When the sixth year arrived, They served up a daughter for a meal, Served up a son for food.

في ظلمة اللّيل شرقاً أو غرباً إذا غاب الشمس أو القمـــر[1]، فهي فينوس (الفانوس)، وهي أفروديت (أنف الروضات/أيْ مظهر الخصب)، وهي عشتار الأكاديّة (عشتار أيْ مديمـــة العترة والنسل) وعناة الأوغريتيّة أي العناية وقوّة الخصب، وهي "أنتا" أو سيّدة السماء لدى مصر، و"أنتا" هي "الأنثـــى" وهي العين الراعية المزهرة سواء في الـــسماء أو الأرض، هي الأمّ، القوّة الكونية المخصبة، تعنى بالخلْق وبالجمـــال والزرع والنسل والخصب والزرع ومظاهر الحيـــاة، ولـــمْ يكنْ – مفهوميّاً– أدلّ من الأنثى (النساء) كرمـــزٍ مجـــسّد يمتهن هذه الوظائف أو له هذه المخايل والسمات العظيمة، من توليد واعتناء بالذرّية وإدرار وحنان وحـــبّ وعطـــاء، ومن اعتناء بحقول الزرع، ومن جمـــال وزينـــة وتـــورّد، فقاموا يرسمون هذه القوّة الجاذبة المخـــصّبة علـــى شـــكل "أنثى" كمفهوم فكريّ لا حقيقي، أيْ كتمثيل ذهنـــيّ، ككـــلّ الرموز التي نرمزها اليوم في كلّ العلوم، بل كمـــا نكتـــب رمز الجلاله (الله) ونلفظه، لنكوّن لنـــا نظامـــاً تواضـــعياً

♦ [1]– في نشيد عن عشتار (وليكنْ اسمُك "عشتار النجوم"، ولْيتغيّر مركزك بكلّ جلال بالنسبة إليها، الأكثر لمعاناً، وليتغيّر مقامك بكلّ احترام، إلى المقام الأسمى، وحتّى عند حراسة سين (أيْ القمر) وشمش (أيْ الشمس)، ليكُنْ سناؤك مشعّاً، ولْيتوهّج مشعلُك، في كبد السماء) رينيه لابات وآخرون، **سلسلة الأساطير السورية**، ص 285.

اتّصاليا وتواصليا في منظومة أفكارنا وأحاسيسنا ومعتقداتنا، ليس إلاّ.

فأفروديت: تعني وجه أو مظهر الخصب (أف- روديت؛ أف/أنف: هو الأنف والوجه والمظهر - روديت: روضة).

وعشتار الأكاديّة (Ishtar)[1]: تعني مُديمة النسل والعترة، حيث أنّ صوت الحرف (ش) يوحي بالامتداد والديمومة، وكما أنّهم في الفعْل (قَلَب)، صاغوا (شقلب) أيْ تقلّب تقلّباً متواصلاً، فإنّ (عشتر) هي (عتر) ومنها العترة أي السلالة، **جعلوا** الشين وسطها، لأنّ قوّة الإدامة ذاتيّة، فصارتْ "عشتر"، والقوّة المسئولة "عشتار"، هي القوّة الحيويّة التي جاذبت ومازجت وجامعتْ ولائمت بين الأزواج فألقحتها وأخرجتْ كينوناتها وأدامتها برعايتها ونواميسها، فهي القوّة التي تجذب كلّ زوجين في الوجود المادّي أو الحيويّ، الرجل للمرأة مثالاً، وتُديم النسل والتوالد والبقاء، لذلك نجد أنّ هذه القوّة تضجّ (رمزيّاً) حين يحصل ما يُنافي وظيفتها، كما في طوفان نوح (ع) الذي

♦ [1]- هذه القوّة (عشتار Ishtar) هي التي سمّاها التوراتيّون "أستير"، وجعل العرب رمزها التمثليّ عين/كوكب الزّهرة (نجمة الصباح والمساء)، فذهبت الغرب وصاروا يُطلقون على النجمة (إستار Star) وهي نفسها عشتار، ما يفيدك أنّ العقائد وأصول الأسماء والحضارة عربيّة.

أباد مَنْ جاوره مِنْ أقوام عصتْ نوحاً: **(عـشتار صـرختْ كامرأةٍ آلمها المخاض: كيف أعلن حرباً تُدمّر شعبي، وأنا التي تسعى لتزيد توالدهم)** (من ملحمة جلجامش- اللّوحـة الحادية عشرة).

فعشتار: رمز لمستوى فكريّ، ونظـام (عـشتار أو إنانـا السومريّة Inanna)، وجوداً هو نظام كونيّ/طبيعيّ بحْـت، به وُجدت المخلوقات واستدامتْ، وهو مفهوماً ورمْزاً: نظام أموميّ/ أنوثيّ/ إخصابيّ، ورُمِـز إليـه بـامرأة عاشـقة صارمة. وحين تطبيقه على الإنسان وتفاعل الإنسان بـه، كان هذا النّظام هو الأصل وهو الطبيعيّ في حالـة بـزوغ البشر الأولى إنباتاً من الطين، لإدامـة نوعـه بالخـصب والتزاوج المشاع باعتباره سلاحه الوحيد بـين الوحـوش وظروف الطبيعة القاسية، لكن بعـد أنْ أُوجـد الإنـسان وأُعطي الوعي فقد أُعطي سلاح الإبداع، وجُعـل مُـسخِّراً للطبيعة ولغرائزه غير خاضعٍ لها بل مُخضِّع، فنـشأ فـي التراث صراعٌ مرمّزٌ بين فكريْن (فكر عشتار) وهو الفكـر الغرائزي الإخصابيّ البحت والذي كـان لابـدّ منـه فـي البشريّة الأولى وفي تلبية الغرائز بالحلال، و(فكر إيل) أي شريعة الله، شريعة القيم والأسرة، تدشيناً لشريعة الأسـرة

الواحدة وقدسيّتها بوجود الأب لينسلا نسلاً إنسانياً غير همجيّ ولا إباحيّ، ولينسخ ويُزيح عمليًّا على مستوى الكائن الإنساني الإلهيّ نظام الطبيعة الغرائزي السائد، نظام الإخصاب والإباحة والأمومة والنسل فقط (شريعة عشتار)، وهو الذي عُبّر عنه أسطوريّاً بإنقاذ (إنكي/ إيا) لـ (أنانا/ عشتار) بعد هبوطها إلى العالم السفلي[1]، إذْ أنّ دور "عشتار" أيْ الفكر الإخصابي والزواج العشوائي قدْ هبط وسفُل وانحطّ، وانتهى على مستوى رقيّ الإنسان وتطوّر قيَمه وسلوكه، و"**نُزِع عن الشريعة القديمة صدارتها**" فنقرأ في الأسطورة **(لم يعدْ الشاب في الطريق يُخصب المرأة الشابّة، فليرقد إذن الرجل وحده في غرفته، ولتنمْ المرأةُ وحدها إلى جانبه)**، ولهذا نرى رمزياً رفض الملك البابليّ "جلجامش" إغراء "عشتار"، أيْ رفضه لشريعة العشواء، **(رُفِعتْ عنها جميع أثواب السيادة والسلطان، أيْ "أنانا"**

♦ [1]– لأسطورة هبوط (أنانا/ عشتار) السومريّة والبالبليّة والآشورية إلى العالَم السفليّ معنى تكويني قديم صحيح أيضاً قبل هذا المعنى الاجتماعيّ، يناسب فعالية مبدأ الخصب بعد تهيُّؤ كوكب الأرض، حيث نلاحظ أنّ حيوية المياه النقيّة بتشكّل الأنهار (أيا/أنكي)، هي التي بعثتْ مبدأ الخصب (عشتار) للحياة، على أنْ يكون له دورات نصف سنويّة في معظم المناطق، لذلك يتمّ التضحية بالخصب (دموزي السوري أو أدونيس)، أو يقتله "موت" الصيف، لمدةّ نصف عام تحت الأرض، هي نفسها غيبوبة البذور، فالخصب والتزاوج صار له فصول بنزول إنانا وتمكّنها من الأرض بإخصابها.

لقد صيغتْ قوانين العالَم الأسفل بعنايـــة واكتمـــال، فـــلا تُناقشي)، ولنشهد مع إذلال "النظام القديم" تحـــوّلاً بعدئـــذٍ "للقوّة الخصبيّة والغرائزية/ عشتار"، "**لتلبس ثوب الطهارة**" ولتخدم نظام الحكْمة والأسْرة، نظام الحياة الجديـــدة (إيـــا) نظام النقاء والنجاة (أنكي) وشريعة الله (إيل)، لهذه الشريعة العليا، تمّ إفراد آدم لحوّاء فقـــط، وحـــوّاء لآدم وحـــسب، وإسكانهما الجنّة الأرضيّة قبل آلاف السنين كما قال تعـــالى **(يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ)**(البقرة:35).

أنانا وشوكاليتودا: لذا نجد بروز (فكرياً واجتماعياً وعلـــى المستوى الرمزي اللّغوي والأسطوريّ) دورُ قيِّمـــة النـــسل (عشتار) في هذه الحقبة: كخطّابة، ونسّاجة، وكاهنة تقـــف مع قيم الشرف وتُعاقب منتهكها كما في أســـطورة "**أنانـــا**" والبستاني[1] "**شوكاليتودا**"؛ حيث تحكي أنّ فلاّحاً دؤوباً لاقى ظروفاً صعبة في حقله حتّى اهتدى لفكرة التظليل بالأشجار

♦ [1]– راجع هذه الأسطورة في: خزعل الماجديّ، **إنجيل سومر**، ص 159؛ صامويل كريمر، **من ألواح سومر**، ص 146؛ فاضل عبد الواحد علي، **سومر أسطورة وملحمة**، ص 110؛ فاضل عبد الواحد علي، **عشتار ومأساة تموز**، ص61؛ وديع بشور، **الميثولوجيا السوريّة– أساطير آرام**، ص 77؛

♦ http://www.piney.com/InanaShu-kale-tuda.html .

الضخمة لحماية مزروعاته (اسم الشجرة "**سربيتو**")، لكّـــن حقله قد أبادته البلايا وفرّ هارباً لأنّ الدماء مـــلأت الآبـــار والرياح عصفت بالبلاد، ذلك لأنّه اغتصب فتاةً في حقلـــه هي نجمه السماء أي "الربّة إنانا" (أيْ دنّس "العناية الربّانيّة" نفسها).

وواضحٌ أنّ الأسطورة في الوقت الذي تُعلّم تجويد أســـلوب الفلاحة وتحضّ على الجدّ والابتكار والعمل الـــدؤوب، إلاّ أنّها تربط أيضاً بين السلوك الاجتماعيّ والطبيعة، أيْ بـــين الرّوح والمادّة، فالعبقريّة والجدّ ما لَم يرتبطا بنسك أخلاقيّ كافٍ واحترامٍ للمقدّس فإنّ لعائن الطبيعة تتـــرى وتتـــوالى، وهي–الأسطورة– إذْ جعلتْ من الفتاة النائمة تحـــت ظـــلّ الشجرة لتستريح هي أنانا ونجمة الـــسماء والربّـــة، لكـــي تُوحي لكلّ أحد: أنْ لا تغتصب فتاةً في الطريـــق أو فـــي الحقل على ذمّة الشريعة السالفة بعد نسخها، فلربّمـــا هـــي أنانا–عشتار نفسها متلبّسة، فتُصيبك اللّعائن والبلايا، فهـــي أسطورة وعظيّة، تُشبه في الوصايا الأخلاقيّة (لا تـــردّ أو تُحقّرْ سائلاً فربّما هو ملَكٌ جاء يمتحنـــك، أو أنّهـــا يـــدُ الله تختبرك) ودليلنا – أنّها وعظية في صيانة النفس الإنـــسانيّة عن الإباحة القديمة والجاهليّة الأولى الغرائزية التي منـــع

الإسلام من العودة إليها[1]– هو اسم الفلاّح والشجرة. فما هما؟

إنّ هذا الاسم المُعقّد لنا فيه وقفة، فبناءً على أنّ السومريّة لهجة عربيّة (عاميّة) قديمة، وبناءً على أنّ الأساطير مفاتيحها مخبوءة في شخصيّاتها وأسمائهم، إذ أسماؤهم ليست اعتباطيّة بل قصديّة فالاسم هو مفتاح روح الأسطورة، نجد هنا اسماً طويلاً هو في الحقيقة أشبه بجملة **(شوكاليتودا)**، فالشعب الذي يُسمّي نينا، أنكي، أيا، مردوخ، لولو، إيتانا.. لا يُمكن أنْ ينحو للتعقيد باسمٍ هذا طولُه، لاسيّما في أسطورة ينبغي حفظها شعبياً وتناقلها شفوياً، ما لمْ يكن ذا دلالة ذهنية قريبة إلى المعاش وإلى الأفهام، إنّ الأسطورة أعطتْ بُعْداً آخراً لـ (أنانا/ عشتار) غير شريعة الخصب، هو عدم تعدّي القيم ونظام الزوجيّة

♦ [1]– تبرّج الإناث وتعرّضهم للذكور في عقيدة الخصب كما في الممالك الحيوانيّة أمرٌ مرغوب، لكنْ لا في عقيدة الأسرة وشريعة الخلافة الربّانية، لأنّها غدتْ جاهليّة أولى:(وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى) (الأحزاب:33)، وتمعّن فقط في كلمة "**الأولى**"، ولماذا أُضيفت هنا، لتدلّك أنّ المقصود ليس مجتمع الجاهليّة قبل البعثة النبويّة، بل الحقبة التاريخية الموغلة في القدم، "**الأولى**" في الحقب البشريّة، فالقرآن قد استخدم لفظ "**الجاهليّة**" وحده للدلالة على حقبة ما قبل البعثة (يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ)(آل عمران:154)، (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ)(المائدة:50)، (إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ)(الفتح:26).

مهما بلغ الشوق وإن أخذ عقل الرجل بجمـــال فتـــاةٍ ولـــو مستلقيةٍ أمامه أو تحت طائلته، فلْيمنعْ نفسه أنْ ينزو عليهـــا نزْوَ الفحول المنساقة، والبستاني لمْ يُمـــسك نفـــسه جنـــسياً فاعتدى، فالأسطورة أرتنا كيف تشرّد وحلّ عليه غـــضبُ الطبيعة ولعائنُها مع أنّه كان خادماً للطبيعة عارفاً بأسرارها بدليل اهتدائه لغرس الشجرة الوارفة "**سر– بيتـــو**" وهـــذا الاسم لنا فيه وقفة، إنّ "**سر– بيتو**" هي "سرّ البيـــت"[1]، أيْ نظام الأسرة نفسه، الزوج والزوجة، لا الإباحة والعـــشواء والاختلاط، هذه هي الشجرة الوارفة الظلال فـــي الأزمنـــة كلّها: (**إنّها شجرة الـــ "سر– بيتو" ذات الظلّ العريض، إنّ ظلّها لا يزول، لا في الفجر، لا فـــي الظهيـــرة، ولا فـــي الغسق**)، إنّها كما تقول الأســـطورة التـــي تحمـــي حقـــل (المجتمع وأفراده) من زوابع الفتن وتبني أواصـــره. فمـــن غرس هذه الشجرة، شجرة الأسْـــرة، لا ينبغـــي عليـــه أنْ يُدنّسها، لأنّه مع نظام الأســـرة تظهـــر مفـــاهيم العـــرْض والشرف والنسب والعفاف، فهذه الأسطورة ترسم تهـــذيبيّاً

♦ [1]–"سر– بيتو"، إنّ حرف السين والراء "س ر" قد تُعطي دلالة "سرّ" أو "سور" أو "أسر"، حيث السومريّين يختزلون الكتابة من جهة، ومن جهة أخرى فكتابتهم خالية من صوتيّات الحروف اللينة، حروف العلّة، إذن؛ سواءً كانت "سربيتو" تعني "سرّ البيت" أو "سور البيت" أو "أسرة البيت"، فهو الأمر نفسه، أنّ الحرمة البيتيّة المقدَّسة هي التي انتُهكَتْ.

على مستوى الضمير تحاشي الاعتداء على أيّ فتاة وتدنيس عرضها، وانتهاك قيَم الأسَر، لأنّ وراء ذلك وبالاً عظيماً[1].

"شـــوكاليتودا" المنقولــــة عــــن نــــسختها بالإنجليزيــــة (Shukalletuda)، هي كما يلوح لنا (Shuk-alle-tuda) وباعتبار أنّه لا الغرب ولا السومريّون يلفظون العين، فهي بالعامّية: شوگ- اللّي- تْعَدَّى، أيْ الــشوق الــذي تعــدّى وتجاوز بصاحبه إلى الخطيئة.

إذن فالأسطورة تدعو إلى المحافظة على شريعة "إيل" فـــي الأسرة وتسييد القيَم الإنسانيّة الضابطة عن الهمجيّة فينــا، وهذا ما أُثِر عن "إيزيس" (وهي "حيزى" أيْ البصّارة) سيّدة وادي النيل قبل الألف الرابع ق.م والتي صـــارت مظهـــراً آخر لقوّة عشتار المُحافظة على الإنسان: **(وعقـــدتُ بـــين الرجل والمرأة، وقضيتُ بأن يحبّ الأبناء آبـــاءهم، لقـــد وضعتُ مع أخي "أوزوريس" حدّاً لأكل البشر)..**

♦ [1]- لعلّ هذه الأسطورة الوعظيّة بعدم انتهاك الطهارة الإلهيّة والنظام الربّاني وإلاّ فإنّ الطبيعة نفسها تُلاحق المنتهك بلعناتها ويأتيه الشرّ من حيث كان الخير يأتيه، تُحاكي أسطورة إغريقيّة جاءت على أعتابها، عن "أكتيون" و"أرتيميس" (وهي وجه إغريقيّ لعشتار-إنانا)، إذ بينما كان "أركتيون" يصطاد، فاجأ (الربّة) "أرتيميس" وهي تستحمّ في غدير عارية، فغضبت الربّة وحوّلته غزالاً فلاحقته كلابُ صيدِه ومزّقته. انظر: ماكس شابيرو، **معجم الأساطير**، ص29.

هذا التحوّل لدى (إنانا/ عشتار- القوّة الخصبيّة) **على صعيد الكائن** الإنسانيّ الواعيّ، هو الذي حوّلها لتعلّم ربّات الأسرة من النساء، النّسج، والزراعة، وممارسة دورها كخطّابة توفّق بين الرجل والمرأة، تحت اسم (عناة / حنّة/ أناة) في أساطير أوگريت، وتُصبح عقيدة "**عشتار**" التي همّها تناسل الناس، "**عشيرة**" أيْ الزوجة والصاحبة، وهي نفسها "**حنّة**" أو حنّاة/ حنّاث أيْ الزوجة، فيقوم الصدام بين الفكر "العشتاري" القديم و"العشيرتي" الجديد، صراع بين عقيدتيْن، بين المنسوخ والنسخ، بين الأرفع والأدنى، بين التقليديّ والجديد، بين التوحيد الاجتماعيّ والشرك، بل هذا التحوّل نرصده صريحاً، في تراث البابليّين، الذي حدا بـ"**إنانا**" للوقوف مع جلجامش بعد إهانته لها، وبعد دوره الكبير في إنجاء مدينته "أوروك" من ثورة الطبيعة وأعاصيرها (الثور السماويّ) الذي بدا ظاهراً وكأنّه عقابٌ سماويّ إجابةً لدعوات النساء الإباحيّات اللاّتي توجّهن لمعابد الأمّ الكبرى بضجيجهنّ ونياحهنّ واستغاثاتهنّ. فتأنْسن الفكر الإخصابيّ واقعاً، رُمِّز أسطورياً بوقوف عشتار إلى جانب جلجامش، كما قال تعالى **(فما بكت عليهم السماء والأرض)** ونقول: (بكت السماء عليه دماً)

(وقفت السماء إلى جانبه)، فكلّها رموز وتمثيلات ودلائل لهذا التآزر "الكونيّ/ الطبيعيّ– الإنسانيّ".



عشتار مع جلجامش

ونرى تخلّي "إنانا" عن شجرتها (**الخلبو** huluppu)[1] التي تُترجم أنّها الصفصاف أو الخالوب، ويبدو أنّها التيّ "تخلب" العقول، وهي شجرة الإغراء والإباحة نفسها، تلك التي استقدمَتْها إلى "أوروك" بعدما قطعتها رياحُ التغيير منْ مدنٍ أخرى على ضفاف الفرات (فرات الجزيرة العربيّة

♦ [1]– خزعل الماجدي، **إنجيل سومر**، ص 223؛ والمصادر الكثيرة التي تحوي "ملحمة جلجامش".

الأصل) بعد أنْ اعتمدت تلك القرى النّظام الجديد[1]، نظام إيل (الله)، فغرستها ورعتْها سنين في "أوروك" حين كان جلجامش على "هواه" حليفاً لهذا الفكْر القديم.

فالتحوّل يبدأ حينما أرادت "إنانا" قطّع هذه الشجرة، شجرتها، شجرة الخصب الطبيعي التي ابتدأت مع الخليقة الأولى، وعُدَّتْ شجرة خبيثة بالنسبة لمستوى الإنسان الواعي، مفارقة لمنحى الرسالات، وعقبةً في سبيل التطوّر الإنسانيّ، أرادتْ "العناية/إنانا" قطْعها من مدينة جلجامش "أوروك"، هذه هي المرحلة نفسها التي ظهر فيها دورٌ للفكر الخصبيّ والنّسليّ الملتزم بقوانين الأسرة والأبوّة

♦ [1]– بل الذي يبدو أنّ عقيدة الخصب التي كانت موجودة وظلّت منذ الإنسان الأوّل، كان أصلها شبه الجزيرة العربيّة، حيث نهر الفرات الأصل، جنوب العراق، وحيث تأتي تعاليم الأنبياء والمصلحين من هذا الجنوب، من هذه الصحراء، كرياح التغيير العاصفة مثلما جاء "أنكيدو" المنقذ، والناقض، لنسخ وإزالة شجرة الخالوب أو عقيدة الخصب والزواج المشاع، فاقرأ:

- Once upon a time, a tree, a huluppu, a tree --
- It had been planted on the bank of the Euphrates,
- It was watered by the Euphrates --
- The violence of the South Wind plucked up its roots,
- Tore away its crown,
- The Euphrates carried it off on its waters
- (The Sumerians. Samuel Noah Kramer, p. 199)

♦ وأيضاً:

- http://ccat.sas.upenn.edu/~humm/Topics/Lilith/gilgamesh.html

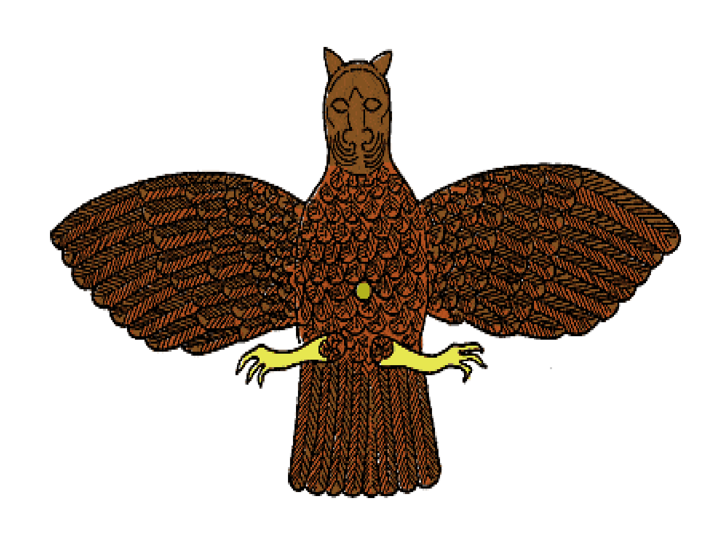
والمذعن لأطرها، أيْ – تمثيلياً- خضوع إنانا لجلجامش، بعد فشلها في إغوائه، وبعد إهانته لها ورفضه لتلك الشريعة البالية. فنجد أنّ جلجامش وائتماراً لنداء إلهيّ من ربّ الشمس (**أوتو**/حوطو =القدرة المحيطة) يقوم بقطع تلك الشجرة الخبيثة التي سكنت "الحية" (الغرائز) في أسفلها والشياطين في وسطها وأعلاها، فقطعها جلجامش وقتل الحيّة (الغرائز) وبعثر سكنتها من الشياطين (ليليت) إلى الخرائب المهجورة، و(طائر الزو"Zu" وفراخه- طائر السُّوْ بالعامّية أي السوء) – وهم مفكّرو هذه الشريعة وكهّانها- شرّدهم إلى الجبال.

لقد كان السومريّون دقيقين جدّاً حين قالوا (عين سو)، وهو رمز من فتح باب "السيّئات" والإباحيّة، وهو أصل كلّ "سوء" حصل للإنسان، رمزوا له على شكل طائر لأنّ أصله مع الملائكة، هو إبليس، حين كان طاووس الجنّة، فتقول أسطورة (أن–زو) المكتوبة في ثلاثة ألواح (Myth Of Anzu) أنّ (أنزو/عين سو) كان طائراً في الجنّة، نظر بـ (عين سوء) ونظرةِ حسدٍ إلى (إنليل) وتمنّى في قلبه الملوكيّة مكانه، وأراد سرقة ردائه الربوبيّ منه وتغيير مصائر أرباب الأرض (سرقة لوح الأقدار)، وتمّت له بعد

انتظارٍ طويل تلك الفرصة، حينما تعـــرّى (إنليـــل) ونـــزل يستحمّ في ماء التطهير، بعد أنْ نـــزع عـــن رأســـه تـــاج الملوكيّة ورداء الربوبيّة. غضب الربّ الأعلى (آنو) وقرّر رشق (عين سو) بالنّار ورجمه عقاباً له، بواسطة (نـــين–نورتا Ninurta) وهو الجبل الناري القاذف المحيط بالجنّة، فصارت منذ ذاك حرَماً آمناً محظـــوراً إلاّ علـــى الأراوح الطاهرة تُدحر الشياطين بعيداً عنها بشُهب الملائكة (نـــين–نورتا = أصحاب النّار والشهب القاذقة)[1].

سنرى لاحقاً في بحث معصية آدم (وعصى آدم)، أنّ كـــلّ هذه الحيثيّات صحيحة، وأنّ إنليل المقصود هنا هو إنليـــل البشريّ، أيْ "آدم" بالخصوص، مثيل الـــربّ (إنليـــل)، وأنّ الشيطان سيسرق منه الذرّية لتغيير مصائر البـــشر (وهـــم أرباب الأرض المفترضون بعد جعل آدم خليفتها).

♦ [1] – تكملة شرح أسطورة طائر (آن–سو) في بحث **وعصى آدم**، الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.



رمز طائر عين السو (آن–سو) (له وجه الشيطان)

تاسعاً – في ملحمة جلجامش (*The Epic of Gilgamesh*):

نشهد سيرورة التحوّل الفكريّ لدى جلجامش مــن النظــام القديم العشتاري الإباحيّ إلى نظــام "إيــل/ الله"، بــدخول شخصيّة تُدعى (إنكيدو Enkidu) (إن/ آن/ عــيْن: عــين/ رقيب/ سيّد/ مسئول + كيدُ: قيْد/ أسْر[1]) فهو ســيّد النّظــام

♦ [1]– نلاحظ أنّ اللّهجة عربية بحتة (فحرف "العين" لدى السومريّين ولدى المترجمين الغربيّين أيضاً يُنطق "ألِف": لذا فإنّ (آن–كيدُ En-kidu)، مكوّنة من مقطعيْن، الأول: "إنْ أو آن" بالإمالة (En)، يعني "عين" كما تُلفظ بالعاميّة أيْ المسئول والراعي والرقيب والحارس والربّ والمُعيَّن، والمقطع الثاني: "كيدو" والقاف تُلفظ كاف في لهجات عربيّة كثيرة كما هي لدى الغربيّين، والواو الأخيرة في السريانية، مثلها مثل الألف الممدودة في

الجديد والأسْرة، والمبشّر به ضدّ الإباحة، لذلك يرمــزون لمظهر الخصب (دموزي) بثور له رأس إنسان، أمّا أنكيدو الإنسان "**النبيل**" "**العظيم**" "**شبيه الآلهة**" "**سليل نينورتا**" "**نجم السماء**" "**شهاب آنــو الثاقــب**"[1] فهــو مــروّض الرمــز الإخصابيّ، أو قُلْ مؤنسن الجموح الجنسي وكابح العشواء والثور الهائج، فهو أشبه بنبيّ أو مُصلح، لذلك كان يُفــسّر أحلام جلجامش والمُرشد الذي يُبصّره بالطريق ومخــاطره إلى المزار الإلهيّ البعيد كما فــي قــول جلجــامش عنــه **(وأحظى بصديقٍ ومُرشد)**، هــو مُرســلٌ مــن الله، وهــو استجابة المظلومين، جاء مــن الــصحراء ومــن غابــات

الفينيقيّة، هي الضمة أو تنوين الضمّ في الفصحى، فكلمة "قيدُ" كما نلفظها يكتبها الغربيّون "kidu" وهي تعني: القيْد والنظام والأسرة والرابطة والعقد والوثاق والعلاقة والنسب والصّهر فكلّها بمعنى واحد يدلّ على الالتزام، ومنه جاءت الأسْرة، وعقد الزواج، وروابط العائلة وعلاقة الأب بالابن، فكلّها روابط، وقيود، وأُسَر، وتنظيم، كما سبق وأخبرت "إيزيس" أنّها دشّنته في حضارة مصر النيل، وفعله "قدموس" الفينيقيّ في اليونان. كما لا يمنع أنْ تعني "أنكيدو" "النقيض" للفكر القديم، أو "أنقض" أي "المقوّض" للنّظام القديم، أو أسهلها وأدلّها أنّه (أنقذ) إذْ القاف كاف، والذال دال لدى أهل سومر، كما لدى كثيرين وللآن، فأنكيدُ هو "المُنقذ" الذي جاء استجابة السماء لاستغاثات أهل أوروك.

♦ [1]- هذه هي أوصاف "أنكيدو" حسب اللوح الأوّل من الملحمة، و"سليل نينورتا" نين نورتا هي ربّة الجبل المزهر، وهي جبال السراة، حيث المزار والمركز الربّانيّ، فهذا دليل آخر على ارتباط أنكيدو بالتوجيه الإلهي بشكل ما، أمّا "شهاب آنو الثاقب" "آنو" إله السماء، فهم نجم السماء الذي يهدي من الظّلَم والشهاب الذي ينقضّ.

الجبال، أي منْ المركز[1] فتقول الأسطورة عنـــه أنّ القـــوّة الإلهيّة (**خلقت في الصحراء أنكيدو البطل**)، (**رجلٌ آتٍ مـــن قلب البادية، ليس في البلاد مـــن يُـــضاهيه بأســـاً**)، بـــل والأسطورة اقتبست شيئاً من مفهومها عـــن الخلْـــق الأوّل فقالت عن القوّة الربّانيّة (**صنعت صورةً من فكرهـــا مـــن جوهر السماء، غسلتْ بالماء يديها، وانتشلت من الطـــين غرزة، رمتها في السهل (الفلاة)، فصنعت أنكيدو النبيـــل، ابن الفضيلة، جوهر "تينورتـــا"**) اللّـــوح الأوّل- العمـــود الثاني. وقد كان جلجامش يرى منامات فـــي قـــدوم هـــذا المبعوث تأخذ بيديه، وكأنّه صخرةٌ مـــن الـــسماء هبطـــت بقربه.

إذن على يديْ "**أنكيدو**" اهتدى "**جلجامش**" ("**جلْ**": بادئة تأتي أمام أسماء القوى والملوك، بمعنى: جلّ وعظم فهو العظيم + "**جامش**": هي جاموس بالإقلاب بـــين الـــشين والـــسين، وللآن بعض اللّهجات تنطقه (گامُوسْ وگـــامُوش) والنّـــوع الوحشي منه يُعدّ من أقوى وأشرس الحيوانات على وجـــه الأرض تهابه حتّى الأسُود، وقُدرته على تخصيب الإنـــاث

♦ [1]– هذا المركز كان منذ الدهر في غرب شبه جزيرة العرب، حيث الصحراء، وغابات الجبال، جبال السّراة.

هائلة جدّاً، فهو الثور القويّ العظيم) لذا جاء في الأسطورة **(الأرباب العظام جعلوا جسده كاملاً، يفوق الجميع، مخيف كالثور البرّي)**، وأورد النصّ استغاثة شعب أوروك بالربّ من طغيان جلجامش حين كان مستبداً ويتبع شريعة الإباحة لا التنظيم **(أنتَ الذي خلقتَ من جلجامش جاموساً هائجاً)**[1].

فهو – جلجامش– الجاموس/الثور العظيم، لفرط قوّته وفحولته ضمن شريعة الخصب التي تحكمه: **(إنّ شهوة جلجامش لم تترك عذراء لحبيبها، لا ابنة المحارب، ولا زوجة النبيل)**، لكنّه حين تحوّل فكره إلى النظام الأسريّ / الذكوريّ على يد المبعوث له والمُنقِذ "أنكيدو" وبعد رحلته الأسطوريّة، بدأ صراعه مع الثور الوحشيّ/النّظام القديم الذي كان يُمثّله سابقاً، بدأ الصراع بين الرسميّ والشعبيّ، بين الجديد والقديم، فيقول لصديقه أنكيدو: **(يا صديقي رأيتُ لتوّي حُلماً، أنا وبقرٌ وحشيّ كنّا في نزاع)** اللّوحة الرابعة، وفعلاً واجه جلجامش بعد عودته من غابة الأرز واهتدائه على يد أنكيدو، واجه نظام الإباحة (عشتار) وقضى على ذاك النظام الغرائزي السائد قبلاً **(نظام السماء المنسوخ)**،

♦ [1]– رينيه لابات وآخرين، **سلسلة الأساطير السورية**، ص 174.

وقد رمزتْ الأسطورة محاولة النّظام القديم استمالة جلجامش ومداهنته برمز أسطوريّ يُحْكى على لسان عشتار (رفعتْ عشتار العظيمة عينيها فرأتْ جماله: **هلمّ إليّ يا جلجامش وكنْ عشيقيّ، امنحني بذرةً من جسدك، دعني أصبح زوجتك وتكون زوجاً ليّ)** لكنّ جلجامش الذي طلّق هذه الشريعة ثلاثاً، لمْ يُداهن، فجاءتْ الأسطورة تصف لسان حاله، لبؤس هذا النّظام الذي لا يصنع علاقات أسريّة ولا مجتمعيّة دائمة بل علاقات غرائزيّة فقط لا تُقيم مجتمعاً ولا روابط دائمة وقت الحاجة، فردّ عليها (**أمّا أن تُصبحي زوجةً لي فلن يكون، فماذا يكون مصيري إنْ صرتِ لي زوجة؟ بل ماذا كُنتِ بالنسبة لعُشّاقك يا عشتار؟ إنّك الموقد الذي ينطفئ وقت البرد، الباب الذي لا يقي صاحبه نفخ الريح، إنّك القلعة التي تسحق حاميتها، القارُ الذي يتّسخ به حاملوه، الضِرف المثقوب الذي يُبلّل ظهر حامله، والحجَر الذي يسقط على الأسوار، والحذاء الضيّق الذي يلسع رجْلَ لابسه، فأيّ عشّاقك أحببْتِ إلى الأبد؟!)** اللّوح السادس–العمود الأوّل، فهذا كلامٌ تمثيليّ عرفانيّ في نبذ شريعة الغرائز وتقديسها، يُشبه كلام مولانا عليّ (ع) في خطابه مع الدنيا: (**يا دنيا أبي تعرّضْتِ أم إليّ تشوّقتِ،**

هيهاتَ هيهاتَ، لا حانَ حينُك، غُرّي غيري، لا حاجةَ لي فيكِ، قد طلّقْتُكِ ثلاثًا لا رجْعة فيها)[1].

وبدا – من التزامن الظرفيّ– أنّ الطبيعة استشاطتْ غضباً ضدّه **بالأعاصير** والجفاف **(الثور السماوي)** لكنّه تغلّب عليها واجتاز الظرف الصعب، وتغلّب على كلّ تمرّد اجتماعيّ من قبَل العشتاريّين أيْضاً الذين قطعاً أوعزوا هذا الجفاف وكوارث الطبيعة من غضب الأمّ العشتارة، وأوغل في (تحقيره أو إهانته آلهة الأنوثة العظيمة لفترة عهد الأمومة)[2]، حتّى نرى في الملحمة كيف تُطلق حشود النساء والبغايا مشاعرهنّ في البكاء والنواح جرّاء الإذلال والتحقير :**(عندها، جمعت عشتار كاهنات المعبد، وبنات**

- [1]– ابن شهر آشوب، **مناقب آل أبي طالب**، ج1، ص370؛ الواسطي، **عيون الحكم المواعظ**، ص556.
- [2]– حسب تعبير: دياناكوف، **جماليات ملحمة جلجامش**، ترجمة: عزيز حداد، ص71، نقلاً عن ناجح المعموري، "المسكوت عنه في ملحمة جلجامش"، **مجلّة ألواح**، العدد : 12 – 2002،
- (http://www.alwah.com/magazine.htm)

الهوى والمحظيّات، فوق فخذ الثــور ينتحــبن) اللّوحــة السادسة من الملحمة[1].



جلجامش وأنكيدو يقضيان على الثور السماوي، ثور عشتار التي تُرى في الخلف

ختام الفصل:

أثبت تراث الأولّين بزوغاً بشرياً من الطين خرج كما يخرج الحشيش، وظلّوا غير مذكورين للأربــاب (الملائكــة)، ثــمّ قــرّرت السماء أنْ تجعل ملكاً للأرض من هذا المخلوق الذي هو موجــود، فتمّ تخليق زوجٍ منه، إلى إنسانيْن (إنليل ونليــل أيْ آدم وحــوّاء)،

♦ [1]– لمراجعة نصوص الملحمة كاملة انظر : طه باقر، **ملحمة كلكامش**؛ وغيره من مصادر.

وذلك بعد إعادة تخليقه في طين الجنّة وماء كوثرها، من مزيج بشرٍ وإله.

كما نستنتج أنّ كلّ مظاهر الصراع بين البشريّ والإنسانيّ الذي فينا[1]، بين الهمجيّ والعاقل، بين الغرائزي والعقليّ، بين الإباحي والمنظّم، المدوّن في تراثنا بأساطيره ورموزه، ليس له إلاّ معنىً واحدٌ؛ هو أنّ الحالة البشريّة بطبيعتها البدائيّة قد سبقت الحالة الإنسانيّة، خلْقاً ونظاماً، أيْ "البشرية الهمجيّة" اللاواعية أوّلاً ثمّ أعقبها "البشريّة الإنسانيّة" الواعية، وهو نفسه الصراع بين النفس الحيّة (حياة الجسد) **وبين النسمة الروحانيّة، حسب المندائيّين، أو "الحيّة والنّسر" حسب البابليّين، حيث الحيّة أسبق خلْقاً وأخلد للأرض، والنسر أقرب سماوياً، فالحيّة مكوّن بشريّ، والنّسر مكوّن إنسانيّ، وهذا ما نجده في "أسطورة إيتانا والنسر" التي سنترك تفسيرها إلى بحث (وعصى آدم)، هذا الصراع بين**

♦ [1]– حتّى الصراع بين جحود الخالق أو إنكاره أو الشرك به من جهة وبين التوحيد التي هي أدلّ علامة على إشراقة الرّوح، هذا الصراع الذي قاده الأنبياء في كلّ محطّة زمانيّة وكان أوّل بنودهم (وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ)(النحل:36)، هو صراع بين ثنائيّة جهلنا وعقلنا، بين غرائزنا وروحنا، بين بشريّتنا إذا طغتْ وقادت، وبين أثر الروح الربّانيّ الذي فينا ليُعلينا إنْ كُنّا مؤمنين، وهو نفسه الصراع بين الأرض والسماء، أو بين العماء والنظام الربّانيّ الجديد حسب الأساطير.

البشريّ والإنسانيّ، نجده أيضاً لدى إرساء "إيزيس" قوانين الـــسماء في بدء حضارة مصر ضدّ الحالة الهمجيّة، وبين "إنانا والبـــستاني" ضدّ الغرائزيّة المنفلتة الخارجة عن قانون الأسرة وسرّ نظام البيـــت "سر- بيتو"، وبين "جلجامش وعشتار" ضدّ الإباحة وفـــي "طوفـــان نوح مع البشر" ضدّ الكفران والنسل الخاطئ والوجود شبه الهمجيّ، ومع "قدموس وأبناء التنين" ضدّ التوحّش الأوّل.

الفصل الرابع

إشكالات ومعارضات

تمهيد:

لا يسعُنا، مهما بذلنا، أنْ نستقصي الإشكالات التي يُمكـن أنْ تطرأ في الأذهان، وبالذّات أذهان المُعضلين والمماحكين، وحتّى لو استطعنا استقصاؤها فلن نتكلّف بالإجابة عليها أو تغطيتها، لأنّه ليس من شأننا تلقين المعرفة بإعداد الأجوبة وتجميد عقل القارئ الباحث واستتباعه، ولكن يسعنا هنا مناقشة بعض منها إرساءً للمنهج الذي قد يأخذ بيد القارئ لاجتياز تلكم الإشكالات بنفسه.

أولاً – حديثٌ شريفٌ للنبيّ (ص) يُوحي بالعكس:

لقد قال نبيّ الأمّة (ص) في بيانه الختاميّ في حجّ الوداع "**كلكم لآدم وآدم من تراب**"[1]، فآدم من تراب، لا وليد بشر همج، فما الجواب؟

♦ [1]– ابن شعبة الحراني، **تحف العقول**، ص30.

لم يكن ليقفز أيّ إشكال في قول النبيّ (ص) لــو لــمْ تكــن صورة التفسير التوراتي منحوتةً في أذهاننا، فالعقلُ يجد صعوبةً فــي إزاحة صورة راسخة واستبدالها بأخرى، بدليل أنّنا نقرأ قوله تعــالى **(وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ)**(البقرة:187)، فلو كانت الصورة المتوارثة –افتراضــاً– لمئــات السنين في تحديد الفجر هي بأنْ يخيط كلّ شخص خيطاً أسود وآخــر أبيض في كمّ قميصه، ويتفحّصهما في آخر الليل، فإنْ استبان هذا من هذا فقد حان وقت الفجر، (للعلم فإنّه فعلاً قد جاءت مــأثورات مــن التفسير بهذه الصورة)، فسنجد أنفسنا أسارى نُناهض أيّ تفسير بــديلٍ آخر، مع أنّ الآية الشريفة لا تقول هذا، ومع أنّ الليلة القمراء تُفــسد العمليّة الفحصيّة هذه، لكنّنا لو أتينــا بالتفــسير الــصحيح، وكانــت الصورة المنقوشة في الذهن التراثيّ الــدهري هــي تلــك، لــصرخ صارخ: الله يقول "**خيط**" وأنت تريد أنْ تُقنعنا بأنّه خطّ الأفق[1]؟! إنّمــا هذا مثال، وما أكثر مثلها على هذا المنوال، نعيشها ونتنفّسها ونحن لا نشعر.

♦ [1]– **خيط:** الخاء والياء والطاء أصلٌ واحد يدلّ على امتداد الشيء في دقة، ثمّ يُحمل عليه .. فالخيط معروف، والخيط الأبيض: بياض النهار، والخيط الأسود: سواد الليل. ابن فارس، **معجم مقاييس اللغة**، باب الخاء والياء وما يُثلثهما، ص 319.

إنّ الإنسان الذي تسلّح بالوعي، وتحرّر من قيود وسطوة إرْث الاستبداد العقائدي أو الاجتماعيّ، سيسهل عليه أنْ يتبيّن الحقّ في هذا وغيره، فإنّ بيان النبيّ الكريم (ص) في النصّ وعظيّ، ورَد في مساق النّهي عن العصبيّة والافتخار بالجنس أو باللّون أو بالنسب، بدليل إشفاعه بقوله (ص): **(لا فضل لعربيّ على أعجميّ ولا لأبيض على أسود إلاّ بالتقوى)**، وهل هناك أحطّ من التراب، لينفي هذا الغرور فينا؟! فالنبيّ (ص) بروحانيّته العُليا أرصد لنا أمريْن:

1- أنّ الإنسانيّة جمعاء مُتحدّرة من آدم لا مِن غيره معه كما يزعمُ بعض المفكّرين العصريّين، وأنّ ميزة آدم هي الإنسانيّة والقِيَم وعلى رأسها التقوى، وهو وعي الألوهة، فبهذا آدم هو أبو البشر الإنسيين جميعاً.

2- أنّ هذا الأصل من حيث لونه، وجنسه، ومادّته، هو من تراب، وسيعود للتراب، ففيم الافتخار؟ فليفْخرْ المرء بباقٍ من معالي الأمور لا بزائل.

لكنّ السؤال الأهمّ الذي سيُزيل التوهّم الباليّ: هل آدم وحده المخلوق من تراب؟

الجواب: لا، كُلّنا من تراب، فالنصّ لمْ يضع أنّ آدم "وحده" من تراب، وإلاّ لناقض القرآن، ولمْ يقل كلّنا "من آدم"، بل

"**لآدم**". وهذه نقطة جوهريّة نفكّ معها أيضاً بعض الآيات العالقة، التي احتاج المفسّرون إلى ليّها فيما يُسمّونه بـ (تأويلها):

(أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)(الكهف:37)

(فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)(الحج:5)

(وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)(الروم:20)

(وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)(فاطر:11)

(هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ)(غافر:67)

فلماذا يُخاطَب في جميع تلك الآيات أبناءُ آدم صراحةً بأنّهم خُلِقوا مِنْ تُراب لو كان آدم وحده مخلوقاً من تراب دون الجميع؟!

إذن، ليس آدم وحده المخلوق من تراب لنقوم بتصوّر تمثال الطين الأجوف من حديث النبيّ (ص) الآنف، بل كُلّنا خُلقنا من تراب، فهل كُلّنا صُنع تمثالاً طينياً تُرك فترة ليجفّ؟ كُلّنا بمن فينا آدم من تُراب، تعني أنّ هذا الجنس البشري برمّته الذي أمامنا مع الذي باد والذي سيأتي، خُلق مِن تراب في بداية بزوغه (وللآن فمادّة جسمه ترابيّة)، ثمّ صار خلْقُه مِن نطفة الزوجيْن، وفي زمنٍ ما مِنْ

الدهر، نُفخ في أحد أولئك البشر –من أنسال تلـــك الـــسلالة– روحـــاً ربّانياً بعد أنْ عُدّلت جيناته ليكون إنساناً (وهو آدم)، ومـــن شـــجرته وذرّيته جاء البشر –النّاس، كما مِن أشجار غيره استمرّ ينسلُ البشر– الهمج حتّى بادوا، فكُلّنا بمن فيهم آدم "**من ترابٍ**" كجنس بشريّ، وكُلّنا بمن فيهم آدم "**من نطفة**" باعتبار كيفيّة تولّدنا، وكُلّنا وصـــلتْنا نفخـــة الروح كوننا من أبناء آدم، سوى أنّ آدم أودعت فيه الرّوح مباشـــرة (خُلق بيد الله) ونحن استلمناها بالوراثة، وعيسى (ع) اســـتلمها كـــآدم مباشرة أيضاً.

وأيضاً الفرق بيننا وبين آدم هو كالفرق بين عيسى (ع) وبين آدم، هو:

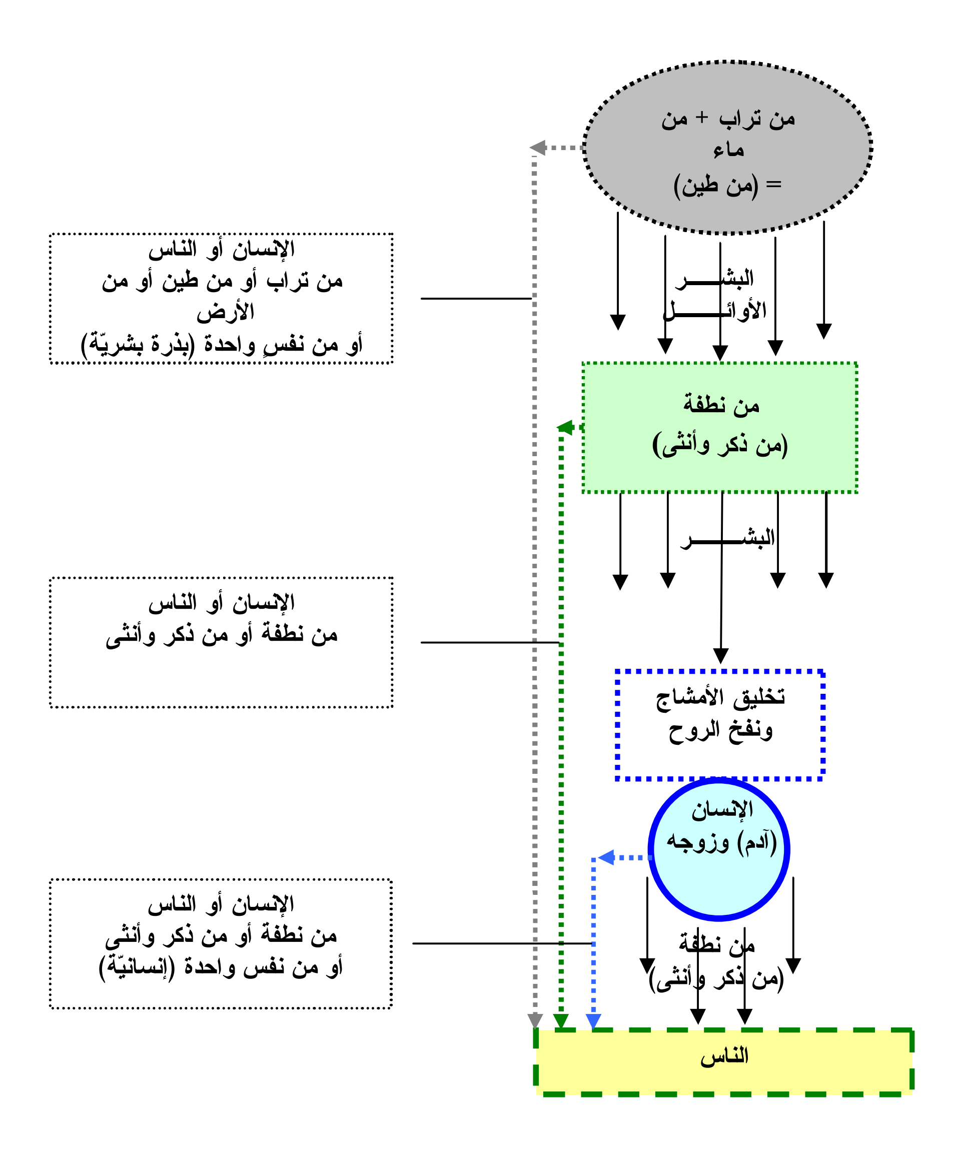
- آدم (البشر ذو الرّوح) تولّد جسمُه من (البشر الترابيّ الخالي مـــن الروح)،
- عيسى ونحن (البشر ذو الرّوح) تولّدتْ أجسامُنا مـــن (البـــشر ذي الرّوح)،

لذلك خصّ سبحانه آدم دون عيسى (**إنّ مثل عيسى عنـــد الله كمثل آدم، خلقه** – لا خلقهما– **من تراب ثمّ قال له كن**)، لكن الجميع آدم وبنوه كلّهم ومن قبله أيضاً من بشر، مخلوقون من تراب باعتبار أصلهم الأوّل.

فنخلص إلى أنّ:

- آدم مخلوق من تراب/ طين، والبشر كلّهم مخلوقون من تـــراب/ طين، بشكلٍ مباشر أو غير مباشر.
- آدم مخلوق من نطفة (من ذكر وأنثى) وأيضاً كـــلّ البـــشر قبلـــه وبعده، عدا البشر الأوائل الذين خُلقوا من الطين مباشرة وخرجوا بالغين رجالاً ونساءً.
- الإنسان/الناس مخلوقون من ذكر وأنثى، لأنّهم من آدم وحوّاء.
- الإنسان/الناس مخلوقون من نفس واحدة: فتعني مـــرّةً: الأصـــل الأوّل أيْ الخليّة الأولى التي نشأت في الطين قبل أنْ تنقسم إلـــى جنسين. وتعني مرّة أخرى: النفس الإنسانيّة بشفرتها المتميّزة عن البشر السابقين.

وللتوضيح تأمّل الرسم التالي:



من تراب + من
ماء
(من طين) =
البشـــــر
الأوائـــــل
من نطفة
(من ذكر وأنثى)
البشـــــر
تخليق الأمشاج
ونفخ الروح
الإنسان
(آدم) وزوجه
من نطفة
(من ذكر وأنثى)
الناس
الإنسان أو الناس
من تراب أو من طين أو من
الأرض
أو من نفسٍ واحدة (بذرة بشريّة)
الإنسان أو الناس
من نطفة أو من ذكر وأنثى
الإنسان أو الناس
من نطفة أو من ذكر وأنثى
أو من نفس واحدة (إنسانيّة)

(الشكل -3)

ثانياً – مأثورٌ للإمام عليّ (ع) يُوهم بالنقيض:

لقد وصف مولانا عليّ (ع) خلق آدم في نهج البلاغة، بما يُحاكي التوراة ظاهراً، فما هو الجواب؟

الخطبة هي: (**ثُمَّ جَمَعَ سُبْحَانَهُ مِنْ حَزْنِ الأَرْضِ وَسَهْلِهَا، وَعَذْبِهَا وَسَبَخِهَا، تُرْبَةً سَنَّهَا بالمَاءِ حَتَّى خَلَصَتْ، وَلاَطَهَا بالبَلَّةِ حَتَّى لَزَبَتْ، فَجَبَلَ مِنْها صُورَةً ذَاتَ أَحْنَاء وَوُصُول، وَأَعْضَاء وَفُصُول: أَجْمَدَهَا حَتَّى اسْتَمْسَكَتْ، وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْت مَعْدُود، وَأَجَل مَعْلُوم، ثُمَّ نَفَخَ فِيهَا مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْساناً ذَا أَذْهَان يُجِيلُهَا، وَفِكَر يَتَصَرَّفُ بِهَا، وَجَوَارِحَ يَخْتَدِمُهَا، وَأَدَوَات يُقَلِّبُهَا، وَمَعْرِفَة يَفْرُقُ بِهَا بَيْنَ الحَقِّ وَالبَاطِلِ ..**)[1] نهج البلاغة – الخطبة الأولى.

فالمتأمّل في خطبة مولانا عليّ (ع) لا يرى فيها أمراً يُخالف الحقيقة القرآنيّة في شيء، بل هي توضّح ما نحن بصدده، أنّ الخلْق البشريّ، وهم الجبلّة الأولّون (**وَاتَّقُوا الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأَوَّلِينَ**)(الشعراء:184) هم الذين تمّت عليهم عمليّة الجبْل في الطين، فالجبْل من الطين تمّ على المخلوق البشري قبل آدم بدهر، لا على آدم الإنسان كما زعمت التوراة.

♦ [1]– الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، ج1، ص20.

فالجبلّة الأوّلون خلْقٌ بشريّ حـــيّ وليـــسوا تمـــاثيلاً جوفـــاء جامدة!، فنصّ التوراة يقول **(وَجَبَلَ الرَّبُّ الإله آدَمَ تُرَابا مِـــنَ الأَرْضِ وَنَفَخَ فِي انْفِـــهِ نَـــسَمَةَ حَيَـــاةٍ. فَـــصَارَ آدَمُ نَفْـــسا حَيَّةً)**(التكوين 7:2) وفي النصّ العبريّ بدلاً من "جبَل" "صـــوّر"، لكنْ المشكلة لا في "جبل" أو "صوّر" بل "جبل آدم تراباً مـــن الأرض"، أيْ صوّره هيكلاً جامداً بلا حياة كما يُصنع الفخّار، ثمّ نُفخت فيه نسمة حياة، الأمر كلّه، مِنْ رأسه إلى أخمـــصِه، خاطئ. (انظر الصورة التالية).



جبْل آدم من الطين مباشرة كالفخّارة، تصوّر توراتي خاطئ

وعليّ (ع) قال "**جبَل صورةً**" لكنْ لمْ يأتِ بعْدُ على "آدم"، وفي خطبةٍ أخرى له[1] يقول عن آدم: **(وجعله أوّل جبلّته، وأسكنه جنته وأرغد فيها أكله)**، والجبلّة: الخلْق، فلمْ يقل أنّه جبله مِنْ

♦ [1]– الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، "خطبة الأشباح"، ج1، ص 177.

تراب بلا نفْسٍ ولا حياة، بل تكلّم عنه مجبولاً ككائنٍ حيّ ذي نفس، بل وذي روحٍ أيضاً.

فقوله (ع) في النصّ أعلاه: (**وَأَصْلَدَهَا حَتَّى صَلْصَلَتْ، لِوَقْت مَعْدُود، وَأَجَل مَعْلُوم، ثُمَّ نَفَخَ فِيها مِنْ رُوحِهِ فَمَثُلَتْ إِنْساناً**). فقدْ قُلنا أنّ الـ "**أجل معلوم**" في النصّ هو نفسه "الأجل المقضيّ" وقد أخذ ملايين السنين وانقضى، وهو ما بين ظهور أوّل الكائنات البشريّة إنباتاً مِن طين الأرض، حتّى بثق أوّل كائن إنسانيّ (آدم) مِن سلالاتها، كما في قوله تعالى (**هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلاً وَأَجَلٌ مُسَمّىً عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ**)(الأنعام:2) وهو نفسه "**حينٌ مِن الدهر**" الذي لم يكن فيه الإنسان شيئاً مذكورا كما في سورة الإنسان:1. أمّا الأجل المسمّى فهو الـ 50 ألف سنة التي نحن فيها، عمر تجربة المحنة الإنسانية على الأرض، وهو الـ "**حين**" الذي في قوله (**وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ**)(البقرة:36).

وعليّ (ع) يتكلّم عن خلْق آدم، متجاوزاً تفصيل ما قبله من بشر همجيّين[1]، المخلوقين أساساً كقنطرة لوصول الإنسان كما في الحديث القدسيّ (**خلقتُ الأشياء لأجلك، وخلقتُك لأجلي**)[2]، فالبشر السابقون لآدم هم من جُملة الأشياء التي لأجله. وإلاّ

♦ [1]– ولمولانا عليّ (ع) كلام آخر عن خلق البشر قبل خلق آدم ينقله عنه حفيده الباقر (ع)، معلّقاً على ذلك أنّه وجد ذلك في كتابٍ لعليّ أمير المؤمنين (ع)، منه (.. فقال الله تبارك وتعالى: " (إِنِّي خَالِقٌ بَشَراً مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَأٍ مَسْنُونٍ، فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ)"، قال: وكان ذلك من الله تقدمةً في آدم قبل أن يخلقه واحتجاجًا منه عليهم، قال: فاغترف ربنا تبارك وتعالى غرفة بيمينه من الماء العذب الفرات – وكلتا يديه يمين – فصلصلها في كفه حتى جمدت، فقال لها: منك أخلق النبيين والمرسلين وعبادي الصالحين والأئمة المهتدين والدعاة إلى الجنة وأتباعهم إلى يوم القيامة ولا أبالي. ولا أسأل عما أفعل وهم يسألون، ثم اغترف غرفة أخرى من الماء المالح الأجاج فصلصلها في كفه فجمدت ثم قال لها: منك أخلق الجبارين والفراعنة والعتاة وإخوان الشياطين والدعاة إلى النار إلى يوم القيامة وأشياعهم ولا أبالي ولا اسأل عما أفعل وهم يسألون، قال: وشرط في ذلك البداء فيهم، ولم يشترط في أصحاب اليمين البداء، ثم خلط المائين جميعا في كفه فصلصلهما ثم كفأهما قدّام عرشه وهما سلالة من طين، ثم أمر الملائكة الأربعة: الشمال والجنوب والصبا والدبور، أن يجولوا على هذه السلالة الطين فامرؤوها، وانشؤوها ثم انزوها وجزّوها وفصّلوها وأجروا فيها الطبائع الأربعة: الريح والدم والمرة والبلغم، فجالت الملائكة عليها وهي الشمال والجنوب والصبا والدبور واجروا فيها الطبائع الأربعة فالريح من الطبائع الأربعة من البدن من ناحية الشمال، والبلغم في الطبائع الأربعة من ناحية الصبا، والمرّة في الطبائع الأربعة من ناحية الدبور، والدم في الطبائع الأربعة من ناحية الجنوب، قال: فاستقلت النسمة وكمل البدن ..). القمي، **التفسير**، ج1، ص38، فنرى أنّ الخلق كمل وبه نسمة، أيْ هو كائنات حيّة، وللآن لمْ يُنفخ فيه من الرّوح ليكون آدم ويُدعى الملائكة للسجود.

♦ [2]– الحر العاملي، **الجواهر السنية**، ص361.

كانت يدُ القدرة الإلهيّة قادرة على ابتداع آدم من دون هذه التفاصيل المذكورة، بل لمْ يكنْ ثمّة داعٍ أساساً لصنع آدم تمثالاً أجوف وبقائه برهةً مديدة من الزمن يُعبّر عنها **(وقت معدود، وأجل معلوم)**، لِمَ لمْ يتمّ صنعه - ما دام تمثالاً- مباشرة قبل نفخ الرّوح؟!. إنّ هذا الـ "**وقت معدود وأجل معلوم**"، هو نفسه "**ثُمّ**" التي بعده في النصّ، الذي سبق نفخ الرّوح الإنسانيّة التي صيّرت الكائن ذاك "**إنساناً ذا أذهان يُجيلها وفِكَر**" وشحذت جوارحه وأدواته ومداركه، ووهبته "**معرفة يُفرّق بها بين الحقّ والباطل**".

ولقد كان عليّ (ع) دقيقاً جدّاً إذْ قال "**فمثلتْ إنساناً**" ولمْ يقل "**بشراً**"، لأنّ البشر المخلوق من طين، هو نفسه هذا "التمثال الأجوف" **المتصوّر** في عقولنا! وإن كان لنا أنْ نُحسن الظنّ بتعبير "تمثال أجوف"، فلأنّ الكائن البشريّ الذي استُدرج إلى الجنّة، وقام الملائكة المُدبّرون باستلامه لإجراء عمليّة تخليقه وتحويله إلى آدم- الإنسان، هو فعلاً كائن أجوف من الرّوح الإنسانيّة، وهو لحظة أنْ كان بين أيدي الملائكة الصاقين المُخلّقين كان كالتمثال المُلقى بين يد الخزّاف، لا حولَ له وأشبه بالميّت بين يدي مُغسّله. لذلك لا نرى، سيّد الفصاحة والبلاغة مولانا عليّاً (ع) يتطرّق إلى أنّ التمثال البشريّ ذاك

قد دبّت فيه الحياة بعد نفخ الرّوح فيه! لمْ يــذْكرْ هــذا أبــداً! وكان الأولى ذكْر ذلك، بل هو الأولى والأولى لا سيّما فــي سياق الحديث عن خلْق الكائن الحيّ كما بيّن سبحانه **(إذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ)**(الروم:20)، وكما في **(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِــنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ .. رِجْلَيْنِ .. أَرْبَعٍ)**(النور:45)، فالانتشار والزحف والمشي والطيران (كما في معجزة عيسى مع الطير) هي ركائز وسمات انبعاث الحياة، بل نندهش إذْ نجد أنّ عليّاً الذي علّمه نبيّ الله (ص) مِن علْمه، لا يذكر أثراً للحياة البتّة ولا الحركة، ويذكر بــدلها آثــار العلــم والفكْــر والذكاء والمعرفة والحــذق وأدوات التــسخير؟ فلمــاذا؟ لأنّ "الرّوح الربّانية المنفوخة" التي هي مِــنْ أمــر الله، ببداهــة، ليست نفْس الحياة ودبيب الحرَكة، "فالتمثال"- في تــصوّرنا- الخالي من الروح، ما هو إلاّ كائن ذو نفسٍ حيّة سلفاً[1]، خلقــه الله في بيوض الطين وركّب أعضاءه -كما يقول علــيّ (ع) في بداية النصّ- حتّى آن أوان فقس تلك البيــوض الطينيّــة فتشقّقت الأرضُ عنهم وخرجوا وهو المُعبّر بــه **(صلــصلتْ:**

♦ [1]- وقد وضح حفيده الإمام الصادق(ع) هذا المعنى في قوله عز وجل: فإذا سويته ونفخت فيه من روحي" قال: إن الله عز وجل خلق **خلقاً** وخلق روحاً، ثم أمر ملكاً فنفخ فيه، فليست بالتي نقصت من قدرة الله شيئاً من قدرته".الصدوق، **التوحيد**، ص172، فيثبت أن هناك مخلوقاً سابقاً على نفخ الروح وليس مجرد طين.

التي واضحٌ أنّها القشرة التي تُحيط بالكائن الذي لــه "**أحْنَــاء وَوُصُول، وَأعْضَاء وَفُصُول**") فبعْد صلــصلة تلــك القــشرة بتشقّق طينها الجامد الواقي لها، بصوتٍ وقعقعات متلاحقــة، بعد تشقّق الأرض بالصلصلة "**نهــض البــشر كمــا يظهــر الحشيش**" حسب التراث السومريّ، هي نفسها صورة قيامــة الحشر في قوله تعالى (**يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ**)(ق:44). ثمّ عاشت تلك الأسلاف دهْراً فــي ذلك "**الأجل المعلوم**" "**ثُمّ**" بعدها آن أوان مــدّ البــشر بنعمــة الإنسانيّة بنفخ الرّوح، لكن لا روح الحياة الأرضيّة والحركة، فهذه يملكها، كما اتّضح مِن مفهوم كلام عليّ (ع)، بــل روح الحياة الخالدة، روح الربّ.

وعليّ (ع) باب مدينة علــم الرســول (ص) أوّل العــارفين بالقرآن، وأنّه يُدرك أنّ سرّ الحياة البيولوجيّــة هــي مفــردة "النفس" فهي روح البدن، أيْ أصل الحياة (**خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْــسٍ وَاحِــدَةٍ**)(النــساء:1) وهــي ســبب المــوت (**اللَّــهُ يَتَــوَفَّى الْــأَنْفُسَ**)(الزمــر:42)، (**وَمَــا تَــدْرِي نَفْــسٌ بِــأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ**)(لقمــان:34)، (**كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَــةُ الْمَــوْتِ**)(آل عمــران:185)، (**أَقَتَلْتَ نَفْساً**)(الكهف:74)، (**مَنْ قَتَلَ نَفْساً**)(المائدة:32)، (**أَخْرِجُــوا أَنْفُسَكُمُ**)(الأنعــام:93)، والعشرات غيرها تُثبت أنّ القتل والتوقّي

والإخراج والموت، يقع على "**النفس**" حصراً وهي سبب حياة البدن، وبانقطاعها عنه انقطاع حياته. وكلّ آيات القرآن عن الرّوح التي من أمرِ الله، كلّها، تقول أنّها أمرٌ آخر لا شأن للحياة المادّية به، هي من أمر الله، ونفخةٌ من قدسه، ووسيلة اتّصاله بالملأ الأعلى وتوقّد ذهنه، ووعيه، وسيره اللانهائي لمعرفة ربّه الأعلى.

ربّما يتعلّق البعض بأهداب، نفخ الرّوح في مريم، أنّه الذي به انغرس جنينٌ عيسى (ع) في رحمها نفْساً حيّة، فهذا توهّم راجع لعدم قراءة آيات الله كما هي، هذا النفخ هو الذي جعل من عيسى روح الله، وأنطقه وهو في المهد، وقذف بالإنجيل في قلبه، قال تعالى: (**إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ ..**)(المائدة 110) فالرّوح هي التي أنطقته، وهي التي هيّأته لتعلّم الكتاب وغيره وتكليم النّاس به وبالحكمة، وللقيام بالمعجزات من إحياء موتى وإشفاء مرضى وغيرها .. حسب ما تسوقه تكملة الآية من أمور.

وهذا كلام عليّ (ع) في نهج البلاغة، مَنْ يستقرئه يُدرك تفريق أمير المؤمنين في عشرات المواضع بين "روح" الحياة التي هي "النفس" التي **تنفصل** عن الإنسان وتلج فيه وتُوجد في الحيوان كلّه، وبين الرّوح الربّانية التي هي روحٌ للنّفس

لا للبدن، تلك التي نُفخت في الكائن البشريّ الحيّ وصار "آدم"، وانتقلت إلى ذرّيته ولأجلها أسجدت له الملائكة، فتراه يقول مِن جملة عشرات المواضع: **(وسبحان مَن أدمج قوائمَ الذرّة** (النمل) **والهمَجة** (الذباب) **إلى ما فوقهما مِن خلْق الحيتان والأفيلة.** ووأى **على نفسه أنْ لا يضطرب شبحٌ ممّا أولج فيه الرّوح إلا وجعل الحمام** (الموت) **موعده، والفناء غايته)**[1] فروح الحياة (النفس الحيّة) هذه تُوجَد في الذبابة والفيل وفي كلّ حيّ.

(ولقد قُبض رسول الله (ص) وإن رأسه لعلى صدري، ولقد سالت نفسُه **في كفّي فأمررتها على وجهي، ولقد وليت غسله (ص) والملائكة أعواني)**[2]، والنّفس هنا هي روح الحياة، وبمفارقتها يكون الموت. بل بيّن عليّ (ع) وحفيداه الباقر والصادق (ع) أنّ الأرواح خمسة: روح القُدُس، وروح الإيمان، وروح القوّة، وروح الشهوة، وروح الحياة/البدن/المدرج الذي به يذهب الناس ويجيئون، وواضح أنّ الثلاثة الأخيرة هي التي تصلح للحالة البشريّة، والاثنتان الأوليان للأنبياء والمؤمنين، وهي التي نُفِخَت في آدم، أمّا

- [1]– الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، ج2، ص75.
- [2]– الشريف الرضي، **نهج البلاغة**، ج2، ص172.

حفيد عليّ (ع) الآخر الكاظم (ع) فاختصر كلّ تلك إلى روحين: روح الحيوان (النفس)، وروح العقل[1]. إذن آدم قبلَ أنْ يكون آدم كان فيه روح الحيوان أي النفس الحيّة، أمّا الرّوح التي مِنْ أمر الله، روح العقل، فبها مَثّلَ الكائنُ إنساناً يجيل أذهانه ويُفكّر ويُوظّف جوارحه ويخترع ويسمو.

هذا آنفاً ما يقوله عليّ ربيب النبيّ العظيم (ص)، والحقيقة أنّ عليّاً (ع) وهو القرآن النّاطق، لمْ يخرج عن التصوير القرآنيّ قيْد شعرة، إنّما المُتأثّرون بالتفسير التوراتيّ خرجوا لأنّهم مع الأسف يُحدّقون إلى ما في أذهانهم مِنْ تصوّر، لا إلى ما في النصّ.

ثالثاً – تصوّر أنّ آدم لمْ يُولَد في رَحِم:

هناك بعض المرويّات المنسوبة أو التصوّرات بأنّ آدم لمْ يُولد أو "**لمْ يركض في رحم**"[2]، فما حلّ هذا؟

نعم، هذا صحيح، فالمرويّات المختلط شريفها بمدسوسها، أورثت هذا الإرباك. وفعْلاً نجد إصراراً في بعض التراث

♦ [1]– محمد الريشهري، **ميزان الحكمة**، ج2، ص 1129، 1130.

♦ [2]– علي النمازي، **مستدرك سفينة البحار**، ج4، ص439.

والمرويات ظاهريا أنّ آدم لمْ يُخلق في رحم، ما يعنـــي أنّـــه خرج من بيضة كونيّة[1] على ما نقول كما خرج البشر الأوائل والتي حسب أساطير سومر وبابل من أمّ **(لــم يــصبها ألــم الولادة)** وهي الأرض، أو – بتصوّرٍ آخر– من تمثال نُحــت من الطين كما لدى الفهم المقتبس مــن التــصوّر التــوراتي أساساً، وآيات الذكر الحكيم تدلّ على أنّه مــن طــين، ومــن تراب، ومن ماء، وأنّه بغير أب وأمّ، تدلّ علــى كــلّ ذلــك ظاهرياً، مثلما تدلّ على أنّه من سلالة صريحاً، وأنّه مسبوقٌ ببشرٍ قبله، فما حلّ هذه الإشكاليّة والتناقض؟

لقد بينّا حسب رسم توضيحيّ سابق، أنّهــا كلّهــا صــحيحة، فالكائن البشري خلق من الطين كالنبات من ماء وطين، قــال تعالى **(وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ)**(النور:45) **(وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ)**(الأنعام: 99)، وقال **(وَاللَّهُ أَنْبَتَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتاً)**(نوح:17)، وخلق النهاية كخلــق البداية **(كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُه)**(الأنبياء:104) حيــث تتخلّــق

♦ [1] - The first and most famous was called Oannes or Oe, who was thought to have come from a 'great egg'.

♦ (http://www.crystalinks.com/amphibiousgods.html)

♦ تعليق: ولماذا أوزيريس يقول أنه أتى من بيضة شريفة، لولا علم الأوائل ببداية الخلق، وما هي أصولهم.

الأبدان من ماء يهبط ويختلط بتراب الأرض **(وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيْتاً كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ)**(الزخرف:11)، فتتخلّق الأبدان وتنشأ في القبور الطينيّة في مستنبت طينيّ للذي مات حرقاً أو نسفاً أو غرقاً أو حتّى تبخّراً **(ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً)**(نوح:18)، إذن فالبداية البشريّة كما النهاية في رحم الأرض الطينية المائية.

لكن هذه الصفوف والأمواج البشرية الأولى لا ذكْر لها في ذاكرة الزمان، وظلّ التزاوج وإخراج النسل فيه كما فصائل الحيوان الأخرى، أي نسلُه صار يأتي من ذكر وأنثى، لكنْ ليس من أسْرة (ليس هناك أب بل مجرّد فحل ذكريّ، ولا أمّ إلاّ بالمعنى الغرائزي)، وإنْ كان لديه بدايات نظم اجتماعية بدائيّة باعتباره أرقى الحيوانات، بل الحيوانات لها نُظم اجتماعيّة راقية أيضاً لكن مبرمجة عليها. فجسم آدم البيولوجيّ، أيْ الكائن البشريّ قبل أنْ يصير آدم جاء عن هذا الطريق، هذا النسل، لكنّه للآن لا يُسمّى آدم الذي بمعنى مثيل الربّ المفكّر والخلاّق، فهو وغيره من بني جنسه البشر سواءٌ، لا فضل لأحد على أحد كما لا فضْلَ للحيوان المنويّ الذي تخلّقنا نحنُ منه على الملايين من إخوته الذين أُهْدِروا واضمحلّوا إلاّ بيولوجياً في سرعته وسلامته واقتداره

ووصوله البويضة (التي هي كالجنّة في مثال آدم) ليخلق الإنسان أنا وأنت منها. وكما "لا فضل للأسود على الأبيض"، كما قال النبيّ (ص) آنفاً، لأنّه مظهرٌ بشري لا ارتباط له بالإنسانية بشيء.

فمتى وُلد "آدم" في الحقيقة؟

وُلد "آدم" في الحقيقة، حينما استُدرج ذلك الكائن البشريّ البدائيّ إلى الجنّة (كالحُويمن إلى البويضة)، ولك أنْ تعتبر أنّ جثة/هيكل ذاك الكائن المُستدرَج هي الموادّ الأوّلية التي صُنع منها آدم الإنسان، تلقّته هناك الملائكة الصّاقّة المسئولة عن التخليق، ووُضع - لو أردنا أنْ نُقرّب الصورة- في حاضنة جديدة، بيضة تخليقيّة جديدة (كالذي تأتي به أفلام الخيال العلميّ في يومنا)، وتمّ إعادة خلقه وتعديل جيناته وتحفيز قوى عقله وأدواته، ونفخ نسمة الروح الربّانية فيه، ثمّ أُخرج من غرفة العمليّات، من المصنع، وليداً جديداً واعياً بهويةٍ جديدة اسمه "آدم"، فآدم الإنسان لمْ يُولد في رحْم بل في الجنّة، مِن طينة ذاك الكائن البشريّ مُضافاً إليه طين الجنّة وُلِد، وهذا بالتمام ما قاله تُراث السومريّين بين نينمو وأنكي الذي مرّ معنا في فصل التراث ونُعيده: **(يا أمّاه، إنّ**

المخلوق الذي نطقتِ باسمه موجود، فاربطي عليه صـورة الآلهة، اعجني لبّ الطين الموجود فـوق "ميـاه العمـق"، واجعلي "الصانعين المهرة" يُكثّفون الطين .. وستقوم بجانبك إلهة الولادة)، فنرى أنّ المخلوق البشري موجود، يُوضع في قالب من لبّ الطين مرّة أخرى (أي مـادّة بنـاء بيولوجيـا الجسم) أو طاولة الخزّاف كما لدى عرب وادي النّيل، ويُكثف فيه القوى بالصانعين المهرة (الملائكة الصّاقة)، ثمّ نجد فـي النصّ مسئولة الـولادة، إذن هنـاك ولادة، وولادة جديـدة، وليستْ خروجاً وإنباتاً من الأرض كالأوائل، بل مِنْ رحِمٍ هذه المرّة، رحم تقنيّ ربّانيّ مخصوص، والولادة هي إخراج حيّ من حيّ لا من ميّت، توليد "الإنسان" مِن "البـشر" المُـسجّى تحت أيدي الملائكة **(لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيّ)**(ص:75) ويدا الربّ همـا نينماح وأنكي حسب السومريّين.

و"خُلق من طين" صحيحٌ أيضاً مرّتيْن: لأنّ الجسم الذي صنع منه كان مِن نسل السلالات المخلوقة من الطين، ووُضع فـي حاضنة من الطين، بل وعومل خلال التخليق الآدميّ (الـذي أعقبه نفخ الرّوح) مِن الملائكة الصاقة كـالطين بـين يـدي الخزّاف.

و"ليس له أب ولا أمّ" فصحيحٌ أيضاً، لأنّه الآن قد وُلد وخُلق مخلوقاً آخر غير بُنْية المخلوق القديم، فلو زرعنا قلب خنزير في إنسان، فهل هذا الإنسان عليه أنْ ينسب نفسه إلى قطيع الخنازير كما إلى مجتمع البشر؟! ولو تلفتْ أعضاء إنسان واستطاع العلْمُ أن يستبدلها كاملة فهل تتغيّر هوية الشخص لتتوزّع على المتبرّعين بالأعضاء وينتسب إلى آبائهم وأمّهاتهم؟

ولو أخذنا جُثّة إنسانٍ ميّتٍ ذهبت نفسُه إلى بارئها، ثُمّ أجرينا عمليّات كثيرة عليها، ثمّ أتينا بروحٍ جديدة ونفخناها فيه، فهذا المخلوق هويةٌ وروحٌ جديدة، لا علاقة له بالمخلوق السابق الذي انتهى كتابُه وحسابُه وذهب، سوى في تشابه الشكل، ولو رآه من يعرفه وسأله لوجده غير ذاك لا يعرف شيئاً عن حياة المخلوق الآخر الذي أُقيم على جُثمانه. وقد ذهب قُدامى المصريّين إلى أبعد مِنْ هذا بحيث نفوا نسبة الأبوة والأمومة لأشرافهم الذين يُبعَثون في العالَم الآخر لحياةٍ أُخرى أسمى، فكيف بوجود إنسانيّ نشأ من جسمٍ حيوانيّ؟ فـ : "المِلكُ

الصالح المُتوقّى – بحسبهم– ليس بإنسان إذْ آباؤه ليسوا مِن البشر، وأمّهاته لسنْ مِن الناس"[1].

إنّ معنى "آدم"، إنّ هويّة "آدم"، إنّ كيان "آدم" الإنسان، موجودة في "جيناته"، في عقله، وفي روحه، وهذه كلّها خُلقت وغُرستْ للتوّ فيه، بحيث لو مات هيكل الجسد الترابيّ الذي استُعير له بُرهةً، لبقي آدم –وكلّ آدميّ– خالداً بروحه وعقله وشخصيته، فلمْ يكن له مِن الكائن الأوّل سوى الهيكل البشري الذي أُعيد تصنيعه أيضاً، فكيف يكون له انتساب لأبٍ وأمٍّ مِنْ عالم حيوانيّ آخَر لا يمتّ لهما إلاّ بقطَع لحمْ وعظمٍ من هيكله؟ وهل حين خرج آدم راح يبحث عن هذين الهمجيين أمّاً وأباً؟!! وماذا لو كان الكائن البيولوجي الذي استُدرِج، لِيُصنُّع منه الإنسان، قرداً مثلاً، والقدرة الربّانية قادرة، أنبحث في عالَم القرود بعدها عن أقربائنا؟! وهلْ يُعدّون أقرباءً؟ فهذا كهذا.

ولمْ يكنْ عصيّاً على الله أنْ يخلق بدناً لآدم مباشرة من التراب كما خلق أسلافه الأقدمين البشر الأوائل، لكن هذه الطريقة التي جرتْ حسب النظام الطبيعي، فلا تتدخّل القوى

♦ [1]– انظر : أدولف إرمان، **ديانة مصر القديمة**، ص 294. نقلاً عن متون الأهرام، فقرة 809.

الربّانيّة (الأرباب) إلاّ حين تعجز الطبيعة، فالكائن البـــشريّ أُريد له أنْ يتطوّر أدهراً ليُنتخَب كمادّة لخلـــق آدم الـــسامي، فبعد أطوار السنين يُخلق الإنسان في أحسن تقـــويم، والكـــلّ (جسمانيّاً) مخلوقٌ من تراب بشكل مباشر أو غير مباشر.

فخلْقُ الإنسان كما بيّن القرآن على ثلاث طرائق:

1- أنْ يأخذ خامةً مِن لحم وعظم، من كائن حيّ آخـــر، أو مجموعة أعضاء، أو كائنات، ثمّ يُـــنفخ فيـــه الـــروح الإنسانية، فتُعدّ هذه هي ولادته، كما عُـــدّ "آدم" طفـــلاً إلهيّاً، هذا الطفل أو المولود أو الكائن الجديد، أو الخلْق الآخَر، أو الكائن الإنساني، لا ينتمي إلى مادّة صـــنعه السابقة ولا إلى كائناتها، فـــ"آدم" لـــيس لـــه أب ولا أمّ بهذا الاعتبار، لأنّ ولادته كإنسان تمّـــت فـــي الجنّـــة. ويُشابه هذه الكيفيّة (ولادة إنسان من دون أنْ يـــركض في رحم)، فيما لو تمّ تخصيب بويضة وزرعهـــا فـــي حاضنة طبيّة لا في رحم امرأة حتّى يكون طفلاً.

2- أنْ تكون هناك بويضة في رحم امــرأة، لــمْ يمســسها بشر، وهي قابلة للتخصيب بأيّ طريقة ربّانيــة، كمــا تُوجد هذه الإمكانيّة اليوم علمياً، ثمّ يُنفخ فــي الجنــين المتكوّن الروح الإنساني، الذي لمْ يستلمه من أصــلاب الرجال، أي هذا الوليد ليس آدم أباه إلاّ من طرف أمّه، فهو بلا أب. وهذه طريقة خلق عيسى.

3- الطريقة الدارجة التي يعرفها الجميع.

رابعاً - ما حكاية الضلع الذي منه خُلقَتْ حوّاء؟

إنّ خلق حوّاء مِنْ ضلع آدم بالخصوص، قد جاء أوّلاً فــي التوراة، ثُمّ جاء في بعض المرويّات، في الحين الذي قامت مرويّات أخرى باستنكاره واستبشاعه بشاعة أنْ يــنكح آدمُ نفسه، كما استبشعت أنْ يكون أبناءُ آدم لــصلبه تزوّجــوا أخواتهم أيْ بناته. فقد سألَ الإمام جعفر الصادق (ع) أحــدُ أصحابه، عن خلق حوّاء قائلاً له: إنّ أناسًا عندنا يقولــون: إنّ الله عزّ وجلّ خلق حواء مِنْ ضلع آدم الأيسر الأقصى، قال (ع): "**سبحانَ الله وتعالى عن ذلك علوًّا كبيرا! يقــول مَنْ يقول هذا: إنّ الله تبارك وتعالى لمْ يكنْ له مِن القــدرة**

ما يخلقُ لآدم زوجةً مِن غير ضلعه، وجعل لمتكلِّمٍ مِن أهل التشنيع سبيلاً إلى الكلام؟ يقول: إنّ آدمَ كان ينكحُ بعضُه بعضًا إذا كانت مِن ضلعه، ما لهؤلاء؟ حكَم اللهُ بيننا وبينهم!"[1]. فهذا الإمام الربّانيّ، يرى أنّ أمثال هذه الآراء، وإنْ نسبوها إلى النبيّ وإلى أهل بيته وأصحابه، فهي غير صحيحة، وهي التي تجعل لأهل التشنيع على الدّين، سبيلهم في الطعن والكلام. ويكفينا أنْ ننتقل للتفاسير لنجدها في كلّ تفسير، مِنْ أشهرِها لأغْمَرها، وللمثال نجدها في تفسير الكشّاف للزمخشري[2] في تعليقه على قوله تعالى في أوّل سورة النساء: "**يا أيّها الناس اتقوا ربّكم الذي خلقكم مِن نفسٍ واحدةٍ وخلق منها زوجها**": (شعَبَكم مِنْ نفسٍ واحدة هذه صفتُها وهي أنّه أنشأها مِنْ تُرابٍ وخلق زوجها حوّاء مِنْ ضلْعٍ من أضلاعها!)، وتفسير الرازي إذْ يُعلّق على نفس الموضع بقوله: (المرادُ مِنْ هذا الزّوج هو حوّاء، وفي كون حوّاء مخلوقةً مِنْ آدم قولان: الأوّل: وهو الذي عليه الأكثرون أنّه لمّا خلق الله آدم ألقى عليه النوم، ثمّ خلق حوّاء مِنْ ضِلْع مِنْ أضلاعه اليسرى، فلمّا استيقظ رآها

- [1]– المجلسيّ، **بحار الأنوار**، ج11، ص 221.
- [2]– الزمخشري، **تفسير الكشاف**، ج1، سورة النساء – آية1.

ومال إليها وألفها لأنّها كانت مخلوقةً مِن أجزائه، واحتجّوا عليه بقول النبي (ص): إنّ المرأة خُلقت مِن ضـــلع، فـــإنْ ذهبت تقيمها كسرتها، وإنْ تركتها وفيها عـــوج اســـتمتعت بها. والقول الثاني وهو اختيار أبي مـــسلم الأصـــفهاني أنّ المراد من قوله: "**وخلَق منها زوجَها**" أيْ مِنْ جنسها)، فأين الجميع عن هذا الرأي الثاني الأصوب مِـــن تلـــك الدمغـــة التوراتية الأولى؟![1].



تصوّر توراتي للربّ وهو يأخذ أحد أضلاع آدم النائم ليصنع منه حوّاء!

أمّا في التوراة التي أخذت تلك المرويّات بـــضاعتها منهـــا وسوّقتها، والتي لا داعي منّا لمحاولة اكتـــشاف الفروقـــات

♦ [1]– الفخر الرازي، **التفسير الكبير**، ج2، سورة النساء – آية1.

بين النصّ التالي ومرويّاتنا، لأنّنا لنْ نجدها، فتقول: **(فأوقع الرَّبُّ الإلَهُ سُبَاتا عَلَى آدَمَ فَنَامَ فَاخَذَ وَاحِدَةً مِنْ أضْــلاعِهِ وَمَلَأَ مَكَانَهَا لَحْما، وَبَنَى الرَّبُّ الإلَهُ الضِّلْعَ الَّتِي أخذها مِنْ آدَمَ امرأة وَأحْضَرَهَا إلَى آدَمَ. فَقَالَ آدَمُ: «هَذِهِ الآن عَظْــمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي. هَذِهِ تُدْعَى امرأة لأنَّهَــا مِــنِ امْرِئٍ أُخِذَتْ». لِذَلِكَ يَتْرُكُ الرَّجُلُ أبَــاهُ وَأمَّــهُ وَيَلْتَــصِقُ بامرأته وَيَكُونَانِ جَسَدا وَاحِدا)**(التكوين 2: 21-24).

وفي "كتاب آدم" وهو خليط جــامع الحقــائق والخرافــات، مسطورةٌ فيه أقوالُ واجتهاداتُ التراث الشعبي للمنطقة، بما فيه ما يقوله اليهود في "التلمود" أو المسلمون في المــرويّ والتفاسير والقصص، نجد في الفصل الخامس منه، الفقــرة العاشرة، الأمرَ نفسه يجري على لسان حوّاء في مناجاتهــا للربّ تائبة باكية بمرارة، حيث تقول أنّها مخلوقة من ضلع آدم وأنّ خطيئته كانت بسببها!![1]

- [1]– And You took me, the bone, and make me a woman, bright like him, with heart, reason, and speech; and in flesh, like to his own; and You made me after the likeness of his looks, by Your mercy and power. (Book of Adam; Chapter 5; Paragraph 10)
- refer to:
- (http://www.hiddenmysteries.com/freebook/adameve/adameve1.html)

ولو حاولنا أنْ نُحسن الظنّ بمسألة الضلع هذه، لقلنا بافتراض أخْذ خلايا مِنْ آدم للنّسج على منوال جيناتها، في قالب أو حاضنة الطين الذي وُضِع فيه المرأة البشريّة لتحويلها إلى حوّاء الإنسانة. أمّا أنْ يكون الضلعُ ضلْعاً فعْلاً وكما يُترجم أيضاً بالإنجليزية (Rib) و (Bone)، ثُمّ يُملأ/ يُلأم مكانه لحماً، فهذا ما علْمُ الطبّ يُكذّبه، فليس الذكَر ينقص ضلعاً عن الأنثى لا من الجهة اليمنى التي ضنّوا بها أنْ تُصنع حوّاء منها، ولا من الجهة اليسرى، ويُكذّبه العقل والقرآن أيضاً، أمّا "بناء" حوّاء مِنْ ذلك الضلع، فهذه كذْبةٌ ككذْبة "جبْل تمثال" آدم .

ونلاحظ أنّ مع زعْم النصّ أنّ الذي أُخِذ مِن آدم هو مجرّد أحدِ أضلاعه، لا شيءٌ مِن لحمه، وأنّ آدم كان نائماً لا يدري، نجد بعْدَها أمريْن مُعاكسيْن: أولاً أنّ آدم يدري، وثانياً أنّه يقول أنّ حوّاء ليست فقط "عظمٌ مِن عظامه" بل "ولحمٌ مِنْ لحمه"!، أمّا مزايدة الرجال على هذا بأنّ حوّاء خُلِقتْ من ضِلْعٍ أعوج أيضاً، فلا ندري أهناك أضلاعٌ مستقيمة في القفص الصدريّ وأخرى عوجاء أم ماذا؟ فهذا إزراء بالعقل مرّةً ثانية.

ولو تمعنّا في المرويات التي دخلت تراثنا الإسلامي، ووضعنا للقارئ بعضها، لما وسَعه إلاّ أنْ يقول أنّها نُقِلتْ عن قصص التوراة، فتمعّن وقارن: ففي حديث نُسِب لابن عبّاس عن خلق حوّاء من ضلع آدم "**ولأم مكانه لحماً**"[1] وفي النصّ التوراتي "**وملأ مكانه لحماً**"، وقال القرطبيّ: (وقد جاء في صحيح مسلم: **وزوْج آدم (ع) هي حواء (ع)، وهو أوّل مَن سماها بذلك حين خُلقت مِن ضلعه مِن غير أنْ يحسّ آدم (ع) بذلك، ولو ألم بذلك لم يعطف رجلٌ على امرأته، فلمّا انتبه قيل له: مَنْ هذه؟ قال: امرأة، قيل: وما اسمها؟ قال: حواء، قيل: ولم سمّيت امرأة؟ قال: لأنها مِنْ المرء أُخِذت، قيل: ولم سمّيت حواء؟ قال: لأنها خُلقت مِنْ حيّ)**[2]!، فهل يجد المرء فرقاً عن رواية التوراة؟! وألا ترى جوّاً مُشبَعاً بأنّ الذكاء قدْ خُصّ به آدم وحدَه يُوزّع الأسماء ويُدلي بالإجابات، وحوّاء بكْماء تُستخدَم فقط كمادّة للدرس والتعليق والشرح، كحالِها المُزريّ اليوم في

♦ [1]– ابن جرير الطبري، **جامع البيان**، ج 1، ص 329؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج1، ص81؛ ابن كثير، **تفسير ابن كثير**، ج 1، ص 82؛ ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ج1، ص13؛ مصطفى الخميني، **تفسير القرآن الكريم**، ج 5، ص 499.

♦ [2]– القرطبي، **التفسير**، ج1، ص301. وغيره.

الدعايات والأغاني الرخيصة، مجرّدُ دميةٍ خرساء تقف أو تتلوّى مبتسمةً كالحيّة، للمنظر ليس إلاّ!

هكذا امتدّ خطأ التوراة ليُغلّف تراثنا القرآني ليُغطّي مساحة المستقبل، فبدلاً من تصحيح القديم الخاطئ بالجديد الصحيح، نسخَ قديمُهم البالي جديدَنا، هكذا صِرنا نُمركز اليهود في التاريخ وفي الجغرافيا، وفي الألسن، ونُمركز توراتهم، فهم الأمّة المُختارة وتوراتهم لنْ يُنسَخ، هذا ما نحنُ نقومُ بفعله أيضاً لا هم فقط.

والغريب أنّ بعض الباحثين الغربيّين مؤخّراً، أراد أنْ يمسح تراث الأوّلين، ويمدّ الكذبة التوراتيّة لوراء أيضاً، فتجدهم وهم يُفسِّرون النصوص السومريّة والبابليّة، ويقرأون أنّ الربّة/ القوّة الربّانيّة "نين تو" (التي نُسمّيها باللهجة العامّية "نينة" أي الأمّ الكبرى) التي أسهمتْ في خلق الإنسان، ذهبوا يقولون أنّ "تي" تعني الضلْع أيضاً في السومريّة، فعلى هذا فإنّ القوّة هذه هي سيّدة الضلع[1]، مع

♦ [1]- Now the word for "**rib**" in Sumerian is "**ti**" which happens also to be the Sumerian verb *"to make live."* So the Mesopotamian author of the myth is employing a pun to equate the "Lady of the Rib" (**Ninti**) with the "Lady Who Makes Live" (**Ninti**). Legends: **The Genesis of Civilization** by David M. Rohl pp. 209-10

أنّها "نين تو" ويكتبها الجميع (Nintu)، التـــي هـــي القـــوّة الأنوثيّة، الأمّ الكبرى، الرحم الأوّل، الأرض الحاضنة، قوّة التوليد، وتُسمّى بأسماء أخرى مثل "مامي" و"نينخرســـاج"، ولدى المصريّين "نيت"، لكنْ لأجل عين التوراة، لينحـــرفْ كلُّ شيء، ولْيُزوَّرْ أيّ نصّ وأيّةُ تسمية. وأحسبُ أنّ الكهنة الذين ترجموا التوراة إلى الإغريقيّة التي عُرِفَتْ بالترجمـــة السبعينيّة، وصارتْ هي أصل كـــلّ تـــراجم التـــوراة بـــل ومرجع حتّى التي بالعربيّة والتي "بالعبرية!" أيضاً، أحسبُهم حينما سمعوا هذه القصّة مِنْ العرب الأوائل إمّا أنّهـــم لـــمْ يفهموها أو حرّفوها بغرضٍ اجتماعيٍّ ونفسيٍّ بحتْ ينـــزعُ لفكرٍ ذكوريّ مستبدّ، فإنّنا وإنْ كُنّا نجد في نـــصّ التـــوراة "**وَبَنَـــى الـــرَّبُّ الإِلَـــهُ الـــضِّلْعَ الَّتِـــي أَخَـــذَهَا مِـــنْ آدَمَ امْرَأَةً**"(التكوين22: 2) بالعربيّة، ونجـــد "**صِـــلْعو**" أيْ "ضـــلع" بالسريانيّة التي أخذت عنها ما يُسمّى بالعبريّة، حيث ضـــاد العربية صاد سريانيّة، إلاّ أنّ كلَّ هذه هي ترجمات للنسخة "المحرّفة كلمُها" كما أخبر القرآن، وإنْ كانت حتّى النـــسخة الأصل "اليهودية" التي سبقت اللاتينيّة ليست هـــي تـــوراة موسى أيضاً، إلاّ أنّ بعض البـــاحثين يقولـــون أنّ حكايـــة

"الضلع" أو "الحيّة" أيضاً ليستْ موجودة في النسخة العبريّة الأصل، بالمرّة[1].

بل، إنّ الذين دوّنوا التوراة أو ترجموها كأنّهم بعيدون عن فهم روح اللغة، فربما كان في الأثر قول آدم لزوجه (فَقَالَ آدَمُ: "**هَذِهِ الآن عَظْمٌ مِنْ عِظَامِي وَلَحْمٌ مِنْ لَحْمِي**")(التكوين23: 2) إذّ "بالعبريّة" (عِصِمْ مِنْ عِصامي، وبَسَر من بَسري) كما تلفظ بعض اللهجات الظاء (صادًا قريبةً للزاي)، وبالاقلاب بين الشين والسين، فيقول آدم أنّه سيجعلها عظماً من عظامه، وبشرةً من لحمه، فلو كانت فعلاً من عظمه، لما كان من داعي ليقول أنّها بشرةٌ من بشرته، ولا داعي لوضع كلمة "**الآن**"، فدلالة وجودها ينفي أنّها كانت كذلك قبلاً، بينما المفروض عكس ذلك، لأنّها كما يزعمون أنّها كانت فعلاً قبلاً "عظما من عظامه"، فكان ينبغي لهم أنْ يكتبوا لإمضاء الفهم الساذج: "هذه كانت عظماً من عظامي"!

- [1]–*Adam and Eve*, *the serpent*, and of *Adam's rib*, which were introduced in the Greek version of Genesis, have no corresponding passages in the Hebrew original.
- http://www.mazzaroth.com/ChapterThree/HistoryOfTheBible.htm

إذن هي وصلتهم ككلّ التراث الساميّ، لكـــنّهم رفـــضوا أنْ يفهموها إلاّ بالطريقة الساذجة، مع أنّ هـــذا الكـــلام لمـــن يعرف العربيّة بلهجاتها، كلامُ محبٍّ انسجم مع إلْفه بحيـــث استعدّ ليحوطه كما يحوط عظمه ولحمه، كأنّه امتـــزج بـــه مادّياً كما امتزج به روحاً، فلو سمعوا قول النبي (ص) لأمّ سلمة في عليّ (ع)**(لحمه من لحمي ودمه من دمي)**[1]، ثـــمّ أرادوا نسْجَ حكايةِ خلْقٍ لعليّ (ع) لدوّنوا أنّ الله تعالى استلّ لحمةً من ذراعِ النبيّ (ص) وشفط قطرات دمٍ منـــه (ص) وهو نائم، وخلق منها عليّاً!!

وقد آمن علماء اليهود وباحثوهم بخلاف هذه المقولـــة فـــي خلق حوّاء حسب معتقدهم الديني الخاص بهم في التلمـــود، فممّا افترضه أحبارُهم، في كيفيّة خلق رفيق لآدم:

1- حكاية خلق حوّاء من ضلع آدم، المشهورة في كتـــاب التكوين، الذي يعدّونه أوّل أسفار التوراة.

2- البعض يقول أنّه في اليوم السادس وآدم ابنُ عـــشرين سنة، عُرضت عليه الحيوانات فأعطى لكلّ زوجٍ اسمه، ثمّ انتابته الغيرة من رؤية الاستئناس الزوجي بين كـــلّ

♦ [1]- ابن عساكر، **تاريخ دمشق**، ج42، ص42؛ المتّقي الهندي، **كنز العمال**، ج11، ص 607.

قرينيْن، فدعا الله تعالى ليُعالج المسألة، ويُنصفه من توحّده. فخلق له "**ليليت**"[1] من الرواسب الطينيّة الوسخة، بدلاً من الطين النقيّ[2]، وظلّ هذا الجنس الملتويّ يُلوّث البشريّة على مرّ الأحقاب، ثمّ دبّ الخصام بين آدم وقرينته لعدم التكافؤ فخلق له حوّاء أخرى أمام عينيه من عظام ولحم وجلد ومع أنّها انتصبت أمامه بجمالها، إلاّ أنّه تقزّز من رؤية منظر الخلق ولمْ يستطِع تجاوزه ذهنيّاً، فأُبعِدتْ حوّاء هذه، حتّى خُلقت له الثالثة المعروفة في غفلةٍ عنه وهو نائمٌ، مِن ضلعه!

3- البعض قال أنّ حوّاء لمْ تُخلق من الضلع، بل من عظمة العجز، (وهذا يُذكّرنا مرّة ثانية بـ (عجْب الذّنَب)، الذي يُعزى أنّ فيه النطفة الأولى المنظّمة للخلق).

♦ [1]– سنتعرّض بالتفصيل لهذه الشخصيّة شبه الخرافيّة في بحث: **وعصى آدم،** الحقيقة دون قناع، جمعية التجديد الثقافية الاجتماعية.

♦ [2]– لاحظ أنّهم يعلمون أنّ خلقاً بشرياً قدْ خُلق من الطين الوسخ، وهذا يُذكّرنا بأسطورة خلق البداية البشريّة لدى السومريّين، حين قام "إنكي" (قوّة مياه الحياة) بخلق البشر من ظفره الوسخ، أي من ترسبّات الطين اللازب المسنون المتخمّر بالماء، ويُدركون أنّ هنالك طيناً نقياً في الجنّة تمّ منه تخليق (تعديل) "آدم" الإنسان، لكنّهم ضيّعوا البوصلة تماماً مع وجود بعض إشاراتها.

4- البعض قال أنّ نيّة الربّ منذ البدء خلق زوجيْن، فخلق كائناً له وجهٌ مذكّر مواجه للأمام، وآخر مؤنّث مواجهـةٌ للخلف، ثمّ غيّر الربّ رأيه ففصلهما وأقامهما في جنّـة عدْن ومنعهما من التزاوج، (وهذا يُذكّرنا بعدم فهمهم للنفس الواحدة التي كوّنت الكائن البشري الأوّل، التي كانت خلايا لا جنسيّة، ثمّ انقسمت، ثمّ من كلّ قسم مؤنّث تكوّنت بيوض (حاضنات جنينيّة) للإناث، ومن الأخرى الذكور، وفقست تلك البيوض عن بشر بالغين، كما بيّنا)[1].

خامساً – إشارة المأثورات للنوع البشريّ الهمجيّ

هل نجد في مأثورنا التراثيّ، من روايات المعصوم والأصحاب ذكْراً لهذا النوع البشريّ السابق على الظهور الإنسانيّ؟

♦ [1]– راجع دراسة كاملة عن تكوين آدم وحوّاء لدى الأحبار في الموقع:

♦ http://www.webcom.com/~gnosis/lillith.html؛ Hebrew Myths by Robert Graves and Raphael Patai (New York: Doubleday, 1964), pp 65-6

نعم .. فقد عبّر المسلمون الأوائل عن الكائنات البــشرية التي سبقتْ آدم بـــ (النسناس)، ثمّ صارتْ رمزاً دالاً على الهمجيّة والتوحّش في مكنون الــنفس الإنــسانيّة، لأنّــه يختزن إرث تلك الأحقاب غير مفعّلة بــل مــستكنة فــي موسوعة جيناته.. فقد أورد المرويّ الإسلامي إشـــارات لكائنات بشريّة قبل الإنسان وظلّت متزامنة مع وجــوده، بل هي للآن لها وجودٌ في باطنه دعوها "**النسناس**" فعــن عليّ (ع) وابن عبّاس والحسن البصريّ أيــضاً (**ذهــبَ الناسُ, وبقي النّسناس**) وعقّبــوا بـــالقول (**إنْ هُــمْ إلاّ كالأنْعام**) فهي هذا، وفي المأثور أنّ في آخر الزمان أيضاً (**يقلّ الناس ويبقى النسناس**) أيْ تستولي الهمجيــة فـــي دواخل الفرد على إنسانيّته وينطمر العقل والرّوحنة منه. وقال الجزري في النهاية: (في حديث عن أبى هريـــرة: **ذهب الناس وبقى النسناس** . قيل: هم يأجوج ومأجوج، وقيل: خلْقٌ على صورة النـــاس أشــبهوهم فـــي شـــئ وخالفوهم في شئ وليسوا من بنى آدم، قلت: ويمكـــن أن يكون المراد بهم مَن كان قبل آدم عليه السلام من الإنسان الوحشي غير المتمدن). إذن؛ فالجزري يرى أنّ هنالـــك إنساناً (بشراً) غير متمدّن قبل آدم.

وكان فكرة تزاوج الإنسان مع الهمج لها أثرٌ باقٍ في أذهان السابقين، لكنّ الهمج كما كانوا يُسمّون نسناساً، يُسَمَّوْن أيضاً أبناء الحيّة أو التنّين، أو سُكّان الكهوف، أو الجنّ أيضاً لاستتارهم في الكهوف والمغاوِر، أو الغيلان، والسعالي. فنلحظ الجاحظ يكتب: **(كان عمرو بن يربوع متولّدًا من السعلاة والإنسان)**[1].

سادساً – أين الصراحة في كتاب الله؟

ولربّ سائل يسأل: لِمَ لمْ يأتِ القرآن بالقصّة صريحة بلا مواربة وكفلق الصبح منعاً للخلاف؟

القرآن قد فعل ذلك في هدى القلوب (الآيات المحكمات) لأنّ هدى القلب (الإيمان) هو الهدى الذي جاء به صريحاً. أما هدى العقل (العلم) فيجب أنْ يُستعمل العقل ليتطوّر، فعبادة العقل ليست التلقين والحفظ بل التفكير والتفكّر والبحث والاستكشاف والاختبار والمحاورة والتصحيح والتشارك، فتلقين المعرفة ليست معرفة

♦ [1]– الجاحظ، **حياة الحيوان**، ج1، ص147، 155.

عقليّة، أيْ أنّ (العلم يكثر في العقل، لكنّ ملكات العقل لا تنمو)، وتلقين المعرفة ثانياً هي وسيلة بائسة لاحتكار طريق العلم، أمّا تركها للاكتشاف واختبار الوعي فطريقٌ لمشاعيّتها وعولمتها. فشتّان بين مدرستيْن؛ "**مدرسة تلقين المعرفة**" و"**مدرسة تبيين طريق المعرفة**"، لذلك قال حثّ القرآن على بحْثٍ جماعي تُنبَذ الأنا فيه لتكون الأفكار بلا أبٍ ولا صاحب، بقوله: (**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانْظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ**)(العنكبوت:20)، جعل الوصول إلى المعرفة بالسير الاكتشافيّ- والجماعيّ لا الفرديّ- ليتعبّد العقل بالاختبار والتزوّد الذاتيّ، كما جعل طريق نموّ العضلات بالمران لا بالكبسولات، فجُعلت الحقيقة قرآنياً تُكسب بالتدبّر والاجتهاد، تماماً كما جُعلتْ في خارج القرآن، ليكون كتاب الطبيعة الربّانيّ محاكياً لطبيعة الكتاب الإلهيّ. فتلقين المعارف في الذهن لا يُحرّر العقل بل يُقولبه ويُجمّده، لكنّ خوض التجربة باختبار المعرفة ومحاولة اكتشافها بعد الأخذ باليد عن المنزلقات الروحيّة، والمهاويّ الأخلاقيّة، والأعطاب الفكريّة، هي الطريقة الناجعة لعروج الإنسان في إنسانيّته الربّانيّة.

لكنّنا نصرّح مع ذلك أنّ القرآن قد أتى فعْلاً بالحقيقة صريحةً وبلسانٍ عربيّ مبين وكفلقِ الصبْح، لكنْ للراسخين في العلم ولأولى الألباب، وإنّما هو الفهم الدّارج الذي حكّم قواعد هي غير قواعد اللّسان العربيّ المبين، وعقائد متسرّبة من التوراة، وتفسيرات من إملاءات أقوال الرجال جميعاً، حكّمهم على كتاب الله فبدت الحقيقة، إذّاك، وكأنّها أشبه بالوهم أو بالخيال والسراب بل صارت خلافاً وبدْعة، لأنّنا نقرأ القرآن ولا نقرأه في الحين نفسه.

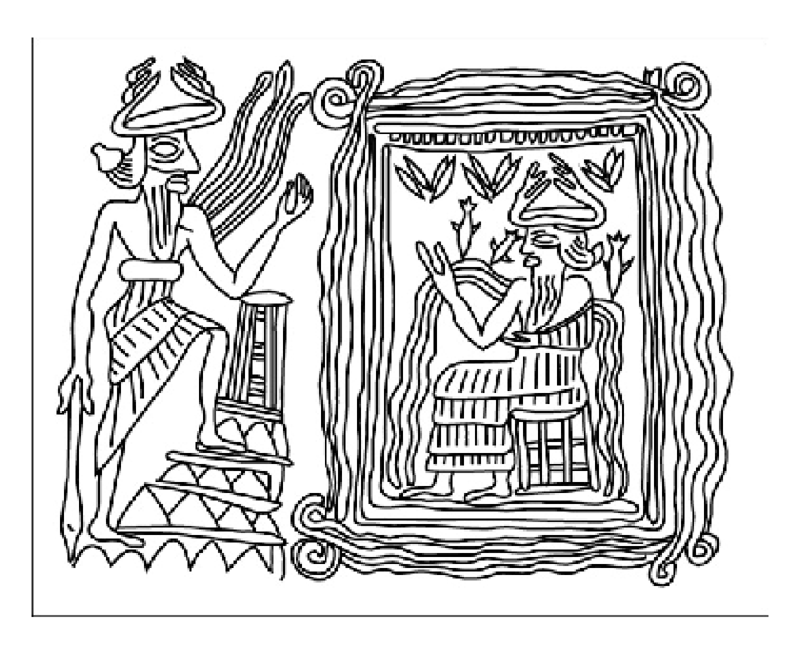
سابعاً – من هو آدم؟ جنس أم رجل، وكيف جاءت ذرّيته؟

ثَمَّةَ مَن يقول بأن "آدم" ما هو إلاّ جنسٌ جديد، وليس اسماً لرجلٍ فرد، وحواء أنثاه وزوجُه هي أيضا جنس جديد وليست واحدة. ورأي آخر يقول بل هما فردان فقط آدم وحواء ولا أحدَ معهما. والحقيقة إنّ عملية التدخّل في صفّ الجينات في هذا الكائن البشري الذي كان سائدا وموجودًا لرفعه عن طريق صفّ صبغيّاته/ جيناته/ موروثاته في

صفة جديدة متميّزة كما يوثّقه تُراث أمّتنا الواحدة (ويُؤكّـده القرآن الكريم) لم يكن مقتصرًا على فردٍ واحد فقـط، لأنّ هذا سوف يُوقعنا في إشكالية: إذا كان المخلوق رجلاً واحداً وامرأة واحدةً فكيف تكاثرا؟ هل ما أنجباه من أولادهما من الذكور والإناث هما البداية؟ ثم تنـاكح الأخـوة بعـضها بعض؟ كما تقول بعض الآثار المدسوسة مـن أنّ **(حـوّاء ولدت أربعين بطْناً** (أو **خمسمائة بطن!) وكانت تلد في كلّ بطن ذكرًا وأنثى، وكان آدم** (ع) **يُزوّجُ ذكَر كلّ بطن بأنثى من بطن آخر)**[1]!! هذا أمرٌ مهول، من بقايا الهمجيّة البدائيّة، سيوقع الإنسانية في إشكالية خطيرة، وانزلاقة عظيمة فـي أولى عتباتها، والله سبحانه لا يأذن بهذا، ولا سرّ تخليقه آدم إنساناً عاقلاً روحانيّاً متسامياً عن الطوْر الهمجـيّ يـسمح بهذا أو يليق به! إذّ كيف يحرّم سبحانه مثل هـذا النكـاح ويبدأ به ولو اضطراراً؟! هذا يوقع مَن أخذ بهذا الرأي في

♦ [1]– ابن حجر، **فتح الباري**، ج6، ص 263؛ ابن كثير، **البداية والنهاية**، ج1، ص103؛ ابن كثير، **قصص الأنبياء**، ج1، ص55؛ الثعالبي، **تفسير الثعالبي**، ج2، ص370؛ الشوكاني، **فتح القدير**، ج2، ص300؛ الطبرسي، **تفسير مجمع البيان**، ج3، ص315؛ القرطبي، **تفسير القرطبي**، ج6، ص134 (وفيه نصّ "أربعين بطناً")؛ الكاشاني، **التفسير الصافي**، ج1، ص417، وج2، ص28؛ المجلسي، **بحار الأنوار**، ج11، ص218؛ المرتضى، **الأمالي**، ج4، ص138 (وفيه نصّ "خمسمائة بطن")!!

تناقض عسير اعتقاديّ وفلسفيّ وتاريخيّ وتـــشريعيّ، ثـــمّ أخلاقيّ.



تصوّر سومري لــ (إيا=حيا) القوّة الربانية تعتلي الجبل العظيم المهيب (إيزاجل/الحيز الجليل) حيث مقرّ المدبّرين والأبرار، التي أوجدت خزّان الماء العذب الكامن في الأعماق (الأبسو)، ومنه يتشكلّ حوض التطهير (الكوثر) الذي تطهّر فيه آدم ويتطهّر فيه كلّ داخلٍ للجنّة، ومنه تفيض أنهار الجنّة إلى خارج جبال السروات.

إذن هل الرأي الأوّل هو الصحيح، أنّ "آدم" و"حوّاء" همـــا جنس لا فردان؟ أيْ كالبشر الأوائل الذين خرجـــوا رجـــالاً ونساءً! كلا، وإنْ تلقّع بالصواب، إلاّ أنّه ليس بالحقيقـــة، إذ أنّ آدم وحواء –قبل أنْ يكونا آدم وحوّاء– كفردين بشريّين،

استدرجا الدخول عبر "ورْد" الماء (الأرْدن) إلى أن وصلا حوض التطهير (الكوثر)، وهنالك اغتسلا أوّل غسل يطهّرهما من دنس الهمجية والجاهليّة الأولى، ثم ما لبثا أنْ حاطتهما الملائكة الصاقات: **(وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً)**(الفجر:22).

هذه الآية بالتحديد، لها خصوصية معيّنة؛ هي صورة النهاية فعْلاً، إلا إنّها أيضا صورة البداية، صدى هذا الموقف نراه في الأعراف-29:**(قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ)**(الأعراف:29)، فكيف بدَأنا الربُّ؟ البداية كانت مع الآدم والحواء، فرداً فرداً، "**فرادى**"، وهو ما أخبره سبحانه **(وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ)**(الأنعام: 94)، والتشبيه هو بِمجيئهم فرادى إلى مقرّ الأرباب/الملائكة حيث جنّة آدم والجبل العظيم، فهذا المجيء يتكرّر مرّتيْن؛ مرّة حين دخل ذانِك الكائنان البشران كلاً على حدة (فرادى) مركز الملائكة، وكانت صاقةً صفّاً فعدّلته وسوّته ثُمّ جاء الربّ المسئول وهو الرّوح العظيم، فنفخ في أحدهما من روحه وأطلق عليه اسم آدم، فقام المدبّرون بصنع نسخة ثانيةٍ

مطابقة منه هي حوّاء من نفس الطين والرّوح. والمجـــيء الثاني بعد موت الإنسان بنصّ الآية لا ظرْف المحشر الذي يأتي فيه الجميع ولا يترك أحدٌ ما خُـــوِّل وراء ظهـــره إلاّ بالموت، فتأتي تلك النّفوس البشريّة إلى نفْس المكان، مقـــرّ الملائكة، نفساً نفساً، كلّما ماتت نفسٌ ذهبتْ هناك لتُعـــرَض على الربّ والملائكة المدبِّرين، فتُحاســـب فـــإنْ اســـتحقّت الرُّوح نُفِخ فيها، وإلاّ حُرِمتْ وطُرِحتْ في نـــار البـــرزخ والابتلاء حسب تخطيط الربّ (الألفيّ).

هذا خلْق الإنسانيّة الأولى لا البشريّة الأولى، وهـــو الـــذي كان قرْب حوض التطهير في الجنّة. وهذا يدلُّك مرّةً ثانيـــة أنّ أسطورة "نينماخ وإنكي" السومريّة بشأن خلْق الإنـــسان تمّت في الجنّة حيث الملائكة الصّافون وحيـــث الحـــوض القابع فوق خزّان "الأبسو". فالبداية كانت مـــع الآدم الفـــرد والحواء الفردة صفّا وسُوّيا وعُدّلا ثـــم نُفـــخ فيهمـــا مـــن الروح.. وتحوّلا إلى كائنٍ آخر هو "الإنسان". لكنّ حـــوّاء ليست هي الأنثى الوحيدة التي تمّ نقلها من الطور الهمجـــيّ إلى الطور الإنسانيّ، هي الوحيدة مع "آدم" الإنسان، لكـــنّ القدرة الإلهيّة قدْ صنّعتْ (سوّت وعدّلت) غيرَها بعد إهباط آدم من الجنّة بمعصيته، هؤلاء النـــساء الإنـــسيّات خُلّقـــن

خصّيصاً ليتزوّجهن أبناء آدم وهُمْ ذكور، وقــدْ دلّ القــرآن على هذا وكذلك بعضُ المأثورات الصحيحة. لكنْ هذا أمر سيتمّ تناولُه في بحث معصية آدم.

ثامناً – هل العلم يُقرّ بهذا الرأي؟ ولماذا هذا الفارق الزمني بين آدم الإنسان وآدم التوراة؟

نعم، يقول طه باقر "أنّ الإنسان العاقل (HomoSapiens) قد ظهر فيما سمّوه العصر الحجري الحديث قبل 35 ألــف سنة على الأقلّ، أو (منذ أقلّ من 50 ألف سنة في حــدود منتصف العصر الحجري الوسيط)"[1]. وإنّ تقديرات العلماء أرّخت لظهور الإنسان العاقل بين 30 إلى 50 ألف سنة، أو ما أطلقوا عليه "إنسان كرمــانيون، نــسبة إلــى الكهــف المكتشف فيه بقايا آثاره، بعد الحقبــة الجليديّــة الأخيــرة، والحقبة الجليديّة الأخيرة التي ألمّت بالأرض ولمْ تُبــقِ إلاّ حزام ما حول الاستواء، أي ما بين المدارين وأكثر قلــيلاً، كمناطق قابلة للعيش، وحسب التقديرات، قدْ ابتدأت متزامنة معه، أي قبل خمسين ألف سنة تقريباً، لتبدأ في الانحــسار

♦ [1]– انظر مقدّمة: طه باقر، **تاريخ الحضارات القديمة**، ص 165.

مع مطلع الألف العاشر ق.م. بما رافق ذلك من تغييــرات جيولوجيّة وجغرافية للعالَم بأسره. فإنّ آخر عــصر دافــئ بدأت معالمه قبل 14 ألف سنة قبل الميلاد[1]، ووُجدت آثــار لحضارات في المنطقة العربيّة، ترجع إلى ما قبــل الألــف العاشر قبل الميلاد، ما يعني أنّ الإنسان العاقــل موجــود وصار له نسلٌ توزّع في النواحي المتاحــة، وهــذا ينفــي تأريخ التوراة لآدم الأوّل بأنّه بـــ 4000 سنة قبل المــيلاد، إذّ حضارة سومر المشهورة ووادي النيل العريقة تمتدّ لقبل هذا التاريخ بكثير، فكيف بالحضارات السابقة من نطوفيّين

- [1]-120,000 to 18,000 **BCE**; During the last ice age, sheets of ice up to two miles thick covered much of the northern parts of North America, Europe and Russia. So much water had been withdrawn from the world's oceans that their level was about 400 feet (120 meters) lower than it is today.
- http://www.religioustolerance.org/ev_noah.htm
- The last Ice Age or glacial period on Earth ended roughly 14,000 years ago. At that time, much of Northern Europe and North America lay under huge ice sheets that today remain only in Greenland.
- http://geography.otago.ac.nz/Courses/283_389/Resources/palaeo/IceAges.html
- The sea has risen 100 meters since the last ice age, ocean water now exerts a downward force on parts of the continental shelf that had been above sea level.
- http://yosemite.epa.gov/oar/globalwarming.nsf/content/ClimateTrendsSeaLevel.html

وعبيديّين، لكنّ هذا أمرٌ لنْ يتجلّى إلاّ بـــالتّفريق بـــين آدم الرسول (الثاني) وآدم الإنسان (الأوّل)، وهو بحثٌ آخر لـــه محلّه الخاصّ.

ختام الفصل:

وبعد، فكثيرةٌ هي الإشكالات والمعارضات التي قد تُوجَد فـــي أذهانٍ تشبّعت بالتقليد أو تقديس اللامقدّس، وبـــالاجترار مـــن تـــراث خاطئ على حساب الصحيح، وعدم فهم الصحيح من المـــرويّ بـــل إسقاط فهمنا المعكوس عليه، لذا وكما قد أسلفنا فلا يسعُنا، مهما بذلنا، أنْ نستقصي الإشكالات التي يُمكن أنْ تطرأ في الأذهـــان، وبالـــذّات أذهان المُعضلين والمماحكين، وحتّى لو استطعنا استقـــصاءها فلـــن نُتكلّف بالإجابة عليها أو تغطيتها، لأنّه ليس من شأننا تلقين المعرفـــة والأجوبة وتجميد عقل القارئ الباحث واستتباعه، فأزمة العقل المسلم لمْ تأتِ إلاّ بهذا، بل شأننا وواجبُنا توضيح المحجّة إلى الجواب، وقـــد نصبنا المنهج، وشيّدنا منارته؛ أنّ كتاب الله هو سيّد الناطقين، والحكَم الفصْل، لا لهوٌ ولا لغو، وما هو بالهزل، على الباحث أنْ يُدرك نظامَ كتاب ربّه أوّلاً متحرّراً من دهاليز التوارتيّين وقوامع آراء الرجـــال، مؤمناً بأنّه كتابٌ مبين فعلاً، تُوافقه العلـــومُ والمكتـــشفات وتُـــصدّقه،

وتشهد بصدقه الروايات الصحاح لا المكذوبة، وبهذا المـائز نعـرف الرواية المكذوبة من الصحيحة، لأنّ المكذوبة ستنهزم عـن موافقـة القرآن، لأنّها صدرتْ كدسائس من جاهلين بالقرآن لا من مقارنين له ومنذِرين به.

وقد عملنا جاهدين أنْ نُفسِّر الآيات التي تمتُّ إلى موضـوع الخلق، وفي الحقيقة، فإنّ جلّ الآيات التي فسّرناها،إن لم تكـن كلهـا ستصدم القارئ بمخالفتنا المفسّرين فيها، لأنّهـم مـا فـسّروها فـي الحقيقة، فدونك أيّ تفسيرٍ أمامَك، استلّهُ واقرأ فيه وستفهم ما نعنـي، بل أخطأوا فيها وخلطوا وغبّشوا، لافتقادهم النظرة الشاملة للموضوع القرآني وامتهانهم تجزئته، ولتأثرهم بالقصص التوراتي وما يُوافقـه، ولانطلاء كثير من المرويات المدسوسة عليهم فقدّسوها، ولاتبّـاعهم نظاماً خاطئاً في التعرّف على لغة القرآن ولـسانه العربـيّ المبـين ونظامه الصارم، وأخيراً لجعلهم القرآن مُهيْمَناً عليه بدلاً مِن أن يكون هو المهيمن، علاوةً علـى عـدم مبـالاة بعـضهم بحقـائق العلـم الموضوعي.

فالإشكالاتُ حتماً كثيرةٌ بحجم الجهـل الموجـود، وبحـسب العقول الموجودة، وعلى قدر تكرّس اللانظام في فهم النصوص، فمـا وجدنا إلاّ أنْ نتخيّر فقط أمّهات الإشكالات وأصعبها، التـي وجـدنا احتمال طروئها على ذهن الباحث الجادّ وذللناها له، وإنْ وُجِد غيرها

- وهو موجودٌ لا محالة - فليلتمس الباحثُ الفطنُ ممّا قــدّمنا ســبيلاً لتذليل الباقي.

وقد رأينا أنّ هذه الإشكالات التي سيقتْ، والتذليل الذي أُقــيم بإزائها، قد أفادنا خلافَ ما أُريد له، فأورث فــي النتيجــة يقينــاً، أنّ النصّ القرآني، وأقوال المعصومين، وتراث الآباء الأولّين، كلّها تتبع من مشكاةٍ ربّانيّة واحدة، هي الحقّ، ولكنّنا -لمّا سجنّا عقولنــا فــي أغاليط الرجال- قُمنا ببذّر الخصام بين القرآن ونظامه، والقرآن وقول المعصوم، وتراث الأولّين والآخرين، وفقدنا الصفاء في فهم الأمور، وتمييز الصحيح من السقيم، نسأل الله تعالى لنا ولقارئنا وللباحثين هذا الصفاء وذاك التحرّر.

الخاتمـــة

لقد كان هذا البحث، محاولة سريعة غير مكتملة فـــي مـــسألةٍ واحدةٍ فقط، تشكّل خلاصة نظرنا في كتاب الله العزيز وفي مـــدوّنات تراثنا العظيم، ليُدرك القارئ وحْدة هذا التراث في مسائله المعرفيّـــة والاعتقاديّة، والقيميّة أيضاً، لحضارة لها تاريخ تليد منذ وُجد الإنسان الأوّل وما يزال فيها كمونُ العطاء الثرّ، فهي التي تمتلـــك مخـــزون الحقائق الإنسانيّة العُليا، فعليها أنْ تحفر لطلبها في أرضها لا لتتوسّلها من الآخرين أو تنتظر ليجودوا عليها بهـــا، أو أنْ يكتبـــوا تاريخهـــا بأيديهم فيصوغوا هويّتها ويُفصّلوها لها.

وإنّنا إذ نُقدّم هذا البحث للقارئ العربيّ والمسلم، مباينين فيها النظرة التقليديّة ووجهاتها وتلقيناتها، لا جرأةً لأنّا أردنا المخالفـــة، أو الموافقة، ولا لنقسر القارئ الكريم عليها، بل لنُحرّره فيختبرهـــا هـــو بنفسه، يقتنع بما شاء، ويرفض ما شاء ويُطوّر ويُصحّح ما شاء، بعد أنْ ينعتق من إذعانه العاطفيّ الرهبويّ أو الرغبويّ تجاه الإمـــلاءات والسطوات المعرفيّة التي تُقولَب له جاهزةً باســـم الـــدّين، فتُـــصادر تفكيره وعقله، وتمسخ ذاته وتسلبُ دوره وتقمع تطوّره، ويظلّ يُطوَّح به هائماً في تقليد الأفكار سواءً من بني جنسه أو من الأغراب.

هذا البحث إحدى فُرصِه للانعتاق وللاختبار، وليقول بملء الفم لمن يُلوِّح: قال الله وقال رسوله وقال التاريخ وقال فلان وفلان، هذه المُحاولة تردّ عليه وتقول: كفى سطوةً على عقولنا، ها هو ذا اللهُ تعالى ورسولُه والتاريخ لم يفوهوا بذلك، بل أنتم قُلتُم، بعد أنْ توهّمتُم، أو في أحسن حال "هو ما فهمتُم واجتهدتُم" فلكم الأجر الواحد والكبير، فبُوركْتُم: دَعُوا الآخرين يختبروا وعيَهم أيْضاً، أطلقوا سراحهم، ليصيبوا الحقيقة التي قال عنها سبحانه (أفلا يتدبّرون القرآن) وأمر رسوله الأمين بأنْ يُحفّزهم لاكتشافها: (قلْ سيروا في الأرض) بمعزلٍ عن تلقين الموتى، تلك التي بُعث النبيّ الهادي (ص) ومن جُملة أهدافه أنْ يُثير في النّاس دفائن عقولهم -لا أنْ يدفن عقولها- ويضع عنهم الإصْر والأغلال التي كانت عليهم. وقد قال الإمام الصادق حفيد نبيّنا العظيم (ص) يوماً ما :(مَنْ دخل في هذا الدّين بالرجال أخرجه منه الرجال كما أدخلوه فيه، ومَن دخل فيه بالكتاب والسنّة زالت الجبال قبل أن تزول)[1].

فهذا البحث للاختبار؛ أنْ يختبر القارئ وعيه، حرّيته، عقله، قرآنه، وتراثه، ومألوفه، ثُمّ كيفيّة تشكيله اعتقاده، أبالرجال أم بالكتاب؟! ليسترجع ذاته الحبيسة الذائبة والمطمورة مدى العُمر، فخلاص أمّتنا العظيمة هو مِنْ خلاص أفراد أبنائها.

---

[1] - الكليني، **الكافي**، ج1، ص7؛ النعماني، **كتاب الغيبة**، ص12.

والحمد لله ربّ العالمين

وأفضل صلاة وسلام على سيّدنا محمّد وآله

وعلى صحبه ومَن تولاّه إلى يوم الدّين

قائمة المصادر والمراجع

<u>أولاً – العربية والمترجمة:</u>

1- ابن أبي شيبة (أبو بكر عبدالله بن محمد الكوفي)، **مصنف ابن أبي شيبة**/ تحقيق كمال الحوت، ط1، الرياض: مكتبة الرشاد، 1409.

2- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، **تاريخ الأمم والملوك** (تاريخ الطبري)، بيروت: مؤسسة الأعلمي.

3- ابن جرير الطبري (أبي جعفر محمد)، **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**/ ضبط صدقي جميل العطار، بيروت: دار الفكر،1415.

4- ابن حجر (أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني)، **فتح الباري**/ تحقيق محمد فؤاد عبدالباقي ومحب الدين الخطيب، بيروت: دار المعرفة، 1379.

5- ابن حزم الأندلسي (علي بن أحمد بن سعيد)، **المحلى**/ تحقيق أحمد محمد شاكر، بيروت: دار الفكر.

6- ابن حنبل (أبي عبد الله أحمد بن محمد)، **المسند**، ط1 [بهامشه منتخب كنز العمال في سنن الأقوال]، بيروت: دار الفكر.

7- ابن شعبة الحراني (أبو محمد الحسن بن علي بن الحسين)، **تحف العقول**/ قدم له محمد حسين الأعلمي، ط5، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1394/ 1974.

8- ابن شهر آشوب (محمد بن علي)، **مناقب آل أبي طالب**، النجف الأشرف: المطبعة الحيدرية، 1376.

9- ابن فارس (أحمد بن فارس بن زكريا)، **معجم مقاييس اللغة**، ط1 [جديدة مصححة وملونة]، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 2001.

10- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، **البداية والنهاية**/ تحقيق علي شيري، ط1، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1408هـ.

11- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، **تفسير القرآن العظيم** (تفسير ابن كثير)، بيروت: دار المعرفة، 1412هـ.

12- ابن كثير (الحافظ أبي الفداء إسماعيل الدمشقي)، **قصص الأنبياء**/ تحقيق مصطفى عبدالواحد، ط1، دار الكتب الحديثة، 1388.

13- أبي الفتح الإربلي (علي بن عيسى)، **كشف الغمة**، ط2، بيروت: دار الأضواء، 1405/ 1985.

14- إدزارد (د)، بوب (م. هـ)، رولينغ (ف)، **قاموس الآلهة والأساطير**: في بلاد الرافدين (السومريّة والبابليّة) في الحضارة السوريّة (الأوغاريتيّة والفينيقيّة)/ تعريب محمّد وحيد خياطة، ط2، لبنان، سورية: دار الشرق العربي،2000.

15- إرمان (أدولف) ، **ديانة مصر القديمة**: نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة/ ترجمة عبدالمنعم أبو بكر ومحمد أنور شكري، ط1، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1415/ 1995.

16- الأصبهاني (أبو نعيم أحمد بن عبدالله)، **حلية الأولياء**، ط4، بيروت: دار الكتاب العربي، 1405.

17- أوفيد، **مسخ الكائنات**/ ترجمة ثروت عكاشة، ط3، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1992.

18- البرقي (أحمد بن محمد بن خالد)، **المحاسن**/ تحقيق السيد جلال الدين الحسيني، دار الكتب الإسلامية.

19- البستانيّ (بطرس)، **محيط المحيط**، بيروت: مكتبة لبنان، 1977.

20- بشور (وديع)، **الميثولوجيا السورية** - أساطير آرام، ط2 [منقحة ومعدلة]، لا بلدة: لا ناشر، لا تاريخ.

21- البعلبكي (منير)، **المورد القريب**، ب : ط ، بيروت: دار العلم للملايين، كانون الثاني (يناير) 1986.

22- باقر (طه)، **تاريخ الحضارات القديمة**، بغداد، 1986.

23- باقر (طه)، **ملحمة كلكامش**، ط5، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع ، 1986.

24- البيقهي (أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي بن عبدالله بن موسى)، **كتاب الزهد الكبير**/ تحقيق عامر حيدر، ط3، بيروت: مؤسسة الكتب الثقافية، 1996.

25- الثعالبي (عبدالرحمن بن محمد مخلوف أبي زيد المالكي)، **تفسير الثعالبي** (الجواهر الحسان في تفسير القرآن)/ تحقيق

عبدالفتاح أبو سنة وآخرون، ط1، بيروت: دار إحياء التـراث العربي، 1418.

26- الجاحظ (كمال الدين الدميري)، حياة **الحيوان**، ط1، بيـروت: دار الكتب العلمية، 1994.

27- الحر العاملي (محمد بن الحسن)، **الجواهر السنية في الأحاديث القدسية**، قم: مكتبة المفيد.

28- الحـر العـاملي (محمـد بـن الحـسن)، **وسـائل الـشيعة**/ تحقيـق عبدالرحيم الشيرازي، ط4، بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1391.

29- الخميني (مصطفى روح الله)، **تفسير القرآن الكـريم**: مفتـاح أحسن الخزائن الإلهية، ط1، طهران: مؤسسة تنظيم ونشر آثار الإمام الخميني، 1418.

30- داوود (أحمد)، **تاريخ سوريا الحضاري القديم**-1 المركز، ط2، دمشق: مطبعة الكاتب العربي، 1997.

31- ديورانت (ول وايريل)، **قصة الحضارة**/ ترجمة زكـي نجيـب محمود، ط1، بيروت: دار الجيل، 1412/ 1992.

32- الذهبي (أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز)، **سير أعلام النبلاء**/ تحقيق شعيب الأرناؤوط ومحمد العرقسوسي، ط9، بيروت: مؤسسة الرسالة، 1413.

33- الرازي (فخر الدين محمد بن عمر)، **التفسير**، ط1، بيروت: دار الفكر، 2002.

34- رشيد (عبد الوهاب حميد)، **حضارة وادي الرافدين**، ط1، دمشق: دار المدى للثقافة والنشر والتوزيع، 2004.

35- رودولف (كورت)، **النشوء والخلق في** النصوص **المندائية**/ ترجمة صبيح مدلول السهيري، بغداد: جامعة بغداد 1994.

36- الريشهري (محمدي)، **ميزان الحكمة**، ط1[منقحة]، قم: دار الحديث، 1416هـ.

37- الزمخشري (أبو القاسم محمود بن عمر)، **تفسير الكشاف**، ط4، قم: مركز الإعلام الإسلامي.

38- السيوطي (جلال الدين) ، **الدر المنثور**، ط1 [بهامشه القرآن الكريم مع تفسير ابن عباس]، بيروت: دار المعرفة، 1365هـ.

39- شابيرو (ماكس)، هندريكس (رودا)، **معجم الأساطير**/ ترجمة حنّا عبود، دمشق: دار علاء الدين، 1999.

40- شحرور (محمد)، **نحو أصول جديدة للفقه الإسلامي** (فقه المرأة)، ط1، دمشق: الأهالي للتوزيع، 2000.

41- الشريف المرتضى (علي بن الحسين بن موسى)، **الأمالي**/ تحقيق محمد الغساني الحلبي، ط1، قم: مكتبة المرعشي النجفي، 1325/ 1907.

42- الشريف الرضي (محمَّد بن الحسين بن موسى)، **نهج البلاغة**/ شرح محمد عبده، بيروت: دار المعرفة.

43- الشاهرودي(علي النمازي)، **مستدرك سفينة البحار**/ حسن بن علي النمازي، قم: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، 1419.

44- الشوكاني (محمد بن علي بن محمد)، **فتح القدير**: الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير، القاهرة: عالم الكتب.

45- الصدوق (محمد بن علي بن بابويه)، **التوحيد**/ تحقيق السيد هاشم الحسيني، قم: مؤسسة النشر الإسلامي لجماعة المدرسين، 1387.

46- الطبرسي (أبي محمد علي الفضل بن الحسن)، **مجمع البيان في تفسير القرآن**، ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1415.

47- الطباطبائي (السيد محمد حسين)، **الميزان في تفسير القرآن**، ط2، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1392/ 1972.

48- عبابنة (يحيى)، **اللغة الكنعانيّة:** دراسة صوتية صرفية دلالية مقارنة في ضوء اللغات السامية، ط1، عمّان: دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، 2003.

49- علي (فاضل عبد الواحد)، **سومر أسطورة وملحمة**، ط1، دمشق: الأهالي للتوزيع، 1999.

50- علي (فاضل عبدالواحد)، **عشتار ومأساة تموز**، ط1، دمشق: الأهالي للتوزيع، 1999.

51- الفيض الكاشاني (محمد محسن)، **الآصفي في تفسير القرآن**، ط1، مركز الأبحاث والدراسات الإسلامية، 1418هـ.

52- القرطبي (محمد بن أبي بكر بن فرج)، **التفسير**/ تحقيق أحمد البردوني، ط2، القاهرة: دار الشعب، 1372.

53- القمـي (أبـي الحـسن علـي بـن إبـراهيم)، **تفـسير القمـي**أ تـصحيح السيد طيب الجزائري، ط3، قم: مؤسسة دار الكتاب، 1404.

54- كريمر (صامويل نوح)، **من ألواح سومر**/ ترجمة طـــه بـــاقر، بغداد، القاهرة: مكتبة المثنى ومؤسسة الخانجي.

55- الكاشاني (محمد محسن بن الشاه مرتضى)، **التفسير الـــصافي**/ حسين الأعلمي، ط2، طهران: مكتبة الصدر، 1416.

56- الكليني(أبي جعفر محمد بن يعقوب)، الكافي/ تحقيق علي أكبر الغفاري، بيروت: دار الأضواء، 1405/ 1985.

57- كيفلس (دانييل)، هود (ليروي)، **الـــشفرة الوراثيـــة للإنـــسان** (القضايا العلمية والاجتماعية لمـــشروع الجينـــوم البـــشري) / ترجمة أحمد مستجير، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، يناير 1997.

58- لابات (رينيه)، وآخرين، **سلسلة الأساطير الـــسورية:** ديانـــات الشرق الأوسط/ تعريب مفيد عرنوق، ط1، دمشق: دار عـــلاء الدين، 2000.

59- المتّقي الهندي (علاء الدين علي المتقي بن حسام الدين)، **كنز العمال/** تحقيق بكري حياني وصفوة السقا، بيروت: مؤسسة الرسالة.

60- الماجدي (خزعل)، **إنجيل سومر**، ط1، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1998.

61- الماجدي (خزعل)، **ميثولوجيا الخلود:** دراسة في أسطورة الخلود قبل الموت وبعده في الحضارات القديمة، ط1، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 2002.

62- المجلسي (محمد باقر بن المولى محمد تقي)، **بحار الأنوار**، ط2، بيروت: مؤسسة الوفاء، 1403/ 1983.

63- الميرزا النوري (ميرزا حسين بن محمد تقي الطبرسي)، **مستدرك الوسائل**، ط2، مؤسسة آل البيت (ع) لإحياء التراث، 1409هـ.

64- المسعودي **(أبو الحسن علي بن الحسين بن علي)**، **مروج الذهب/** تحقيق شارل بلا، ط1، الناشر: منشورات الجامعة اللبنانية، 1979.

65- المعموري (ناجح)، "المسكوت عنه في ملحمة جلجامش"، **مجلّة ألواح**، العدد : 12 – 2002.

66- النسائي (أبو عبدالرحمن أحمد بن علي بن شعيب)، **السنن الكبرى**/ تحقيق عبدالغفار البنداري وسيد كسروي، ط1، بيروت: دار الكتب العلمية، 1411/ 1991.

67- النعماني (محمد بن إبراهيم بن جعفر)، **كتاب الغيبة**، ط1، بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، 1403/ 1983.

68- النيسابوري (محمد بن الفتال)، **روضة الواعظين**/ تحقيق السيد محمد مهدي الخراسان، قم: منشورات الرضي.

69- الواسطي (علي بن محمد الليثي)، **عيون الحكم المواعظ**/ تحقيق حسين البيرخبدي، ط1، دار الحديث، 1376ش.

ثانياً – الانترنيت:

1 – http://azothgallery.com/alchemical/k_damiani_sophiasoul.html

2- http://home.apu.edu/~geraldwilson/atrahasis.html

3 - http://duke.usask.ca/~niallm/252/Diodisis.htm

4 - http://home.iae.nl/users/lightnet/celestial/zechariah.htm

5 - http://geography.otago.ac.nz/Courses/283_389/Resources/palaeo/IceAges.html

6 - http://home.apu.edu/~geraldwilson/atrahasis.html

7 - http://www.alhawali.com/

8 - http://www.alwah.com/magazine.htm

9 - http://www.ancienttexts.org/library/mesopotamian/enuma.html

10 - http://www.channel4.com/history/microsites/N/neanderthal/

11- http://www.crystalinks.com/amphibiousgods.html

- 12 –
  http://www.gatewaystobabylon.com/myths/texts/classic/enuma.htm#7

13 - http://www.hiddenmysteries.com/freebook/adameve/adameve1.html

14- http://www.islamedia.com/MIE2/maws/maws1.html.

15 - http://www.mazzaroth.com/ChapterThree/HistoryOfTheBible.htm

http://www.mystic-mysteries
16-magic.com/mysteries_egyptian_invoke_isis.ht

17 - http://www.personal.psu.edu/faculty/o/x/oxf3/atrahasis.html

18 - http://www.piney.com/BabEnAratta.html

19 - http://www.religioustolerance.org/ev_noah.htm

20 - http://www.sacred-texts.com/eso/sta/sta10.htm

21 -http://www.webcom.com/~gnosis/lillith.html

22 - http://yosemite.epa.gov/oar/globalwarming.nsf/content/Climate TrendsSeaLevel. html

ثالثاً – الإلكترونية:

أ – القرآن:

1 – سيمافور للتقنية، **مصحف النور للنـــشر المكتبـــي**، الإصدار الثـــاني، الريـــاض: المملكـــة العربيـــة السعودية، 2001.

ب – التوراة:

1- Rick Meyers,E-Sword, Ver 7.1.0,2000-2004, http://www.e-sword.net

2- Online Bible Millennium Edition. Version: 1.11.90, Mar 28, 2002, http://www.onlinebible.net/.

جـ – أقراص مدمجة:

1 – مركز المعجم الفقهي، **برنامج المعجم**، الإصـــدار الثالث، قم المقدسة، 1421هـ.

2 – مركز التراث لأبحاث الحاسب الآلـــي، **المكتبـــة الألفية للسنة النبويـــة**،الإصـــدار 1.5، الأردن (عمان): مركز التراث، 1419/ 1999.

3 – مركز التراث لأبحاث الحاســب الآلـــي، **تـــاريخ دمشق لابن عساكر**، الأردن (عمـــان): مركـــز التراث.

فهرست المحتويات

تسجيل:414

سلسلة عندما نطق السراة

1. مفاتح القرآن والعقل.
2. التوحيد..عقيدة الأمة منذ آدم.
3. جنة آدم تحت أقدام السراة.
4. اللسان العربي..بعد فطري وارتباط كوني.
5. الإنسان الإنسان..وتحسب أنك جرم صغير.
6. نداء السراة..اختطاف جغرافيا الأنبياء.
7. ليلة القدر..عيد الخليقة.
8. طوفان نوح..بين الحقيقة والأوهام.
9. بين آدمين..آدم الإنسان وآدم الرسول.
10. مسخ الصورة..سرقة وتحريف تراث الأمة.
11. الأسطورة..توثيق حضاري.
12. وعصى آدم..الحقيقة دون قناع.
13. الخلق الأول..كما بدأكم تعودون.
14. اليهود وتوراة الكهنة.